حُمَاةُ الدِّيَارِ

حُمَاةُ الدِّيَارِ

د. خالد تركي

الإهداء

إلى الذين شقّوا لنا الطّريق بعرقهم وكدّهم
وأناروا دربنا بنور عطائهم وتفانيهم
وفكرهم ليحافظوا على وجودنا فوق أرضنا
وبقائنا في وطننا الذي ليس لنا وطن سواه
ولنسير، من بعدهم، بخطى ثابتة وأكيدة
نحو السّلام العادل وعودة اللاجئين وبناء
العدالة الاجتماعيّة..
إلى روح المناضِل داود تركي (أبو عائدة)

المُقَدِّمَة

مــن أيّة طينة جُبِلوا، ومــن أيّ ماء شربوا، ومن أيّ نبــع نهلوا، حتّى خرجت هذه الخلطة المقدّســة من الطّين الخصب والماء العذب في اليوم السّادس دون أن يعرفوا ما معنى راحة اليوم السّــابع، يومَ يرتاح باقي البشر، فقد واصلوا عملهم على مدار أيّام الأســبوع ما بين السُّــهُبِ والشُّهُبِ ليبنوا بنيانًا متراصًّا ومُشيَّدًا وعميقًا في باطن الأرض تمتدّ جذوره إلى نواتها..

لقــد خــرج من هــذه الطّينــة الحمراء أنــاس أشــدّاء وأقوياء وأشــاوس، لا يعرفون أيّ نوع للكســل، بعــد أن نُفِحت فيهم روح العمــل والمثابرة والكدّ والجدّ والتّضحيــة والفداء، فخرجوا إلى الميدان ونمَوا وتكاثروا وملأوا الأرض وأخضعوا الطّاغوت دون خوف أو وجل وعملوا بتحدٍّ بطوليّ ونشــاط دؤوب دون أن يرتاحوا يوم راحتهم في اليوم السّــابع، بل راحوا يتابعون مســيرتهم وينشدون نشيدهم الصّاخب نشيد الأمميّة:

هُبُّوا نَمْحُو كُلَّ مَا مَرَّ هُبُّوا حَطِّمُوا القُيُود

وَابْنُوا الكَوْنَ جَدِيدًا حُرًّا وَكُونُوا أَنْتُمُ الوُجُود

وحين تعرّفوا على شــجرة المعرفة ابنة التّسعين، ســنديانتنا الحمراء وأختها زيتونتنــا الخضراء، وعرفوا ثمارها جيِّدًا بــدأوا يفرّقون ما بين الخير والشَّرِّ، بعد أن «أكلوها وجرَّبوها» على جلدهم شــقاء الحياة وعذابها وهناءها، لذلك مُنحوا اســمًا جميلاً بحســب جنس الإنســان، رفيقة ورفيق، وأصبحوا رفاق الــدّرب في السّرّاء والــضّراء وفي العمل والجدل حيث أتــوا النّاس جميعًا، من

أهل الأرض، بالبيِّنات وأصبح الرّفيق للرّفيق كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا فكانت قوّتهم في اتّحادهم واتّحادهم في قوّتهم..

لقد واصل رفاقنا عملهم اليوميّ من أجل لُقمة العيش بشرف وكبرياء بعملهم النّضالي المثابر طيلة أيّام الأسبوع خاصّة أيّام الثّلاثاء والجمعة بعد يوم عمل مُضنٍ وفي يوم راحتهم، اليوم السّابع، كانوا يخرجون إلى القرى المجاورة والمتاخمة لبلدتهم من أجل نشر فكرهم، فكر الوعي الطّبقي والوطني والعدالة الاجتماعيّة والسّلام بنشر الكلمة الصّادقة المكتوبة في أدبيّات حزبنا الشّيوعي، بين الجماهير الكادحة والمُثقَّفة، بينما كان الآخرون يذهبون للنّزهة وشمّ النّسيم والرّاحة، مع أنّ هذا أيضًا من حقِّهم الطّبيعي.

لقد كانت راحة رفاقنا/رفيقاتنا في كدِّهم وتعبهم وشقائهم وكم كانت غبطتهم كبيرة حين كانوا يقطفون ثمرة تعبهم حيث كانوا يكتفون بأقلّ من النّزر اليسير، لأنّهم كانوا يعملون عمل النّملة بتأنٍ وعمل النّحلة بنظام، لكي يحيكوا لشعبهم الرّازح تحت الاحتلال ولطبقتهم العاملة المُضطَّهدة درع المجد والكبرياء والصّمود.

فمن الرّفاق/الرّفيقات من قضى تاركًا لنا التّجربة الجريئة والذّاكرة التّاريخيّة الغنيّة ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا، بل بقُوا قابضين على الجمر الملتهب أوفياءَ للعهد الذي قطعوه على أنفسهم في سبيل الحفاظ على وجود شعبهم ووجودهم فوق أرضهم، في سبيل مجد وعزّة وكرامة الوطن بضمير حيٍّ ومنير وإيمان ثابت، كقول الشّاعر محمّد مهدي الجواهري:

بَاقٍ-وَأَعْمَارُ الطُّغَاةِ قِصَارُ- مِنْ سِفْرِ مَجْدِكَ عَاطِرٌ مَوَّارُ
وَالمَجْدُ أَنْ تُهْدِي حَيَاتَكَ كَلَّهَا لِلنَّاسِ لا بَرَمٌ ولا إِقْتَارُ
وَالمَجْدُ أَنْ يَحْمِيكَ مَجْدُكَ وَحْدَهُ فِي النَّاسِ..لا شُرَطٌ ولا أَنْصَارُ
وَالمَجْدُ إِشْعَاعُ الضَّمِيرِ لِضُوئِهِ تَهْفُو القُلُوبُ، وتَشْخَصُ الأَبْصَارُ

وَالمَجْدُ جَبَّارٌ عَلَى أَعْتَابِهِ تَهْوِي الرُّؤُوسُ..وَيَسْقُطُ الجَبَّارُ

لقد أردْتُ تدوين الحقائق التّاريخيّة المعروفة التي ذكرتها في كتاباتي السّابقة من على صحيفة الشّعب، الاتّحاد، النّاطقة باسم حزبنا الشّيوعي في بلادنا، باقتضاب وتركّزت في كتابتي على الحقائق المحكيّة والمعيشيّة اليوميّة والتي لم تُذكر قطّ ولا يعرفها أحد من خارج نطاق هذه القرية/المدينة أو تلك أو حتّى يجهلها أهل القرية/المدينة الشّباب/الشّابّات تمامًا، أو يتجاهلها عمدًا، وحتى لا تبقى في بوتقة محصورة ضيّقة، محسورة في ذاكرة مجموعة مُعيَّنة من النّاس، رفاقنا، ولا يعرف غيرنا عنها شيئًا، وأردت تدوين الحقائق حتى لا تكون عرضةً للضَّياع إذا لم يتمّ تدارك الأمر عاجلاً.

إنّ هذه الوقائع المُخبّأة في أفئدة الرّفاق الذين ينتظرون اللحظة الكاشِفة كي يفتحوا عبّهم ويُفرّجوا عمّا في صدورهم ويُفرِجوا عن حكاياتهم ويُطلقوا سراح أسرارهم الدّفينة حتّى لا تضيع كلّما هبّت الرّيح أو كي لا تُوارى التراب مع حافظها يوم تأتي ساعة الحشر، فتزول بمجرّد غيابهم عن الأرض، لقد أردتُ كتابة ذاكرة الرّفاق وتدوينها لتقف بوضوح كقرص الشّمس في قبّة السّماء الزّرقاء مكشوفة لجميع الأنام، وأمام كلّ من تسوّل له نفسه تزوير الحقائق أو تغيير شيء من ذاكرة هؤلاء الأبطال، وتغييب تاريخ رفاقنا/رفيقاتنا وكتبتُ بطولاتهم حتى لا تكون ذكرياتهم محكيّة فحسب، بل وثيقة شرفٍ مكتوبة ومُدوّنة لمعرفة حيّة مزروعة في وجدان وضمير جماهير شعبنا، لذلك علينا أن نحفظها ونُحافظ عليها ونحرِص عليها ونحرسها من أيّ اعتداء أو تطاول وحتى نُعزِّزها علينا انتشالها من آبار ذاكرتنا لتروي ظمأ العِطاش وتروي قصّة رفاق/رفيقات جُبلوا من طينة أخرى مميَّزة..

يقول الكاتب عبد الرّحمان منيف عن الذّاكرة في كتابته لمقدّمة كتاب الأديب الشّيوعي محمّد دكروب، «وجوه..لا تموت» ص 22: وهذه الكتابة وهذه

الحياة هما الذّاكرة التّاريخيّة التي يجب أن نحرص عليها ونعزِّزها، لأنّ أحد التّعريفات المُميِّزة للإنسان أنّه مخلوق ذو ذاكرة، وأنّ له تاريخًا».

لقد سبح رفاقنا عكس التَّيَّار الجارف وواجهوا الأنواء العاتية بصدورهم العارية وفكرهم النّبيل، وسبحوا بين أسماك القرش المفترسة والحيتان، وعرفوا كيف يحمون البحر وسفنه ومراكبه وفلكه وأسماكه وعرفوا كيف يحمون شُطآن البحر الهدّار من عواصفه ومن شياطينه.

لقد فرضت عليهم الرّجعيّة المحليّة الحرمان الدّيني، وحاربتهم وحرّضت عليهم باسم الدين نزولاً عند رغبة نفر من رجال الدّين الرّجعيّين ورغبة الحكومات الصّهيونيّة المتعاقبة في دحر الخطر الذي منحوه اسم «الخطر الشّيوعي»، ليكونوا غرباء بين أهلهم، لكنّهم فشلوا.

لقد فُرض على الرّفاق السّجن والنّفي والإبعاد والملاحقات والتّهديد والطّرد من العمل لتضيق الدّنيا في وجوههم حتّى لا يجدوا منفذًا لأزمتهم أو منقذًا لحياتهم غير ذلك الذي قد رسموه لهم حتّى يسير الرّفاق في طريقهم إلى العمالة وبيع الضّمير، لكنّ سياسة العصا والجزرة التي اتّبعوها هي الأخرى قد فشِلت.

تسعون ربيعًا من النّضال والمثابرة

تسعون ربيعًا من الكفاح والصّبر والتّحدّي

تسعون ربيعًا خاضها حزبنا الشّيوعي من أجل حياة حرّة كريمة لشعبَي هذه البلاد

ولِنُضِء له واحدة وتسعين شمعةً في عيد ميلاده بعد أن أنار لنا الطريق ليُبيّن لنا ظلماتها.

ونسمو سويًّا إلى العلياء بأقدام ثابتة وهدّارة، على أرض من صوّان لا تهزّها الهزّات الأرضيّة ولا كوارث الطّبيعة.

وليبقَ حزبنا شيوعيًّا صامدًا وثابتًا وراسِخًا إلى الأبد.
وهنيئًا لرفاقنا/رفيقاتنا بحزبنا وهنيئًا لحزبنا برفاقه/رفيقاته.

د. خالد تركي – حيفا

سَفَرْ بَرْ لِك

الزّمان: أيّام السّفر بَرْ لِك وكلمة السّفر بَرْ لِك تعني السّفر إلى برّ الأناضول.
المكان: بلاد الشّام وتشمل سوريا، لبنان، ألأردن وفلسطين.
الزّمان يُشبه زماننا والمكان هو نفسه مكاننا.

استلم الشّاب يوسف تركي داود، ابن الثّامنة عشر ربيعًا، أمرَ التّجنيد الإجباري مختومًا ومُوقَّعًا من الباب العالي، يُعلِمه فيه لُزُوم حضوره إستامبول حال تسلّمه أَمْرهُم العسكري للالتحاق بالجيش العثماني.
كانت الرّسالةُ رسالةَ وعيدٍ ونذيرٍ وتهديدٍ، إذا لم يُنَفِّذ الأمر ولم يحضُر إلى الدّائرة العسكريّة. فكُلُّنا يعرف عن كثبٍ وسمعٍ بالسّلطان عبد الحميد الجائر والظّالم والمُستبدّ والماكر والدّاهية والمُحنّك حيث ملأ بلاده وبلادنا بالجواسيس الذين كانوا يرتزقون من الدّسائس والوشايات والفساد أينما وُجِدوا، حتّى قصر السّلطان، يلدز، لم يسلَم من عيونه. كان السّلطان يخاف على نفسه وعلى منصبه من الإطاحة به، وعمل المستحيل السّابع وأكثر لضمان كُرْسيِّ عرشِهِ. فقد كان يُعيّن العسس على شعبه ومن شدّة خوفه عيّن جواسيسًا تُراقب جواسيسه، وكلّهم تحت إمرة السّر خفيّة، المسؤول عن جميع جواسيس السّلطان.
لقد كان مُخيفًا ومرْعِبًا لدرجة أنّه كانت لدى أهل البلاد قناعة لا جدال فيها أنّ للحيطان والسّاحات والأشجار والأحجار والأزهار والجبال والوديان والورود

والسّــدود آذانًا تسمع وأفواهًا تشي وتسرد ما تسمع أو تزيد على ما تسمع أو حتّى تســوِّف أمورًا لم تسمعها قطّ لتزيد من حقد وغضب السّلطان على من تكره. وكذلك عانى النّاس من الجوع والحرمان والغلاء والقطيعة والضّرائب الباهظة والفســاد والكرامة المُهانة للمواطــن من رجال الدّرك العُثماني أمام أهل بيته وبلده.

فســافر يوسف مُكْرهًا إلى هناك، بعد أنْ تسلَّمَ الفرمان، رغمًا عنه وعن أهله. ســافر وقد حرق قلبَه وقلبَ والديْه لهيبُ الــوداع، برًّا إلى لُبنان، ومنها ماخِرًا عباب اليَمِّ إلى اليونان ومن ثمّ إلى الآســتانة (القســطنطينيّة). والآستانة هي منطقة تربط بين قارّتي أوروبّا وآســيا، وتتكوّن من ثلاثِ مُدُن برّيّة، يفصِلُ بينها ثلاثة بحار. والأقســام البرّيّة هي استامبول في الجنوب وبك أو غلي بيرا في الشّــمال وكلاهما في أوروبّا وأســكودار في الشّرق وهي في آســيا، ويفصل بينها البوســفور في الشّــمال الشّرقي ومرمــرا والدّردنيــل في الجنوب وقرن الذّهب في الغرب الشّــمالي (الانقلاب العثماني، جرجي زيدان، روايات تاريخ الإسلام صفحة 45).

بعد أن وصل دائرة التّجنيد، تســجّل وتســلّم زِيَّه العســكريّ ومــرّ الجنديّ يوسف بفحوصات طبيّة حيث سُمِحَ له بعدها ببدء دورات عسكريّة ولغويّة. لقد كانت نيّة العثمانيين حينها تتريك العرب وتعليمهم اللغة التركيّة بدلاً من العربيّة وراحوا إلى أبعد من ذلك إذ قاموا بعمليّة نقل بعض السّــكّان العرب عــن طريق السّــكّة الحديديّة الحجازيّة، من بلاد الشّــام ومن أرض الحجاز والجزيرة العربيّة إلى داخل أراضي آسيا الصُّغرى، إلى الأناضول وبالمُقابل تم نَقْل بعض الأتراك إلى البلاد العربيّة بهدفِ تفريغ وطننا العربيّ من سُكّانه الأصليين وتغيير الطّبيعة السّــكانيّة، لقد حاولوا بذلك إنجاح سيطرتهم على بلادنا بكُلّ الطّرق والوسائل، لكنّهم كما هو معلوم فشلوا في ذلك.

لقد بدأ يوسف بتعلّم اللغة التُّركيّة أسوة بباقي المُجنّدين، بالتّهديد والتّخويف تارةً والتّرغيب تارةً أُخرى، إذ بدأوا درس اللغة بالجملة التّالية:

تُركي بِلْيُور، الله بِلْيُور

تُركي بِلْماز، الله كُورِكْماز

أي من يعرف اللغة التُّركيّة، يعرفُ الله ومن لا يعرفها، لا يعرف الله ويتنكّر لوجوده، ويكون كافرًا وجاحِدًا ومُلحِدًا وعديمَ النّاموس ومثواه جُهَنّم الحمراء حيث يكون خالِدًا فيها ولن يدخُلُ الجَنّةَ قطّ ولن يرى أنهارها الجارية من تحتها ولا يُحسِنُ الله له رِزْقًا ولن يكون بعونه أبدًا.

ومن يقوى على مُقاومة وانتقاد السُّلطان عبد الحميد، أو عبد الحميد خان من آل عُثمان، أو الوقوف ضدّ الإرادة والذّات الشّاهانيّة ورفض أوامره وهو خليفة النّبيّ محمّد (ص) وأمير المؤمنين وظِلُّ الله على الأرض ؟ لا أحد..

لَبِسَ يوسف زيَّه الرّسميّ وباشر بالتّدريبِ والتّعرّف على مدينة استامبول وبحرها ومضائقها وحاراتها وأزقّتها، وشمس مغيبها على البوسفور وعند قرن الذّهب، وقصورها وقد ترك قصر يلدز، أشهر قصوره، ذكريات في قلبه لا تُنسى، فلا ينقص القصرَ شيء من جمال وروعة وفنّ بناء، هندسيّ ومعماريّ، وترتيب الحدائق والبُحيرات ومقابل هذا الجمال والبهاء الخارجيّ كان معروفًا بقصر الظُّلم والطّغيان والطّاغوت ومدفن الأحرار والثّوّار.

بينما كان يوسف مارًّا بجانب أحد الحوانيت وإذ بسيّدة تطلب منه حَمْلَ طفلها لكي يتسنّى لها شراء بعض حاجيّاتها وحاجِيّات طفلها من البقّالة المجاورة، فأخذ طفلها منتظرًا عودتها. وحين طال انتظاره ولم تعد السيّدة لأخذِ طفلها الرّضيع، أصابت يوسف حيرة مُحْرجة لا مخرج منها وأسئلة لا أجوبة عليها، أين يضع يوسفُ الطّفلَ، وهو في بلاد الغربة؟ كيف يُطعِمُهُ إن أخذه؟ فهو بالكاد يُطْعِم نفسه وإن قرّر أخذه، فهو في بلاد لا يعرف فيها

أحدًا غير معسكره وضابطه، لا يعرف مسكنًا ولا ملجأً ولا مُجيرًا سوى فكرة ساورته، أن يضع الطِّفلَ عند باب أقرب جامع يجده في طريقه، ويتركه هُناك ليمضي إلى حال سبيله. ذهب إلى الجامع المُجاور ووضع الرّضيع عند مدخله وهَمَّ بمغادرة المكان وشَعَرَ بارتياح لم يشعر به منذ زمن، لكن إمام المسجد قطع ارتياحه وراحته حين أمسك بيوسف متلبّسًا بالتُّهمة قائلاً:

آه! هو أنت الذي تأتينا كلّ يوم بطفلٍ وتضعه قرب باب الجامع، لقد "قفشناك"، "نادر بو" تضع الأطفال هنا كلّ يوم..

شعر يوسف بخفقانٍ مُريبٍ في صدره كاد يُطيّر قلبه من قفصه واحتقن الدم في عروقه وغسل جلده العرقُ بعد أنْ صاح الإمام مُناديًا المُصلّين "هايْدِي بَكَالُم" ليُمسكوا بيوسف ريثما يُحْضِرُ له الضّابط العسكري ليتدبّر أمر ذلك الذي أصبح يُشكّل مصدر إزعاج يوميّ بوضعه طفلاً كلّ يوم. فقد أتَوا بالطّفل الذي تُرِك قبل يوم وحمّلوه ليوسف وهكذا حمل الطّفليْن معًا، وحمّلوه مسؤوليَّتهما. فبعد أنْ كان يوسف المسكين في مشكلةٍ واحدةٍ أصبح يحمل مُشكِلتين. وعندما حضر الضّابط، قصّ عليه يوسف روايته فطلب منه أنْ يدع الوديعتين، الرّضيعين، في ملجأ فاطمة خانم الواقع في حيّ القصبة في مركز المدينة. فذهب إلى هناك وأودع الطّفلين في الملجأ وأخبرها بأنّ الضّابط قد أرسله وفجأة يسمعان طرق على باب الدار فصرخت بأعلى صوتها لسببٍ لم يعرفه يوسف: آه زوجي! آه زوجي! فأخبأت يوسف في السّبَتِ أمّا طارق الباب فكان واحد من عشّاقها الكثيرين، وبدأ الهزل والغزل والهمس واللمس الذي قطعه طرق زوجها على الباب وبسرعة أودعت عشيقها وراء الباب (عشيق في الخزانة ويوسف في السّبَت وعشيق آخر وراء الباب) وحين دخل الزّوج سارعت للقائه معانقة بحرارة لم يشهدها من قبل لِتُسمّي عليه بأسماء الله الحُسنى جميعها كي يحفظ الله لها زوجها بصحّة وعافية

ويحميــه من كلّ مكروه، وبدأت بأدعيتها كي تَطرُدَ الشّــيْطان من قلبه ومن فكره ويُكذِّب حقيقةَ ما رأى من هروب الرّجال من البيت إذ أعماه اســتقبال زوجته له وبذلك تكون فاطمة خانم صادقة وما رآه حقيقةً، يكون قد شُــبّه له، وتكون قد قطعت شــكّه، رؤيته، بيقينها، بحيلتها، وحينها يتحمّل الزّوج إثمَ بعــض الظّنّ. وهكذا تكــون فاطمة، الحاضِنــة و"الحاضِنة"، قد درأت الحدودَ بالشُّبُهات.

عاد يوسف، هاربًا من بيت فاطمة خانم وملجئها، إلى المعسكر، ودخل غرفة رئيس الدّرك بعد أن سمح له بالدّخول بقوله: خوشّي غالدي، فأجابه يوسف داخِلاً: صفا بُولْدِي. فاســتجوبه عمّا حدث وسمح له بدخول ساحة المعسكر ووجد جنود فرقته يتعلّمون نشيد العسكر التي تدلّ كلماته على وجوب طرد المحتــل المُحتــال من دياره وأنّ الاحتلال آفلٌ لا مُحالــة وإلى زوال أكيد، وكأنّ جند آل عثمان الذين احتلّوا بلادنا موجودون في بلادهم، بنشيدهم:

عسكر عسكر عسكر ليك

سفر بر لك دا برلي

شان قلعة إيتشندا

دوشمان الدي (لِنَطْرُدَ العَدُوَّ).

وبعــد إنهاء النّشــيد، قصّ عــلى أصدقائه ما حصل معه في ذلــك اليوم، حتّى يحذر كلّ واحد منهم فلا يؤتى حذر من مأمنه، إذا نزل المدينة.

بعد أنْ ســقط الرّجــل المريض، من آل عثمان في الآســتانة، فريســة في فكّي فرنســا وانكلترا وروســيا القيصريّة، ووزّعوا تِرْكَته حــين وقّعوا على اتّفاقيّة ســايكس بيكو (نســبةً للفرنسيّ جورج بيكو والانجليزيّ مارك سايكس) في بيترغــراد عام 1916 والذي يقضي بتقســيم أراضي الوطــن العربيّ الواقعة تحت السّــيطرة العثمانيّة بين هــذه الدّول الثّلاث، إلا أنّــه بعد انتصار ثورة

أكتوبر الاشتراكيّة العُظمى في روسيا القيصريّة في العام 1917 كشف فاضِحًا بنــود الاتّفاقيّة وفتّــح أعين القوميّين العرب الذين خُدعــوا من الانكليز تحت الغطاء الهاشمي ممّا أدّى لاحِقًا إلى تبلور حركة ثوريّة عربيّة قوميّة مناهِضة للاســتعمار والرّجعيّة العربيّة، أرسل يوسف رسالة إلى أمّه يُخبرها فيها عن عودتــه القريبة إلى بلــده، بعد أن طلب منــه الضّابط المســؤول عنه بانتهاء خدمته وبإبحار السّــفينة بعد فترة، وحين اســتلمت أمّه الرّســالة، لم تعرف قراءتها ولم تجد أحدًا يقرأها سوى ابنها الأصغر، مع أنّها تعلّمت في المدرسة الإرســاليّة الأدب العربيّ والأشــعار التي حفظتها عن ظهــر قلب شريطة ألا تتعلّــم القــراءة أو الكتابة حتّــى لا تتكاتب لاحِقًا مع أترابهــا وأصدقائها في البلدة.

وحين علم صاحبه في العسكريّة، الحلبي، بتركه بلاد الأناضول دعاه لزيارتهم إلى حلب ليسكن هناك ويزوّجه هناك أخته، فقال له يوسف: حبّ الوطن قتّال وغــلاب ولولا ما حبّ الوطن قتال لكان الوطن خراب السَّــوْ وعليَّ العودة لأنّ البلاد طلبت أهلها".

عاد إلى بلدته وفرِح والداه به وبعودته سالِمًا بعافيته وصِحّته واجتمع الأهل والأصدقاء من حوله ليقُصّ عليهم ما رآه هناك، وســألوه عن باقي أصدقائه من أهل البلدة فأخبرهم عن جميع الذين كانوا معه فمنهم من عاد ومنهم من قضى نحبه ومنهم من بقي هناك أو ضاع في بلاد الله الواسعة، وكان صديقه الحميم واسمه صدِّيق قد اختفت آثاره منذ مدّة ولم يعد لبلده إلى يومنا هذا. ما أشبه اليوم بالأمس.

فشــلت عمليّــة التّتريك وبقي الشّــعب العربــيّ مُحافِظًا عــلى قوميّته ولغته وعاداته وتراثه..

أخفقت عمليّة النّقل السّكّاني (الترانسفير) وبقي الشّعب العربيّ أبيًّا وعزيزًا

وكريمًا في وطنه.
رغــم الجوع والحرمــان والبطش والمهانــة والتّنكيل والتّرحيل بقي شــعبنا صامدًا،
منتصبَ القامة ومرفوعَ الهامة.
تآمر الاســتعمار والرجعيّة العربيّة على شــعبنا وانتصرت المقاومة الشّعبيّة الباسلة رغم انفهم.. لكن الوطن ما زال منقسمًا ومتشرذِمًا إلى "أوطان"..
بقيَ الأملُ..
بقــي الفــلّ والياســمين والزّهر والعِنّــاب والتّــين والزّيتون والخــرّوب رغم همجيّتهم..
بقي النّورس مُحَلِّقًا في الجوِّ ومُعشِّشًا على الأغصان رغم رصاصهم..
بقيت المحبّة والمودّة رغم حقدهم وجسارتهم ولؤمهم..
رحل الغُزاة، وها هم أحفاد يوسف يكمّلون الطّريق ويُتابعون المسير والمسيرة يرسمون المصير المُزْهر لا محالة..
رحل العُثْمانيّون إلى غير رجعة وبقي الهواء والسّماء والبحر والصّخر والطّير والجبال والوديان والإنسان وبقيت الأوطان.
رحلوا وبقيْنا..
رحلوا وصمدنا..
رحلوا وبقي أهل البلد..
انقلعوا ولم يبقَ في الوادي غير حجارته، غير أهله..
فليشربوا البحر..

مِطَّاوِل عَ الشُّيُوعِيّة.. مِيِّة بِالمِيِّة

قبلَ تسْعينَ مَوْسَـمَ حصادٍ، وُلِد حِزبنا الشُّيوعي. وُلِدَ على أرضٍ مقدَّسةٍ تقعُ غَرْبيّ منطقة الهلال الخصيب وشرقِيّ البحر الأبيض، على السّاحل الشّاميّ، في منطقة تُدعى فلسطين.

وُلِـدَ بعد أَن ظَهَرَت في المشرق العربيّ نَجمـةٌ، تلك النّجمة التي بشَّرت بمحو خطايـا البشريّـة بعد صلـبِ المُخلِّـص وبشَّرَت أيضًا بـولادةِ حـزبِ العَدالةِ الاجتماعيّة الذي جاء ليَمنَعَ صلبَ وطنٍ ما زال مصلوبًا ومُعلَّقًا على خشـبةٍ، يدفـعُ ثمنَ أخطاءٍ لم يقترفها عمّاله وفلاحوه ومُثقّفوه، جاءَ ليُدافعَ عن أهلهِ، أهل هذه البلاد، لِيحملَ صَليبَهم ويُخلِّصَهُم من الجلاّد..

بعـد معاهـدة «سـايكس-بيكو» عامَ ألفٍ وتسـعِمائة وسـتّة عـشر أكملت مؤامراتها، بوعد بلفور، والذي يتعهّد بقيام دولة لليهود على أرض فلسطين، (مع أنّها لم تكن مسيطرة على فلسطين حتى هذا التّاريخ) وبذلك يكونون قد أوقعـوا يهودَ البلاد في فخّ الحركـة الصهيونيّة، ليصبحوا كبشَ فِداءٍ وضحيّةً لهذه الحركة العنصريّة ويبنوا على أكتافهم دولة تكون الدّرع الواقي للمصالح الامبرياليّـة في بلادنا، والرّادع لنشـوء وتطـوّر أيّ حركة وطنيّـة تحرّريّة في محيطنـا العربيّ، دولة تقوم على حماية الرّجعيّـات العربية في وطننا الكبير ليبقـى هذا الوطن أسـيرًا مُكبَّلاً، حائمًا وطائـرًا ومُحلِّقًا في فلـك الامبرياليّة والدّول الاسـتعماريّة، وبهذا يكون قد وقع شعبنا العربي الفلسطيني في هذا الفخّ أَيضًا.

كان عُمرُ جدِّي سِمعان، أبي داود، قبل تسعين عامًا، تسعةً وعشرين عامًا. لَقَدْ أحبّ وقدّر واحترم البلاشــفة لأنّهُم، برأيه، كانوا دائمًا مع الفلاحين والعمّال والمســحوقين ومُهْتَمِّين بتعليم أبنائهم عــلى نفقةِ دولتهم، ليكون هذا الصّرح مفتوحًا لجميع الفئات الشّــعبيّة وغير مقتصر على فئةٍ دون أخرى، فقد جاء على لِسانِ كِبارِ الحُكماء: من أدّبَ ولدَهُ صغيرًا سُرَّ به كبيرًا، وقالوا أيضًا: من أدّبَ ولدَهُ غمّ حاسدَهُ.

أُصيــبَ جَدِّي، قرب مبنى بلديّة في حيفــا، برصاصةٍ في فخذِهِ، ربّما إنجليزيّة أو ربّما صهيونيّة في العام ألفٍ وتســعمائة وســتّةٍ وثلاثين، بعد أن هَرَبَ من الموقِع الذي كان جالِسًــا فيه مع ثلاثة مــن أصدِقائِه حين أُلقِيَت عليهم قنبلة من أحد السّــطوح المُجاورة، فأصابت أصدِقاءه حيث أصبحوا ذَوي عَاهَات، كذلك سبَّبَت له، رصاصة من قنّاص، إعاقةً جِسمانيّةً دائمةً، إلى أنْ توفّاه الله في العام ألفٍ وتســعُمائة وســتَّةٍ وأربعين عن عمرٍ ناهز السّادسة والخمسين ودُفِنَ في حيفا في مقبرةٍ، تجمع شارع عين دور بشارع يافا لتَطُلّ على شارع الملوك المحاذي لشَاطِئ البحر.

أمّا والدي، إبراهيم، فقد وُلِدَ عام ألفٍ وتسعِمائة وثلاثة وثلاثين، في هذا الجوِّ البيْتِــيّ الذي أحبّ البلاشــفة وقدّرهم، وُلِد بعد أربعة عــشر عامًا من ظهور النّجمة الحمراء في ســماء وطننا. حيث عاش وأخاه الأصغر، بطرس، يتيمَيْ الأبِ منذُ نعومة أظفارِهِما، وتولّت الوالدة والأخ الأكبر داود، أبو عائدة، إعالة العائلة.

أمّــا أنا فقد وُلِدتُ، بعد تســعة وثلاثين عامًا مــن ولادة الحزب، في العام ألفٍ تســعِمائة وثمانية وخمسين وهكذا دواليك لأولادنا وأحفادنا الذين وُلِدوا بعد ولادة حزبنــا الشّــيوعيّ، فقد كان هذا التّاريخ بمثابة نقطــة تحوّلٍ مفصليّة ومركزيّة غيّرت وجه تاريخِ بلادنا ونضال أهله وصمودهم وبقائهم وحفاظهم

عــلى لُغتهم، ولا يُمكن تصوّر البلاد أو حتّــى وطننا العربي على امتداده، من مُحيطه إلى خليجِه، بدون هذا الفكر وهذا الحزب.

والحفــاظُ على اللغــة وصونُها، لا يعنى اللغة اليوميّة فقــط، بل لغة المقاومة والصّمود والتّحدّي والتّصدّي لغة الأدب والثّقافة والشّعر، وبهذا عَرِفَ شعبنا في كلّ أماكــن وجوده مُصطلح أدب المُقاوَمة المقاوِمة من منشــورات الحزب الشّيوعيّ وأدبيّاته الوحيدة في الوطن مثل الاتّحاد والجديد والغد والدّرب..

حين تجنّدَ رفاقُ الحزب والجبهة في حيفا لمظاهرة الأوّل من أيّار من هذا العام والتي جابت شــوارع حيفا وأحياءها العربيّة واليهوديّة، فاق عدد المشاركين في المظاهــرة الألف متظاهر من عــرب ويهود وقوميّات أخــرى من مواطني حيفا.

وكان الشّيء المُلاحَظ، أنّه شــارك فيها الجَدّ/الجــدّة، ألأبّ/الأمّ، ألابن/ألابنة والحفيد/الحفيــدة ولنَقُلْ الأحفاد لأنّه كان من بين المشــاركين أولاد الأحفاد، ليكونــوا في المظاهرة معًا، جميــع أفراد العائلة الواحدة في هــذا العيد، كأيّام الأعياد الأُخرى ويكوِّنوا جيلاً ثائرًا وثوريًّا، جيلاً يُكمّل مسيرة الجيلِ السّابق، لأنّنــا عشرون مســتحيل، حيــث تحمل هذه الأجيــال المشــاعلَ المُضيئة لتُنيرَ الطّريــقَ وتُحافظَ على نورِ منارةِ الشّــعوب، وتحمي وتصون البوصلة لتبقى صالحة وموجِّهة وقائدة في الاتّجاه الصّحيح، مهما كان اتّجاه التّيّار.

صادَفْتُ في احد الشعانين قبل أعوام، الرّفيق بطرس سِمعان، أبا خليل، حين قمــتُ بتهنِئتِه بالعيد، فأجابنــي: عيدُنا الحقيقي، يا رفيق، هو الأوّل من أيّار وعيدُنــا هو يومُ عودِتنا، فهذه هــي صفات الرّفيق الــكادح والمُثقّف الثّوري الذي خدَمَ وما زال يخدم شعبه وطبقته العاملة من خلال نقابة عمال البناء ولجنة الحيّ، حي ابن المُقفّع ودرج البُســتان، زِدْ على ذلك أنّه لاجئٌ في وطنِه، من بلدة سُحماتا الجليليّة، يُناضلُ من خلال لجنة المُهجّرين من أجل العودة

إلى بلدتــه وعــودة باقي المُهجَّرين إلى مدنهم وقراهم التــي يبعِدون عنها بُعد مرمى الحجر ولا يسمحون لهم بالدّخول إليها.
ويحضرني هنا نشيد الفنّان اللبناني خالد الهبر، حيث يُغنّي لحزبه الشّيوعي، والذي منحه الكاتب والمناضل محمّد دكروب لقب السّنديانة الحمراء في كتابه «جذور السِّنديانة الحمراء» الذي يحكي عن تاريخ الحزب:

من أيامَك يا بَيِّي
أَيّام اللي كُنْتُوا قلال
أَيّام المصانِع
أَيّام العُمّال
أَيام اللي كانت صَعْبة
الكِتَابة عَالحِيطان
أَيّام المنَاشِير
مِن زَمان كْتير

إلِك عُمْري كَتَبْتُو
بالنَّار وبالأغَاني
يا سِنْديَانة حَمْرَا
يا أَحْلى سِنْديَانة
ويا عُمْرِ اللي مَاتوا
عَ بَكِّير
مِن زَمَان كْتِير

هذه السّــنديانة الحمراء التــي تمتد جذورها عميقًا في هذه الأرض المقدّســة

لتكون «شــجرةً دائمــةَ الخضرةِ» ظاهرةً للعيان ولتُذكّـر كلّ المُتطاولين على تاريخِنا أنّ هذه الشّجرة «أقوى من النّسيان» (كتاب الرّفيق نمر مرقس)، هذه الأشــجار وحدَها، وحدَها القادِرة على حمايةِ حجــارة الوادي من الانجراف، وتحفظهــا لتبقى فيه. فهي وحدهــا عيون الكلام ودليلُهُ فكما قال الشّــاعر المصري الشّيوعي أحمد فؤاد نجم في «عيون الكلام»:

إذا الشَّمْس غِرقِت في بحر الغَمَام
ومِدِّت على الدُّنيا مُوجِة ظَلام
ومَات البَصَر في العُيون والبَصَاير
وغَاب الطَّريق في الخُطُوط والدَّوَاير
يا سَاير يا دَاير يا بو المْفْهُومِيَّة
مَفِيش لَكْ دَلِيل غير عُيُون الكَلام

تظهــر في الآونة الأخيرة كما في كلّ آونة، أصوات تتّهم عصبة التّحرّر الوطني بتوزيع مناشــير على جيش الإنقاذ تدعوه ترك فلسطين وإلقاء السّلاح وترك البــلاد وعدم القتال، وهكذا تكون قد حرّرت الجليــل من جيش الإنقاذ، وأنّه كانــت هناك مطالبة بعدم التّعرض للشّــيوعيّين العرب، مــن قِبَل المخابرات الصّهيونيّــة، وعــدم ملاحقتهم لأنّهــم يقومون بدور لصالــح إسرائيل. هذه أصوات نشــاز ومُتطاولــة لا تمتّ للحقيقة بصِلة ويتســاءلون لماذا لم ينجح الاحتلال بطرد وتهجير الســكّان من النّاصرة حيث يربطها بخوف الاحتلال من الدّول الأوروبيّة، كون النّاصرة مدينة مسيحيّة ذات تاريخ ديني عريق. لكنّ هذه الأصوات المُتطاولة تتنكّر للوقائع التّاريخيّة.

فقد قام الرّفاق توفيق طوبي وعصام العبّاسي ويوسف عبده بكتابة منشور باسم «عصبة التّحرّر الوطني» (في نادي «إميل توما» اليوم) والّذي كان مقرًّا للعُصبــة في درج الموارنة، يدعون فيه السُّــكّان إلى عــدم الرّحيل وترك البلد،

حيث وزّعوه في كلّ مناطق حيفا العربيّة حتّى الميناء، وقام بعض الرّفاق بنقل المنشور تحت النّار والرّصاص والتّهديد والوعيد دون خوف أو وجل وبإرادة صلبة إلى عكّا والنّاصرة، لتوزيعِهِ. ويروي الرّفيق أبو الياس توفيق طوبي في كتاب «جذور من الشّجرة دائمة الخضرة» أنّه طُلِبَ من العرب ألانتقال من أماكن سكناهم والتّوجه للتّمركز في وادي النّسناس وفي حيّ عبّاس، «وينقل توم سيغيف هذا الحدث عن بروتوكول الجلسة المحفوظ في أرشيف الجيش الإسرائيلي ويُشير إلى ردّ توفيق طوبي الرّافِض لعملية التّجميع واصِفًا هذا السّلوك بأنّه بمثابة غيتو للعرب وبأنّها خطوة عنصريّة مرفوضة» ومع ذلك فقد جرت العمليّة بأوامر وإشراف الجيش. وجملة أخرى قالها الرفيق أبو الياس لرفاقه وأهله «سأبقى هنا لرعاية الجمرة والعمل على عودتكم مع أهلنا إلى حيفا». زد على ذلك أنّ عائلته أيضًا نزحت إلى لبنان وعائلات الكثير من الشّيوعيّين كإميل توما وإميل حبيبي.

وماذا يقولون عن رفاقنا الذين اعتُقِلوا في السّجون العربيّة، وسُلِّموا بعد النكبة، ليُتابعوا فترة سِجنِهم في المعتقلات الإسرائيليّة، ماذا عن الإقامات الجبريّة والطّرد من العمل وإثبات الوجود اليومي في مخافر الشّرطة والنّفي إلى المناطق النّائية عن أماكن سُكناهم والتي، ربّما، لم يعرفها آباءُ المُتطاولين، هل هذه الحوادث أتت لتَصُبَّ في «لأنّهم يقومون بدور لصالح إسرائيل».

وإذا بقي أهل النّاصرة في المدينة ولم ينزحوا ولم يتركوها فهذا بفضل التنظيم القويّ للشّيوعيّين وأصدقائهم هناك ومكانتهم في بلدهم. لم يبقَ الأهلُ في النّاصرة بمِنّة من أحد، إن كان خوفًا من العالم المسيحي أو من الرّأي العام العالميّ، كما يدَّعون. لقد نسَت الأصوات النّشاز ما قاله دافيد بن غوريون: لم أكُن أتصوّر بقاء سُكان النّاصرة فيها، كان علينا العمل على ترحيلهم. يكتب الرّفيق سُهيل نصّار في كتاب «جذور من الشّجرة دائمة

الخضرة» للرفيق د. أحمد سـعد (ص 160): «لم يخرج من النّاصرة سـوى أولئك الذين نعتوا الشّـيوعيّين بالخيانة، وكانوا يـودّون حرق نادي العصبة والمؤتمـر ونقل قـادة العصبة إلى الحدود السّـوريّة». ويتابـع كتابته: قاموا بتطويق الحيّ الشّرقيّ، ووصلت أخبار التّنكيل بشباب الحيّ وسكّانه، لبقيّة أحيـاء النّاصرة. واجتمع عدد من أعضاء العصبة، وقرّرنا الدّخول للحيّ ليتمّ اعتقالنا، حتّى نعرف ما كان يحدث. اعْتُقِلْنا وأخذونا إلى السّاحة التي جمّعوا فيها أكثريّة شباب الحيّ، الذين أحاط بهم الجيش المُدجّج بالسّلاح وبالكلاب الشّرِسة.. كانوا يُطلِقون النَّار فوق رؤوس المُعتقلين ويُفلتون الكلاب عليهم. لم يُرهبنا سـلاحهم وكلابهم، تصدّينا لهذه الأعمال الهمجيّة والفاشـيّة ضدّ المُحتلّين وسقوط الفاشيّة والنّازيّة».

كذلك وقف الشّيوعيّون عند مشارف مدينة النّاصرة ومخارج أحيائها ليمنعوا رحيل سُكّانها بأجسادهم أمام دبّابات الهجناة وجنودهم وكانوا الكفّ الذي يُلاطم المخرز، فلاطموه وقَزَعُوه.

أطلب مـن المُتطاولين عـلى حزبنا وتاريخـه وحاضره أن يُنـشروا كتاباتهم وينـشُروا غسـيلهم أمام النّـاس لِيحكُمُـوا ويُحاكِمُوا وبعدهـا لِيَحْتكِموا إلى الضّمـير والعقل. وأُنهـي مقالتي بنشـيد بِكِي دَم للفنّان الفلسـطيني وليم نصّار، إبن يافا، عضو الحزب الشّـيوعي اللبناني أيّام حرب لُبنان حين كثُر، في أَيّامنـا، المُتطاولون على جبهة المُقاومة اللبنانيّة (جَمُّول) وعمودها الفقري الحزب الشّيوعي اللبناني:

ما بين حيفا وعكّا يمّي (وأحيانًا يُنشِدها، ما بين أنصار وعتليت)
كْتَبْتِلِّك أَشْوَاقي
بِتْرَابَات فلسطين يمّي أنا وِرْفَاقي
ونِحْنَا شِفْنَا العذاب يمّي

ودُقْنَا حَلاتُو
ويَلِّي نِسي جَمُّول يمّي
يِعْدَم حَيَاتُو
بِكِي دَمْ بِكِي دَمْ...
فهذا الحــزب بأجْيَالِهِ المُتجدِّدة والمِعطاءَة والمُتفانية قــادرٌ على التّصدِّي لكُلِّ حملــة صهيونيّــة أو رجعيّة عربيّــة للنّيل منــه، ويعرفُ كيف يُخــرِسُ تلك الأصــوات، من خلال سردِنَا لتاريخِنا المجيد والعزيز، بحقائقه التي أصبحت مفخرةً لكلّ الوطنيّين الصّادقين. لقد أثبَتَت جَمَاهِير شعْبِنا، المَرّة تلوَ الأخرى، من خــلال نتائج الانتخابات التي أعْطَت حزبَنَــا وجبهتَنَا لتَكونَ القُوَّة الأولى بــين جماهير شــعْبِنا، وهي الدَّليل القاطِع على التفافِ حــولَ حزبِنَا وجبهتِنَا وتَعرفُ أَنَّ الدَّمَ الذي أُريقَ للدِّفاعِ عن بقائِنَا في وطنِنَا الذي لا وطنَ لَنَا سِواه، هو نورٌ وحقٌّ.
وَنَهْتِفُ فِي وَجْهِ الذِين لا يَعْرِفُونَ حُدُودَهُم: مِطَّاوِل عَ الشُّيُوعِيّة.. مِيِّة بِالمِيِّة.

لأجل حرية فلسطين واستقلالها ووحدتها

حَتَّــى تأْتينا العزائمُ على قدْرِ أهلِهَا وحتّى تأتينــا المكارِم على قدْرِ أصحابها، وحَتَّى يُولّى عَلَينا كَما نَكُون، علينَا أنْ نكُون صادقين في سردِ تاريخِنا وحِفظِهِ عــن ظَهْرِ قَلب وتَحفيظِه لأولادِنا والحفاظ عليه من الضّياعِ ومن غدرِ الزّمانِ كــي لا يأتي أحدٌ ما، مارِقٌ ذو هوايةِ تَسْــويفٍ أو حِقْدٍ أو كَيْدٍ، وَيَزرَعُ البحرَ مقاثٍ ويكتب أشــياء مقتبسة من أرشــيف المخابرات الإسرائيليّة، مرجعيّته، فالتّاريخ يكتُبُه الشّــعبُ والحدثُ يَصنعُهُ الشَّــعبُ وكذلك الصُّمود والتَّصدِّي والمُجابَهَة والمواجَهَة يَصنعُهُ الشَّــعبُ الذي يسْــَترخِصُ حَياتَه في سَبيلِ حياةٍ حرّةٍ، عزيزةٍ، كريمة، شريفةٍ ونبيلةٍ ويَتَمسَّك بالإباءِ والكرامَةِ والحقِّ والوحدة. وحتّــى لا يَكتُب التّاريخَ، تاريخَ شــعبٍ ووطنٍ، من يجلــسُ في هذا البلاطِ أو ذَاك، أو قارئٌ من أرشــيفِ المُخابرات، لغرضٍ في نفس يعقوب، وحتّى تكون مرجعيَّتُنا التّاريخيّة حقيقيّةً وصادقةً، علينا كتابة اعترافات الشَّــاهِدين على الحَدَثِ وصانعيهِ لكي لا يضيع كريشــةٍ في مهبِّ الرِّيح، في هذا الزّمن العربيِّ الرّديء. وإذا كانت حقيقةُ سُــقوطِ النّاصرة غَــيرَ وَاضحةٍ لتلك الصّحيفةِ أو ذلك المُحاضِر قرّرتُ أن أهتمَّ، بتواضع، بهذا الموضوع لإزالةِ الرَّمادِ عن العُيونِ ولأذكّر ﴿إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾ ﴿وسَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾.

لقد ســقطت الناصرة في السّــابع عشر من تمّوز عام ألفٍ وتسعمائةٍ وثمانية وأربعين، بعمليّة ديكل، حينَها كانَت رَفيقتُنا وَرْدَة شُومَر حَبيب، أمّ السّعيد، صبيّةً في السَّادسَــة عَشْرَة مِن العمرِ وَتَتَذَكَّرُ بعضَ حَوَادِث تِلكَ السّــنة. كَانَ

أَخُوها رَاجي يَعْمَلُ سـائقًا في خِدمَةِ اللجنةِ القَوميَّـة، التَّابعة لِجَيْشِ الإنْقَاذ، حيـثُ كانَ عَدَدُهُـم في النَّاصرة نحو خَمسـمائة متطوِّع بقيـادةِ مدلول بك، وكان ينقلُ رئيسَ اللجنةِ القوميَّة في النّاصرة، إبراهيم الفَاهُوم أو آخرين مِن وإلى بَيْروت إلى مقرِّ القِيادَةِ العُليا، للتَّنسـيقِ والمُبَاحَثات والاسْتِشَـارَة، وحين كانَ عائدًا من سفرِهِ حدَّثَ أَهْلَ بيتِهِ أنَّ رجالَ عصْبَةِ التَّحرُّرِ الوطني يقفونَ وقفةً بطوليَّةً عندَ مشـارِفِ ومداخلِ النَّـاصرة ليمنَعُوا أهلَ البَلدِ من النُّزوح، لدرجة أنَّهم كانوا يفرِّغون إطارات الشّاحنات من الهَواء، بواسطةِ آلات حادَّة، حتّـى يمنَعُوا نقلَ السُّـكَّانِ إلى مَـا وراءِ الحدُود، وفي حادِثَـةٍ أخرى تقُولُ أنَّ شَـبَابَ العصبةِ وأصدقاءهم أوقفوا الشَّاحِنَات بأجسَادِهِم، أو حتّى انْبَطَحوا تحتَ عجلاتِ الشّـاحنات، في الحيِّ الشَّرقيِّ للمدينةِ، كي يَمْنعُوا السّـكّان من الرَّحِيـلِ والتَّهجيرِ واللجوء، ويُحكَى أيضًا أنَّ سُـكَّان حـيّ الرّوم توجَّهُوا إلى الحـيّ هُناك، برفقةِ خوري الرّوم، الأب باسـيليوس، ليمنعُوا التّهجيرَ بعد أن حاصرَ الجيشُ المنطقةَ، وحين سُـئِلوا: «شـو خَصْكو بالحارة الشّرقيّة» قالوا لهم: «إحنـا أهل بلد وحدة وما بصير نخلّيهن يتركـوا، لأنّو مصيرنا واحد».. وهنا يتدخّل السَّـيِّد سُـهيل حبيب، أبو إيهَاب، الذي كانَ عمْرُهُ ستَّة وعشرين عامًـا، يقول: كان هُناك ضابطٌ عراقيٌّ من جيشِ الإنقاذِ تربطُه علاقةً وطيدةً مـع رفاقِ العصبة، يُدْعى أحْمَد الشِّـيخلي، حيث توجَّه معَهُم إلى منطقةِ عين العذراء وحين رأى الشَّاحنات تستعدّ للانطلاقِ بركّابها، بدأ يُطلِق الرّصاصَ على إطاراتِها لمنعها من نقلِ السُّكان إلى خارجِ الوَطَن.

يقولُ الرّفيق عبَّاس زين الدّين، أبو عصام: «لقد حاصَروا النّاصرة من جميع جهاتِهـا وأبقوا منفَذيْـن، طريق الشْريعة المفتوحة باتّجـاه الأردن والطّريق الشّـماليّة المُؤدِّية إلى رميش وبنت جبيل وطبعًا كان مسـارُ النَّازحين باتِّجاهٍ واحـدٍ لأنَّ المُحْتَلّـين أطلقُوا النَّـار على كلِّ من فكَّـر بالعـودة. ويُتابع:»أرادَ

المُحتلّون إرهابَ السُّـكّانِ لحثِّهم على الهرب، كان النّاسُ مُجْتَمعين في مقهَى كامل البُولس، الكائن وراءَ عين العذراء، لسَـماعِ نشرات الأخبار المتتالية وإذْ بأحدِهِم يرمي قنبلةً على جُمهورِ الحُضورِ حيثُ استُشْـهد حينَها أحدُ وجهاءِ المدينةِ، سِرِّي الكيلاني، وجُرِح بعضهم».

لقـد كانت هنـاك أوامر من جيش الإنقاذ نفسـه يمنع فيها الرَّحيـل، «إذْ أنَّ الحكومات العربيّة أرادَت الحؤولَ دونَ تدفُّق مزيد من اللاجئين إلى بلادِها.

وبالتّـالي رُدّ بعض الأشـخاص الذين كانوا قد بدأوا بالمغـادرةِ على أعقابِهِم. لكن عندما اشـتدَّ القصف، رأى أنَّه من غير المُجدي مقاومة القوّات اليهوديّة المتفوِّقـة جدًّا، فشـجَّع النَّاس على الرَّحيل وسـلَّم المدينة بنفسِـهِ في السّـاعة العاشرة ليلاً» (التّطهير العرقي في فلسـطين، إيـلان بابه ص 199). ويقول السّـيّد سُـهيل حَبيـب: «بعـد أن رأى رئيس بلديّة النّاصرة السّـيّد يوسـف الفاهوم، أبو عاطِف، أنَّ الغلبةَ لوحدات جولاني صعد إلى الخانوق مع وجهاء المدينـة، ليرْفع الرّاية البيضاء ويُعلنَ استِسـلامَ المدينةِ لتلك الوحدات، وهكذا حفظ للنَّاصِرة بقاءها وحفظ لأهلها حياتَهم».

وتتابع أمّ السّـعيد حديثها:»لقد اختبأنا في مغارةٍ، في حارةِ الصَّبر، قُربَ بيتِنا خوفًا من القتل والذّبـح والفتك والتعرّض لأعراضنا، حيث كان عددُنا حوالي سـتين شخصًا. بعد أنْ سَـمِعنا زغردات الجارة، أمّ فؤاد، التي قالت آويهتها الأخـيرة، قبل أن تُقتَل برصاص قنَّاص غـدَّار، خرجنا من المغارة وأذكر أنّها غنَّت:

دُوسُوهِن دُوسُوهِن

وبالسِّيف قطِّع رُوسْهِن».

كانـت تظُنُّ أمّ فؤاد أنّ جيـش الإنقاذ، الذي أخذ من النّـاصِرة مركزًا له، بدأ بتحريـر البلد، لكنَّها لم تعرفْ مكرَ الغُزاةِ بعْد، حيثُ دخَلَت وحدات جولاني

بقيـادةِ الضَّابطِ موشـيه كرمل، أحيـاء المدينة وهُـم يعتَمِـرون الكوفِيّات، فخَرَجـت لتهنئتهم بالنَّصر لكنَّ حَتفَهـا كانَ ينتظرها. جرت، في اليوم ذاته، حادثةٌ مشـابهةٌ، تسردُها الرّفيقة أم جابر، سـميرة خوري، عن زوجِ عمَّتها، الـذي ما أن أَطلَّ بِرأسِـه مـن البابِ ليخرُجَ إلى السَّـاحَة حتَّـى أصابَتْهُ عدّة رصاصات موجّهة إلى رأسِه فأردَتْه قتيلاً (جذور من الشّجرة دائمة الخضرة د. أحمد سعد ص 112).

ويُشـيرُ إيلان بابـه إلى ما قاله بن غوريـون لقائد العمليّات العسـكريّة بأن يسـمح للنّاس بالبقاء لأنّ «العالَم يُراقبُنا هُنا»، ولكن ليس كلّ من سُـمِحَ لهُ بالبقاءِ كان آمنًا»(التّطهير العرقي في فلسطين، إيلان بابه ص 199).

بعد سقوط حيفا، أي قبل سقوط النّاصِرة، حمل الرّفيق توفيق طوبي منشورًا كتبه باسم عصبة التّحرّر وطُبِع على ورق ستانسل، إلى النّاصِرة، بعد أن سلّمَ نُسخًا منه لرفاقنا في عكّا،حيث أعطاه للرّفاق ليقوموا «بتوزيعه على اللاجئين النّازحين» (جذور من الشّـجرة دائمة الخضرة د. أحمد سـعد ص 18)، هذا وقد اختُتِم المنشـور، كما جـرت العادة، فلنقف أمام الاسـتعمار ومؤامراته وأعوانه ولنوجِّه ضربتنا إلى صميم المستعمِر البريطاني لأجل حرية فلسطين واستقلالها ووحدتها.

وتُشـير الرّفيقة سـميرة خوري بعـد أن وصلت إلى النّـاصرة قادمة من عكّا حيـث كانت تعمل مدرِّسـة هنـاك: «وعندما وصلـتُ وأنا أحمِـلُ أفكار عدم الرّحيـل، وأحملُ معي منشـورات عصبة التّحرّر الوطني التـي تدعو للبقاء في أرض الوطن والدِّفاع عن أنفسِـنا وبيوتِنا وأرضِنـا بدأتُ أُطلِعُ والدي على هذه المنشـورات وأناقشـه بروحها، عرفت منه أنّ هذه الدّعوة أيضًا كانت في الناصِرة».. (جذور من الشّجرة دائمة الخضرة د. أحمد سعد ص 111).

وعندمـا اعتَقَلَ جيـشُ الإنقاذ رفاقَنـا في النّاصرة يقول طيّب الذّكر سـهيل

نصّـار: «وسرعان ما ألّفوا محكمة عسـكريّة لمحاكمتهـم وعَلِمنا أنّ المحكمة كانت قد اتّخذت قرارًا مُسبقًا، بطردِهم إلى ما وراء الحدود السّوريّة، ورميهم بالرّصاص والتّخلّص منهـم، تَجنَّدَتْ النَّاصِرة لإطلاق سراحهم إلى درجة أنَّ رئيس اللجنة القوميّة، المرحوم إبراهيم الفاهوم، طالب بإطلاق سراحهم.

وفي يـوم المحكمـة وقفَ الشّـهيد الشّـاعر عبد الرحيـم محمـود، ليُعلن أنّه يعرف المُعتقلـين وتفانيهم في النّضال من أجل حقّ تقرير المصير، لشـعبهم الفلسطيني، وإنشاء دولته المسـتقلّة»(جذور من الشّجرة دائمة الخضرة د. أحمد سعد ص 159).

ويُضيف الرّفيق أبو عصام: أنّه حين اعتُقِلَ رفاق العصبة قام نفرٌ من جيش الإنقـاذ بدعـوة النّاس للبصق عـلى المُعتقلين لإذلالهم، ولم يُلـبِّ أحدٌ طلبهم لِمـا يكنّونه من الاحترام والمودّة والتّقدير لهؤلاء الشّـباب، ويُتابع حديثه: إنّ الشّـاعر عبد الرّحيم محمـود، أبو الطَّيِّب، والذي كانـت تربطه علاقة متينة بالقائـد الشّـيوعي طيِّب الذّكر فؤاد نصّار، أبو خالد، وبباقي الشّـيوعيّين في فلسـطين، خاصّـة بعد أن عادا مـن منفاهما، من العراق، فقد كان الشّـاعر مُتطَوِّعًـا برتبـةِ ضابط في جيـش الإنقاذ، من وحدة جمال الحُسـيني، حيث استُشْـهِدَ في معركة الشّـجرة شـمال مدينة النّاصرة قرب مفرق مسـكنة في الطّريـق إلى طبريّـا، بعد ذلـك في الثّالث عشر من تمّوز عام ألفٍ وتسـعمائةٍ وثمانيـة وأربعين. وقد قامت صحيفة الاتّحاد بنشر قصائده، يا عامل وثورة العاملين وقصيدة «الشّـهيد» التي نتغنّى بها وننشِـدها اليوم هي من كلمات لشّاعر الشّهيد عبد الرّحيم محمود:

سَأَحْمِلُ رُوحِي عَلَى رَاحَتي
وَأُلْقِي بِهَا فِي مَهَاوِي الرَّدى
فإمَّا حَيَاةٌ تَسُرُّ الصَّدِيقَ

وَإمَّا مَمَاتٌ يُغِيظُ العِدَى
وَنَفْسُ الشّرِيفِ لَهَا غَايَتَان
وُرُودُ المَنَايَا وَنَيْلُ المُنَى

ويحدّثنا صديقنا أبو إيهاب أنَّ الجيش أصدر أوامره بتسليم السّلاح وبدأ بحملات التّرهيب والتّخويف خاصّةً في الحيّ الشّرقيّ لجمع الذّخيرة والأسلحة، وحين سمع رفاقنا الخبر بدأوا بالتّجمهر قرب العين من أجل الانطلاق نحو الحي المُحاصر لتخليصهم من إرهاب الجيش وكان النّصر حليف رجال العصبة ويذكر منهم الرّفاق: منعم جرجورة، خليل الديب، فؤاد خوري وصليبا خميس..

يكتب الرّفيق سُهيل نصّار في كتاب «جذور من الشّجرة دائمة الخضرة» للرفيق د. أحمد سعد (ص 160): «لم يخرج من النّاصرة سوى أولئك الذين نعتوا الشّيوعيّين بالخيانة، وكانوا يودّون حرق نادي العصبة والمؤتمر ونقل قادة العصبة إلى الحدود السّوريّة». ويتابع كتابته: قاموا بتطويق الحيّ الشّرقيّ، ووصلت أخبار التّنكيل بشباب الحيّ وسكّانه، لبقيّة أحياء النّاصرة. واجتمع عدد من أعضاء العصبة، وقرّرنا الدّخول للحيّ ليتمّ اعتقالنا، حتّى نعرف ما كان يحدث. اعْتُقِلْنا وأخذونا إلى السّاحة التي جمّعوا فيها أكثريّة شباب الحيّ، الذين أحاط بهم الجيش المُدجّج بالسّلاح وبالكلاب الشّرِسة.. كانوا يُطلِقون النَّار فوق رؤوس المُعتقلين ويُفلتون الكلاب عليهم. لم يُرهبنا سلاحهم وكلابهم، تصدّينا لهذه الأعمال الهمجيّة والفاشيّة بالهتاف ضدّ المُحتلّين وسقوط الفاشيّة والنّازيّة».

يقول الرّفيق عبّاس زين الدّين: كان عمري في ذلك الحين أحد عشر عامًا، وحين قام الجنود بتجميع سُكّان الحارة الشّرقية في ساحة الجابية قرب مسجد السّلام وبدأوا باعتقالهم، برز دور «جمعيّة النّهضة النِّسائيّة» حيث

قُمنَ بإيصـال المواد التّموينيّة، من مأكل ومشرب لسُـكّان الحيّ المحاصرين وقد قدّمت طيّبة الذّكر عائشـة الماير، أم خليل بياضي، أبو الرّائد، المسـاعدة الكاملـة لرفيقات الجمعيّة وكذلك قُمنَ بجمـع التّواقيع من أجل الإفراج عن الأسرى.

لقد ذكّرني والدي، أبو خالد، أنَّ الصُّدفةَ قد جمعت طيِّب الذّكر عيسى حبيب بجارنا خليل بياضي في بيتنا، في حيّ وادي النِّسناس، بعد أن رجعتُ إلى البلاد لقضاءِ عُطلتي الصيْفيَّة، من دراستي الجامعيّة في جمهوريّة تشيكوسلوفاكيا، وفي حديـث تعـارفٍ بينهما حدَّثه أنّ طيِّبة عائشـة المايـر، والدته، كانت قد صفعـت الضّابط الإسرائيلي، ووندرمان، بصرمايتها، شُـحْويطتِها، على خدِّه أمـام المُعتقلـين، وأخذت قبّعتَـه ورمتها عاليًـا في الهواء، حـين كان الجنود يحاصرون الحارة الشّرقيّة.

إهتمّ رفاق عصبة التّحرّر بالدِّفاع عن المدينة ووحدة أهلها ورفاهيَّة سُكّانها، فبعد سُقوطِ النّاصِرة، ضاقت الحياة بأهل المدينة واستفحلت البطالة نتيجة للاحتـلال ومنع التّجوّل والتّصاريح للتّنقّل بـين بلدة وأُخرى وزادت حالات الفقر والعوز تفشِّـيًا فقام رفاقنا بإعادة تفعيل وتنشـيط مؤسّسات مؤتمر العمّال العرب لصالح سُكّان البلد، حيث عملوا على إيجاد أماكن عمل وتحسين ظروف العمل وحتّى زيادة في الأجر اليوميّ المُنخفض.

ويضيف الرّفيق بشـارة عبود في «ذاكرة شعب ووطن ص 73»: بعد احتلال النّـاصِرة في تمّـوز 1948 فتحنـا أبواب مؤتمـر العمّال العـرب في النّاصِرة الذي كان قائمًا زمن الانتداب وبدأنا حالاً بالسّـعي لإيجاد عمل لمئات العمّال العاطلين عن العمل وتم تحقيق ذلك في أعمال مؤقّتة حول النّاصِرة بالإضافة إلى قطف الزّيتون والسّمسم والبيّارات في منطقة الرّملة واللد»..ويُذكر أنّه تم استيعاب نحو أربعِمائة عامل ومهنيّ وموظّف.

هذا هو تاريخُنا وهذه هي حضارتُنا، هذا هو مسارُنا وهذه هي مسيرتُنا التي نفتخِـرُ ونعتزُّ بها ونعُزُّها وما هذه الأصوات المُغرِضة والمُتطاولة على مفخرةِ شـعبنا، حزْبِنَا، إلا أصوات غِربَـانٍ تَنْعقُ وَوُجُوه بوم شُـؤم ﴿إِنَّهُم يُكِيدُونَ كَيْدًا﴾. فالغِربَانُ تَخافُ الصُّقورَ والنُّسـور، والضَّبـُعَ، أمّ عامر، تَغْدُرُ في أيّ لحظة تراها مناسبة أو يُشبَّه لها أنّها مناسبة.

فكما جاء في نشيدنا نحن شِدنَا المعالي:

إنَّنا نشيد في الورى الحياة

سوف نُشهِد الورى بأنّنا أقوياء

فإنّما النِّضال روح للشّباب

وأنَّ رفـاقَ توفيق زيّـاد، عبد الرّحيـم محمود، فؤاد خـوري، صبحي بلال، صبحي سروجي، بشارة عبّود، نقولا عاقلة، فؤاد نصّار، سهيل نصّار، منعم جرجورة، حسـين أبو أسـعد، خليل دخيل الحامد، يوسـف صبَّاغ، يوسِـف خطيـب، أنيس صفُّوري، خليل خوري، لولو صبّاغ، سـليمان حمدة، أنطون سـقّا، راشـد خليـل، جريس أبو العسـل، لبيبة ذيب، سـلمى شـومر، نعيم الدّنّون، يوسـف فرّاج، ميشـيل درملكنيان، رزق عبده، عبد الفتَّاح الزّعبي، سـليم القاسم، حسن أبو عيشـة، طه البيُّومي، بشارة طنّوس، إبراهيم بكر، رضوان جرجورة، أمين قدحة، شـفيق بشـارة، نظمـات حلاق، نقولا ورور، نجيب الفاهوم، خليل ديب وبشـارة معمّر وأسـتميحُ قُرّائي عُذرًا إن نسـيتُ أحدًا، لأنّ قائمة شُرفائنا في ناصِرة الجليل، ناصِرة شـعبنا طويلة ولا تسـعها الكتب، فهؤلاء هم رجالُنا، أبطالنا في الميدان الذين حملوا الرَّاية الحمراء عاليًا فوقَ الشُّـهبِ، الذين وقفـوا ﴿..صفًّا كأنّهُم بُنيَـانٌ مَرْصُوصٌ﴾، لا يخافون الـرّدى، في وجه كلِّ المؤامرات التي حيكت ضدَّ شـعبِنا وأفشـلوها فهُم حُماةُ دِيارِنَا وشـعبنا وحضارتِنَا ، هُم تيجانُ روؤسِـنَا ونهضَـةُ قِيَمِنَا وبتاريخِهم

النّاصِع سنبني الغدَ الشّريف، غد الشّعوب.
ونَعــدُ وعــدًا صادِقًا كلَّ الذين يريــدون النَّيْل من تاريخِنَا ومــن عزيمتِنَا، أنّ نواطيرَ مِصرَ لن تنامَ عن ثعالِبها.
وَنَهْتِــفُ فِي وَجْــهِ الذِين لا يَعْرِفُــونَ حُدُودَهُم: مِطَّاوِل عَ الشُّــيُوعِيّة خ.. مِيِّة بِالمِيِّة.

وَإِنْ نَسِيتُكِ أَوْ نَسِيتُ أَهْلِي فِي اللجُوءِ لِيَنْسَنِي....

حيفا أصغر بنات فلسطين سِنًّا.
حيفا عيون السّاحل الشّاميّ.
حيفا قلب الكرمل الأشمّ.
حيفا عروس فلسطين.
كانت تنام حيفا في حِضن كرملها الدّافئ كُلّ ليلةٍ ويُغطّيها السّاحل بأمواجه مع كُلّ خفقة قلب أيام البرد ويُنعِشــها برذاذه مع كلِّ رمْشــةِ عينٍ أيّام الحرّ ويُهلّل لها تهاليل الغســقِ في كُلِّ مســاءٍ لترتاحَ في سِــنتها ونومها من متاعب وعناء وشــقاء سكّانها اليوميّ ويُنشِد لها أناشيد الصّباح مع كلِّ طُلوع فجرٍ مــع زقزقة حَساســينها وتغريد بلابلها وهديل حمامها لتســتيقِظَ نشــيطةً معطــاءةً تمنح أبناءهــا القوّة والعزم على خير العمل وأفضل البناء وأســمى آيات الفرح لكي يبدأوا نهارهم المُبارك من جديد.
لكنّ الدّفء والتّهليل والهناء والسّــعادة والطّمأنينة غاب قبل أكثر من ستّين خريفًا. قبل اثنتين ستّين عامًا بالضّبط، عاشت حيفا وما زالت تعيش نكبتَها حــين انتُهِكت حُرمــةُ تلك الفتاة الفتيّــة البتول، صغيرة أخواتهــا، في الثّاني والعشرين من شهر نيسان. وانقطعت تلك الفتاة عن سماع التّهليل والإنشاد وانكفــأت على ذاتهــا وحَرَدت ودخلــت في قنوط مهيب وكــدر رهيب وكرب مخيف وســادت ســماءَها أصوات نعيق الغربان وعاثت الأفاعي في حديقتها خرابًا وفسادًا.

لم يكـن مصير حيفا بأفضلِ من مصير أخواتها، كصفـد وعكّا وطبريّا واللد والرّملة ويافا والقدس وبئر السّبع وبيسان ولتَعْذُرنني أخوات أمّي إن نسيتُ إحداهُنّ، فيا له من مصير بائسٍ وماضٍ كئيبٍ وحاضرٍ حزين.

لكنّ البشّـار العربيّ والشّـيوعيّ العريق طيّبت الأرض مَن نام تحتها في ذلك المكان

الأبديّ بالمسـك والعنبر والطِّيب والبخّور والحِنّاء ابن مدينة البشارة البشّارة والناصرة والقهّارة، إبن الحارة الشّرقيّة توفيق زيّاد حين كتب لنا ليبعث فينا الأمل

ويحثّنا على الصّمود ويُحذِّرهم من تماديهم:

أيّ أمٍّ أورثتكم
يا تُرى
نصفَ القنال
أيّ أمٍّ أورثتكم
ضفّةَ الأردن
سيناء
وهاتيك الجبال
إنّ من يسلبُ حقًّا
بالقتال
كيف يحمي حقّه يومًا
إذا الميزان
مال ؟

فكتب برهوم البُلشفي في يوميّاته عن هول المأساة:

«ولم يكن للعرب حولٌ ولا قوةٌ إلاّ بالله القويّ الجبّار، والهروب من المصير

الغامض إلى المجهول، بناءً على طلبٍ من الجيوش العربيّة لترك البلاد لسبعة أيّــام يقومون خلالها بترتيب الأمور وطرد الغزاة وعندها يعود النّازحون إلى بلادهــم، وطبعًــا، لم تترتّب الأمــور إلى يومنا هذا ولم ينتهِ الأســبوع بعد. لم يعرفــوا أنّ الحــولَ والقوّةَ والإتّكال على الله يجــب أن يكون مقرونًا بالإيمان والإصرار والفَلاح وخير
العمل». ويتابع كاتبًا في اليوميّات:
« سقطت في نيسان، قبل أن تُحييها شتوية نيسان. كانت المؤامرة كبيرة. كان الثّمــن باهِظًا. وما كان للسّــكان إلا الهــروب من مجهــول ليختبِئوا في ثنايا مجهول آخر، سائلين أنفسهم: تُرى ماذا يُخَبّئ لنا هذا الغول؟
ماذا يُخبّئ لهم هذا الغول في زمن غابت فيه العنقاء ولم يعد ذكْرٌ للخلّ الوفيّ. وأصبح الاعتماد على الذّات مفرّ المناضلين في نضال غير منظّم نســبيًّا مقابل تنظيم على مستوى أوروبي كامل ودعم أوروبي وأمريكي وعربي، دعم عالمي واعلامي والّذي كان ســبب الفشــل والسّــقوط، وكأنّ هذا الثّوب كان مُفَصّلاً مُسْــبقًا على قدّ العروس وكان عليها لبســه مرغمةً، أو كان عليها الشّرب من هذا الكأس الممزوج بالحنظل مُســبقًا لتشربه مُكرهةً، لتُســقِطَ عن وجوههم كلّ الأقنعة إلى أن سقط القناع الأخير عن القناع الأخير.
كان يســكن حيفــا في ذلــك الزّمــان وان اختلفــت الأرقام لكنهــا تقاربت أو تراوحت ما بين ســبعين أو ثمانــين ألفًا من المواطنين العرب الفلســطينيّين. وبقي بعد الاحتلال وان اختلفت الارقام لكنها تقاربت أو تراوحت ما بين ألف وخمسمائة وثلاثة آلاف من المواطنين العرب الفلسطينيّين.
هُجِّــر وطُرِدَ وأُبعِد من مدينة حيفا عشرات الآلاف من مواطنيها العرب حيث وقعــوا في شِــباك ظلم ذوي القربة وعرفوا شِــدَّة مضاضتها ووقْع حُســامها المُهَنَّد وفي شِــباك التّنّين الأكبر ذي الرّأســين الصّهيوني والامبريالي، الأمريكي

والبريطاني.
فإليـك أيّها العربيّ الفلســطيني أقول كما قال شــاعرنا ابــن البروة محمود درويش:

يا داميَ العينين والكفّيْن
إنّ الليلَ زائل
لا غرفةَ التّوقيفِ باقيةٌ
ولا زردَ السّلاسل
نيرون مات ولم تمُت روما
بعينيها تُقاتل
وحبوب سنبلة تموت ستملأ الوادي سنابل.

كم من الأحبّة ينشدون مُعانقتك يا حيفا، أحبّة في الشّتات القسري في مُخيّمات اللجوء، هناك قرب الحدود أو بعيدًا عن الحدود أو داخل الحدود حيث تفصل بينهم وبين الوطن الأشواكُ والأسلاكُ الكهربائيّةُ ودخل المُصطلحان لاجئ وغائب حاضر إلى قاموسنا. لاجئو الوطن داخل الوطن هم حسب القانون حــاضر غائب وهم عــلى بُعْدِ مرمى حجر من قريتهــم المُهجّرة أو المُحتلّة من قبــل الغُــزاة كأمّ الزّينات وطيرة الكرمــل وكفر لام وإجزم والحوّاســة وبلد الشّــيخ وعين غزال وعين حوض والمنسي والجلمة وهوشــة والكساير وعتليت وقيســارية والطّنطورة وياجور وأمّ الشّــوف وكلّه حسب الأعراف القانونيّة والشّرعيّــة ولعن الله من اعطاهــم الشّرعيّة وأوكل إليهم أن يمســكوا بزِمامِ القانون.

لقد سنّ المُحتلّ قانونه لتكون تجاوزاته ومجازره شرعيّة وقانونيّة.

نقول لهم، علّمنا زيّاد وقال:

صُمُودًا أَيُّها النَّاس الذِينَ أُحِبُّهُم

صَبْرًا عَلَى النُّوَبِ!!
ضَعُوا بَيْنَ العُيُونِ الشّمْسَ
والفُولاذَ فِي العَصَبِ
سَوَاعِدُكُمَ تُحَقِّقُ أَجْمَلَ الأحْلامِ
تَصْنَعُ أَعْجَبَ العَجَبِ
يقول برهوم البلشفي في مُذكّراته:
«أرادوا حيفـا نظيفةً من العرب. صحيح أنّه تعالت أصوات يهوديّة رسـميّة وغير رسـميّة تطالب العرب بالبقاء كآبا حوشي وشـبتاي ليفي ولكن الواقع كان عكس ذلك، كان حبرًا على ورق بقي على رفوف مكتباتهم مهملاً، إن كان شيء من هذا القبيـل، فأخبار المجازر والقتل والفتك لأهلنا من قبل عصابات الهجناة في قرى قضاء حيفا كالطّنطورة وإجزم وكفر لام وعين حوض وعين غزال وأمّ الزّينات أرهبت أهل حيفا، ولا ننسى دعم ومسئوليّة لجنة الطّوارئ العربيّـة الّتي طلبـت (وكأنّه كان هناك سـبب لكذا طلب) تسـهيل النّزوح، ليصبح أهل حيفا لُقمةً سـائغةً لمؤامرات الإنجليـز والصّهاينة، كان المُخطّط تشريدَ سـكّان جميع قُرى السّاحل الفلسـطيني من رأس النّاقورة شمالاً إلى غزة هاشم جنوبًا».
فقد كانت العمليّات الارهابيّة والتّرهيبيّة منَوّعة ومُختلفة منها إيصال الأخبار مباشرةً لعرب حيفا عن المجازر في قرى منطقتها كالطّنطورة والحوّاسة وبلد الشّـيخ أو ببثّ تهديداتهم عبر أثير إذاعة الهجنـاة باللغة العربيّة أو بتوزيع مناشير التّهديد والوعيد أو الهجوم على البيوت العربيّة الحيفاويّة الآمنة وقتل من فيها أو تهديدهم بالموت إن بقَوا في بيوتهم أو بالسّرقة والسّلب والنّهب أو دحرجة براميل البارود أو النّفط المشـتعل من معسكراتهم التي كانت تحيط أحيـاء حيفا العربيّـة وتُشرف عليها من أماكنهم العاليـة (تفوّق طوبوغرافي

أيضًا) لتتفجّر في المناطق العربيّة المنبسطة والواطئة أو رمي جثث المواطنين الشّــهداء على الأرصفة أو حتّى التمثيل بهم بُغية زرع الخوف في نفوس أهل البلــد العــرب من الذين بقَوا فيهــا أو قاموا بقنص المارّة من أســطح المنازل العالية مثل عمارة ســلام وســلمون ومن عمارة الإذاعة في شــارع ســتانتون وقد قاموا بطــرْد العرب من بيوتهم المجاورة للأحياء اليهوديّة. فقد أصدرت وحدة كارميــلي أوامرها بقتل كلِّ عربيّ تصادفه في طريقها أو أسرِهِ كرهينة للمُســاومة عليها في حالــة دخول الجيــوش العربيّة أو حتــى يكونوا دروعًا بشريّة.

كانت قدراتهم تفوق قدرات العرب أبناء حيفا الذين كانوا ينظّفون رصاصهم بورق الزّجاج، حتّى تدخل بســهولةٍ في مخزن البارودة أو المُســدّس (فَشَــك مْبَرِّد)

فقــد كانــت معدّاتهم الحربيّة مــن مُخلّفات الحــرب العالميّــة الثّانية ومنهم مــن كان يبيع ممتلكاته لشراء ســلاحه بينما كان الجيــش الصّهيوني في أتمّ استعداد بدعم بريطانيٍّ كاملٍ، كانت له أسلحة أوروبية حديثة الصّنع فكان لهم البحر والبرّ والسّــماء، كانت لهم الطّائرات والبــوارج والمعدّات الأرضيّة الحربيّة. زد على ذلك أن ســقوط حيفا كان قبل ثلاثة أسابيع من انتهاء فترة الانتداب البريطاني الّذي كان من المفروض حماية مواطنيها العرب واليهود، لكنّ بريطانيا تآمرت على أهل حيفا الأصليين لتُسقط المدينة في أيدي عصابات الهجناة وهي ما زالت ترزح تحت حكمهم.

لقد أطلقت وحدة كارميلي من قوات الهجناة على عملية احتلال حيفا ، عملية «ביעור החמץ» أي اجتثــاث الخمــيرة (وهي عبارة عــن عملية تطهير عن طريــق النّار بالحــرْقِ أو الغليان لجميع أواني البيــت وأثاثه وأطراف البيت وتنظيف كلّ ما هو شــائب أو مُخمّر حتّى يكون البيت نظيفًا). وهكذا أرادوا

لحيفا أن تكون «حلالاً כשר» و«طاهرة» و «نظيفةً» من سـكّانها الأصليين، فوجـود العـرب في حيفا «يُدنِّـس» المدينة لذلك قاموا بعمليّـة تطهير عرقي، قاموا بعملية اجتثاث الخميرة ونحن العرب خميرة حيفا وخميرة هذا الوطن.
جرى احتلال حيفا حسب خطّة عسكريّة واسمها المقصّ (المسبارايم) حيث قُسِّمت حيفا العربيّة إلى ثلاث مناطق مختلفة ومُهمّة استراتيجيًّا لمنع التواصل بين الأهل مع بعضهم البعـض أو لمنع إيصال المواد التّموينيّة للأهالي، عملية تجويـع جماعيّة، من ناحية ومنع المُقاومين من الحركة بحُرّيّة في المدينة بعد أن أبلغت حكومة بريطانيا قوات الهجناة برغبتها في تسليمهم حيفا بينما لم يعـرف العرب بهذه الخطّة، حيث قامت المعـارك على ثلاثة محاور، الأوّل في وادي روشـميا ومنطقة الحلّيصة حيث يُذكر أنّ مبنى لجنة الأقاليم العربية الشّرقيّة، بيـت النّجادة صَمَدَ صُمُودًا أسـطوريًّا، والفرقة الثّانية هبطت من منطقـة الهدار الى الاحيـاء العربية المُتاخمـة والقريبة منـه، والفرقة الثّالثة تقتحم الحيّ التّجاري الملاصق للميناء والبلدة التّحتى، حيث تلتقي الفرقتان الثّانيـة والثّالثة لتكملة وإقفـال الطّوق واحتلال حيفا وهنـا أيضًا لا بُدّ من ذكر صمود واسْتِبْسَـال المقاتلين حتى الشّهادة في مبنى آل الخوري في شارع الخـوري رقـم واحد حيث تقوم عـلى أنقاضه اليوم عمـارة المبنى الزّجاجي (الشّيكم).
وهكـذا كانت حيفا مطوّقـة بإحكام تامّ مع منفذ واحـد للميناء حيث كانت قوّات الهجناة تحُثّهم عبر مكبّرات الصّوت على الاستسلام والرّحيل عبر المنفذ الواحد والوحيد هو الميناء حيث انتظرتهم السّـفن الأجنبية لنقلهم إلى شاطئ عكا أو عبر الشّـاحنات حيث يُذْكر أنّ «شهامة الملك عبد الله الأوّل ومروءته» بانت حين أرسـل شـاحناته لنقل السّـكان، اللاجئين من ديارهم، إلى شّمال وشّرق البلاد ومن هناك إلى مخيّمات اللجوء في لبنان وسوريا والاردن.

حــين ترك برهوم وعائلته حيفا متّجهين إلى الجليل، في طريقهم إلى لبنان ... إلى وطن التّشرّد واللجوء، إســوةً بباقي أبناء شــعبهم، وجد نفسه وعائلته في بيــت جن الجليلية الجليلة، وحلّوا ضيوفًا في بيوت الشّــيخ حســين صلالحة، أبي مالك والشّــيخ عبد الله أبي عبسيّ، أبي شــفيق، فقد حال هذان الشّيخان الجليليّان الجليلان دون

وقوع برهوم وعائلته في سجلّ اللاّجئين وشرك مخيّمات اللجوء القسري.

قال لهم الشّيخ أبو مالك: يالي بيصير عليكو بيصير علينا. مصيرنا وطريقنا مشترك، فنحن شعب واحد ولنا وطن واحد غالٍ وليس لنا سواه.

وكان للشّــيخين الجليلين الجليليّين فضــلٌ كبيرٌ في بقائه وعائلته في موطنهم، وعليهم للشّــيخين دين عظيم لن ينســوه أبدَ الدّهــر ولبيت جن مكان خاصّ ودافئ في كُلّ قلب نابض وخافق من قلوب الآباء والأبناء والأحفاد ....

ويذكر برهوم في مذكّراته موقف الشّيوعيين:

قام الرّفاق توفيق طوبي وطيّبا الذّكر الشّاعر عصام العبّاسي ويوسف عبده بكتابة منشــور باســم «عصبة التّحرّر الوطني» في نــادي «إميل توما» اليوم والّذي كان مقرًّا للعُصبة في درج الموارنة، يدعون فيه السّكّان إلى عدم الرّحيل وترك البلد، حيث وزّعوه في كلّ مناطق حيفا العربيّة حتّى الميناء، وقام بعض الرّفاق بنقل المنشــور تحت النّار إلى عكّا والنّاصرة، لتوزيعِهِ. ويروي الرّفيق أبــو الياس توفيــق طوبي في كتاب «جذور من الشّــجرة دائمة الخضرة» أنّه طُلِــبَ من العــرب ألانتقال مــن أماكن ســكناهم والتّوجــه للتّمركز في وادي النّســناس وفي حيّ عبّاس، «وينقل توم ســيغيف هذا الحدث عن بروتوكول الجلســة المحفوظ في أرشيف الجيش الإسرائيلي ويُشــير إلى ردّ توفيق طوبي الرّافِض لعملية التّجميع واصِفًا هذا السّــلوك بأنّه بمثابة غيتو للعرب وبأنّها خطــوة عنصريّة مرفوضــة» ومع ذلك فقــد جرت العمليّــة بأوامر وإشراف

الجيـش. وجملة أخرى قالهـا الرفيق أبو الياس لرفاقه وأهله «سـأبقى هنا لرعاية الجمرة والعمل على عودتكم مع أهلنا الى حيفا».

وكيف ننسى وقوف رفاقنا الشّيوعيين إلى جانب أهلنا حيث يذكرهم برهوم في يوميّاته: يتذكّر والدي ورفيقي، أبو خالد، عَمَلَ الشّيوعيّين العرب واليهود في حيفا لِمَنْعِ النُّزُوح ولإعادة من نزح وحتّى تحرير بيوت النّازحين بعد عودتهم إلى حيفا، عامَ سقوط المدينة واحتلالها، ففي حادثة يذكُرُها أنّ الرّفاق اليهود تلقّـوا خبرًا من الرّفيقة بنينة فاينهاوز عن شِـلّة من جنود الاحتلال اقتحمت بيتًا عربيًّا في شـارع عبّاس، فصعدت إلى تلك المنطقة ثلّةٌ من الرّفاق اليهود، وتواجهت مع الجنود نقاشًـا وتداولاً حتّى الصّدام، قيل للرّفاق اليهود بعدها مـا لكم ولهؤلاء العرب، فكان الجـواب: جِئْنَا لنُرجِعهـم بيوتَهم ونُرجِع لهم بيوتَهم. فاتّصلْتُ بالرّفيق بنيامين الّذي روى لي حادة مماثلة، بعد أن صادق على حادثة شارع عبّاس، أنّه ورد نبأ تجميع بعض من سُكّان حيفا العرب في منطقـة جبل الكرمل، في منطقة دانيـا لرميهِم بالرّصاص، لكنّ قدوم رفاقنا اليهود السّريع لتلك المنطقة، حال دون قيام مجزرة أخرى.

وإذا لم يقرأ أو لم يسمع بعضهم بنضال رفاقنا اليهود ودفاعهم عن البيوت العربيّة مـن أجل إرجاع أهلها الأصليّين إليها، وما زالوا، هذا لا يعني أنّ ذلك لم يحدث

كَقَوْلِ الشَّاعر:

وَمَا ضَرَّ الوُرُودَ وَمَا عَلَيْهَا إِذَا المَزْكُومُ لم يَطْعَمْ شَذَاهَا

أذكرُ أنّه في إحدى زياراتنا الانتخابيّة في شرق حيفا، اسـتقبلتنا عائلة بحفاوة بالغةعرفنـا سـببها لاحِقًا حين حضر جـدّ العائلة أبو محمّـد، معلِنًا تأييده للحزب الشّـيوعي والجبهة بقوله: بفضلهم بقينـا في حيفا وبفضلهم رجعنا إلى بيتنا ورجع لنا بيتنا ورجِعت لنا أملاكنا. وقد روَت لنا طيِّبة الذّكر أمّ حنّا

حجّار من حيّ وادي النّسناس قصّة أخرى مشابهة تذكر فيه دور الشّيوعيين في إرجاعها وجيرانها المطرودين إلى بيوتهم، أو إلى أقسام منها.
لقد حان الوقت لإنصاف رفاقنا اليهود الذين دافعوا وطردوا أوباش المستوطنين من
البيوت التي احتلُّوها، في حيَّيّ وادي النّسناس وعبّاس لإعادة أصحابها العرب إليها وأذكر منهم: بنيامين غونين، إلياهو دروكمان، بنينا فاينهاوز، غريشا، باول دافيد، دافيد شلومو، تسيلا عيرم وعوزي بورنشتاين وغيرهم..
وعجبًا من الذين ينكرون علينا تاريخنا المشرّف، وحاضرنا النّاصع بشراكتنا العربيّة اليهوديّة وبطريقنا الأمميّ ومستقبلنا لتحقيق العدالة الاجتماعيّة بينما كانوا في صالوناتهم على مدار عشرات السّنين بعد النّكبة يسترقون أخبار بطولاتنا من ثقوب شبابيكهم ليروا أحدَاثَ الشّارع ساعة اعتِقال رفاقنا، ويسمعون صوت صراخنا وهتافاتنا في مظاهراتنا ومسيراتنا الشّعبيّة الصّاخبة بينما كانت أرجلهم تتعانق مع بعضها البعض وترتجف خوفًا أو كادوا يخرسون صرير أسنانهم، قابِضين على قفصهم الصّدريّ حتى لا يقفز القلب من بين القضبان ويشي بوجودهم، حين تقمّصوا شخصيّة سرحان العلي من عرب الصّقر في قصيدة القائد والشّاعر توفيق زيّاد «سرحان والماسورة»:»مَا دَامَ حِلْدِيَ سَالِمًا مَا لِي ومَا لِلآخرين» أو ﴿..يَجْعَلُونَ أَصَابِعُهُم في آذَانِهِم..﴾.
ومشى رفاقنا على الجمر وألواح الصّبر وكان الصَّمتُ سَيِّدَ «كتبة التّاريخ» الذين نسمعهم الآن بعد أن أصبح الكلام مجَّانًا دون ثمن..
ويقول بر هوم في يوميّاته على لسان أخيه أبي عائدة:
رأى أبو عايدة تهجير سكّان حيفا العرب عن طريق الميناء بآلافهم ورأى كيف يُسهّل لهم رجال الأمن البريطاني المرور عبر نقطة الحدود البحرية،

فاتحــين أبواب الميناء للنّازحين العرب من جهــة محطّة الكرمل وشرق حيفا وجنــوب المدينة ليلتجِئوا إلى ســاحات الميناء والانتظــار للبواخر البريطانيّة الّتي انتظمت بإيعــاز من الإنكليز وتحت حراســتهم ورقابتهم لنقْلِهم بحرًا إلى مدينــة عكّا، أو برًّا بســيّارات انكليزية أو صهيونيّــة إلى الحدود اللبنانيّة وبدون مُقابــل، المهم النّزوح عن حيفا وتطهيرها من العِرْق العربي، والتّأكد من أنّهم قد انتقلوا إلى هناك حســب المُخطّط. لقد تجنّد الانجليز والعصابات الصّهيونيّــة لنقلهم باتّجاهٍ واحــدٍ فقط، فيذكر محامي الأرض والعِرض حنّا نقّــارة أبو طوني أنّه حين أراد العودة بحــرًا إلى حيفا وجد رفضًا قاطِعًا من رُبّــان البواخر العســكريّة الإنكليزيّــة ومنعته وعائلته بصفاقةٍ شــديدة من العــودة إلى بيته، لكنّــه عرف كيف يعود ليكون الخادم القضائي لشــعبه في وطنه.

حين عادت العائلة إلى حيفا بعد غياب أسبوع،لم تجد شيئًا، ممّا تركته. حتّى قرطاســيّته، لم تجدهــا. ذهب برهــوم إلى بيوت أترابه وزملائــه على مقاعد الدّراســة، فلم يجدهم. وجد مكانهم أناســاً يتكلّمون لغةً لم يفهمها. حينها، فَهِم أنّ الوطن قد ضاع. وأنّ البكاء على الأطلال لا يُجدي نفعًا. وعندما فَهِمَ، وجد نفســه في ســاعة الميلاد الثّانية، عضوًا فعّالاً في شبيبة البُلشفيك، شبيبة العدالــة الإجتماعيّة كما كان يصفهم والــده. ليناضل ضدّ الظّلم والإضطهاد والإســتبداد ومــن أجل إرجــاع أصدقائــه إلى بيوتهــم، وإرجــاع البيوت إلى أصدقائه، كما كانت في سابق عهدها.

كيف أنسى هذا التّاريخ يا حيفاي وكيف ننساه يا حيفانا وكيف لا نسرد هذا التاريخ على أبنائنا لنستردّ ما لنا ونعرف ما علينا.

وإن نســيتُكِ أو نســيتُ أهــلي في اللجوء لينســني لســاني وزمانــي ومكاني ووجداني.

فحقّهم في عودتهم إلى ديارهم ومسقط رأسهم لا جدال فيه ولا مساومة عليه.
سـيذكركِ أهلك يا حيفا، سـيذكرُ أهلك السّـاكنين فيكِ أهلَهُم في الشّتات كما سـتذْكُرُ الأحيـاء والبيوت وبسـاتين الياسـمين في حيفا أهلَها الّذيـن طُردوا وشُرِّدوا وسيذكُرُك المُشَرَّدون مهما طال البُعاد، سيذكركِ كُلّما قبّلت ولاطفَت أمواجُ بحركِ سـاحلكِ أو أشرقت شمسُـكِ أو كلّما طلع البـدرُ، بدرُكِ، علينا.
سيذكركِ أهلُكِ إلى أن ينام القمر. ولا أحد يشفع للعروس غير عريسها.
ولا بُدّ من النّضال ضدّ الظّلم والاضطهاد بُكُرةً وأصيلاً.
ولا بُدّ من إرجاع الطّيور إلى أعشاشها مهما طال الزّمن.

عصبة التّحرّر الوطني

حيفا

إنّ الكارثــة المؤلمة التي حلّت بكيان المجتمع العربي في حيفا وقضائها، كارثة أرادها الاســتعمار وســعى إليها جادًّا. هي من سلســلة مآس رمى بها بلادنا منذ أن سعى إلى إلغاء ما أجمعت عليه منظّمة الأمم المتّحدة من إنهاء الانتداب وجلاء الجيوش الأجنبيّة.

وقد نبّه حزبنا دائمًا إلى هذه المؤامرات التي يحيكها الاســتعمار وإلى انجرار قادة الحركة الوطنيّة في فلســطين وراء سياسة يُمليها الاستعمار البريطاني، سياسة تقوم على تقوية الصّراع القومي بين العرب واليهود باعتبارها وسيلة لمنع التّقسيم، وما دروا أنّ الصّراع القومي إنّما يُثبّت التّقسيم ويُفرضه بشكل يؤمِّن مصلحة المســتعمر ويســلب أهل البلاد ذلك الاستقلال الذي كان يمكن أن تضمنه منظّمة الأمم المتّحدة بتأييد القوى الدّيمقراطيّة فيها.

لقد نجح الاستعمار إلى حدٍّ كبير في مؤامراته هذه بإذكاء نار الحرب القوميّة، ووصل إلى ما كان يصبو إليه من إلغاء لقرار الامم المتّحدة بالاستقلال وجلاء الجيوش وبذلك أصبح سيّد الموقف يُملي الحلول والمشاريع التي يراها ملائمة للمحافظة على سلطانه ونفوذه.

إنّ موقف حكومة الاســتعمار من حودث حيفا وقضائها بمساعدتها الفعّالة للقوّات اليهوديّة أثنــاء عمليّة الاحتلال وما تبع ذلك من تصريحات للمندوب السّــامي وممثّــل بريطانيا في منظّمة الأمــم المتّحدة، كلّ هــذا يوضّح تواطؤ الاســتعمار مع أعوانه من الزّعماء اليهود على تنفيذ مشروع للتّقسيم يحصل

بموجبــه على قواعد إســتراتيجيّة وعلى امتيازات لاســتغلال النّفط في مناطق الدّولة اليهوديّة.

إلاّ أنّ للعبة الاســتعمار هذه شــقًّا آخر، ففي الوقت الــذي يتابع فيه وكلاؤه نشــاطهم لاذكاء نار الحرب القوميّة في فلســطين يقــوم أولئك بتوجيه الرّأي العــام العربــي نحو الملــك عبد اللــه عميل الاســتعمار البريطانــي "ليُنقذ" فلسطين ويُنقذ متطوّعي الجامعة العربيّة من الورطة العسكريّة التي وجدوا أنفســهم فيها والأمور تجــري في هذه الناحيــة كما يريدها الاســتعمار فقد اتّجهت الجامعة العربيّة نحو الملك عبد الله ليقوم بعمل حاسم، ولهذا السّبب وحــده زاره رئيس الهيئة العربيّــة العليا وأيضًا وفود عديدة من فلســطين. وهــذا هو عين مــا يريده الاســتعمار الا وهو دخول الجيــش العربي بقيادة أبي حنيك لفلســطين. إنّ لعبة الاستعمار ســتتم بأن يحتل جيش أبي حنيك بعض المستعمرات اليهوديّة النّائية وبعض أقسام من فلسطين تحتّم الوكالة اليهوديّة بإدخالها في نطاق دولتها ويُنكّل بسكّانها اليهود موهِمًا العرب بأنّه منقذَهم وأنّ أعماله البطولية هذه توطئة لاحتلال فلسطين بأكملها وتسليمها للسُّكّان العرب، إلاّ أنّ جيش الملك عبد الله سيقف عند حدود معيَّنة له وعندئذٍ ســيجد الاستعمار البريطاني ســبيلاً لهدنة يعقدها بين عملائه. أمّا الملك عبد اللــه إذ يمثّل دور "المنقذ" فإنّه يأمل بالحصول على ترحيب عرب فلســطين الأمر الذي يُسهّل له البقاء نهائيًّا في فلسطين في الأجزاء التي يكون قد احتلَّها جيشــه. وهكذا تتــم لعبة الاســتعمار البريطاني بإقامة دولــة يهوديّة تؤمِّن مصالحه وما يطمع به من مراكز إســتراتيجيّة وامتيازات بتروليّة، وفي الوقت نفسه يضمّ القسم العربي إلى شرق الأردن حيث يرتبط مليكها بمعاهدة رقٍّ وعبوديّة.

إنّ مأســاة حيفــا وقضائها التي وقع ضحيَّتها عــشرات الألوف من العائلات

(١٢)

عصبة التحرر الوطني
حيفا

AHARON COHEN
Shaar Haamakim
ISRAEL

أيها الشعب العربي الكريم

ان الكارثة المؤلمة التي حلت بكيان المجتمع العربي في حيفا وقضائها، كارثة ارادها الاستعمار وسعى اليها جاداً. هي من سلسلة مآسٍ رمى بها بلادنا منذ أن سعى الى الغاء ما اجمعت عليه منظمة الامم المتحدة من انهاء الانتداب وجلاء الجيوش الاجنبية.

وقد نبهنا دائماً الى هذه المؤامرات التي يحيكها الاستعمار والى انجرار قادة الحركة الوطنية العربية في فلسطين وراء سياسة يمليها الاستعمار البريطاني، سياسة تقوم على تقوية الصراع القومي بين العرب واليهود باعتبارها وسيلة لمنع التقسيم، وما دروا أن الصراع القومي انما يثبت التقسيم ويفرضه بشكل يوافق مصلحة المستعمر ويسلب أهل البلاد نعمة الاستقلال الذي كان يمكن أن تضمنه منظمة الأمم المتحدة بتأييد القوى الديمقراطية فيها.

لقد نجح الاستعمار الى حد كبير في مؤامراته هذه باذكاء نار الحرب القومية، ووصل الى ما كان يصبو اليه من الغاء لقرار منظمة الأمم المتحدة بالاستقلال وجلاء الجيوش ومن ثم أصبح سيد الموقف يملي الحلول والمشاريع التي يراها ملائمة لبقاء سلطانه ونفوذه.

ان موقف حكومة الاستعمار من حوادث حيفا وقضائها ومساعدتها الفعالة للقوات اليهودية أثناء عملية الاحتلال وما تبع ذلك من تصريحات للمندوب السامي وممثل بريطانيا في منظمة الامم المتحدة، كل هذا ابرز تواطؤ الاستعمار مع أعوانه من الزعماء اليهود على تنفيذ مشروع للتقسيم يحصل بموجبه على قواعد استراتيجية وعلى امتيازات لاستغلال النفط في مناطق الدولة اليهودية.

الا أن للعبة الاستعمار هذه شقاً آخر. ففي الوقت الذي يتابع فيه وكلاؤه نشاطهم لاذكاء نار الحرب القومية في فلسطين يقوم اذنابه بتوجيه الرأي العام العربي نحو الملك عبدالله عميل الاستعمار البريطاني "لينقذ" فلسطين ولينقذ ماء وجه الجامعة العربية من الورطة العسكرية التي وجدت نفسها فيها. والامور تجري في هذه الناحية كما يريدها الاستعمار، فقد اتجهت الجامعة العربية نحو الملك عبدالله ليقوم بعمل حاسم، ولهذا السبب وجدنا زيارة رئيس الهيئة العربية العليا وايضاً وفود عديدة من فلسطين. وهذا هو عين ما يريده الاستعمار الآن وهو دخول الجيش العربي بقيادة أبي حنيك لفلسطين. ان لعبة الاستعمار تقتضي أن يحتل جيش أبي حنيك بعض المستعمرات اليهودية النائية وبعض اقسام من فلسطين تحتم الوكالة اليهودية بالجلاء في نطاق دولتها وبشكل يتاح لليهود [illegible] موهماً العرب بأنه سيتقدم وان اعماله البطولية هذه توطئة لاحتلال فلسطين بأكملها وتسليمها للسكان العرب، الا أن جيش الملك عبدالله سيقف عند حدود معينة له وعندئذ سيعيد الاستعمار البريطاني الهدنة بينه وبين حلفائه. أما الملك عبدالله فيمثل دور "المنقذ" ذاتياً من الحصول على ترحيب عرب فلسطين الأمر الذي يسهل له البقاء نهائياً في فلسطين في الاجزاء التي يكون قد احتلها جيشه. وهكذا تتم لعبة الاستعمار البريطاني باقامة دولة يهودية تؤمن مصالحه وما يطمح به من مراكز استراتيجية وامتيازات

بترولية. وفي الوقت نفسه لا يزال القسم العربي الشرقي الأردني يرسف مليكها بمعاهدة رق وعبودية.

ان مأساة حيفا وقضائها التي وقع ضحيتها عشرات الألوف من العائلات المشردة ومئات القتلى والجرحى من نساء وأطفال يجب أن تفتح أعين الشعب العربي ليسلك طريق النضال الصحيح ضد الاستعمار ومؤامراته، ضد سياسة أعوانه وأجرائه من زعماء سياسيين وعسكريين يجرون الشعب العربي إلى القيد. ان هذه المأساة ليست من صنع القيادة الصهيونية التي تنفذ رغائب الاستعمار فحسب بل وساهم فيها أيضاً أولئك الزعماء بقسط وافر إذ قادوا الشعب العربي إلى هذه المجازر التي لا تخدم إلا الاستعمار.

ان مدى اخلاص أولئك الزعماء لأفراد الشعب ظهر جلياً حينما تخلوا عنهم أوقات المحنة. ان نزوح الشعب العربي عن حيفا وقضائها عن أرض آبائه وأجداده وتخليه عن أملاكه وأرزاقه وأعماله لمما يسهل على الاستعمار تنفيذ مؤامراته ويساعد على ابتلاع مصالح العرب في هذه البلاد. ان مصلحة عرب حيفا وعرب فلسطين تحتم على سكان حيفا العرب الرجوع الى مدينتهم، الى أعمالهم ومصالحهم. ان مصلحة العمال العرب تقضي أن يعودوا ليحتلوا المراكز التي كانوا يعملون فيها ويرتزقون منها فلا يفسحون المجال للمنظمات اليهودية المتطرفة لتنفيذ سياسة احتلال العمل والأرض. انا نهيب بعرب حيفا وقضائها من العرب الرجوع ليستمروا في نضالهم في سبيل وحدة فلسطين واستقلالها. يجب أن لا تنخدع بتصريحات أولئك الجواسيس الذين يستفيدون من مآسي الشعب العربي وآلامه لتثبيت أقدامهم وأقدام المستعمرين. لن ينقذ فلسطين من أخطار الاستعمار وعملائه إلا نضال سكانها المباشر في سبيل تحطيم قوى الاستعمار لأجل الحرية والاستقلال والجلاء.

ان ذلك الاستعمار الذي ساعد القوات اليهودية على احتلال حيفا وقضائها يمنع عنها النجدات العربية من الطيرة والقرى المجاورة، ويسلط في الوقت نفسه على حركات الجيش الأردني وتنقلاته، لن يسمح لهذا الجيش باحتلال حيفا، التي مكن الوكالة اليهودية منها.

فلنقف أمام الاستعمار ومؤامراته، وأعوانه ولنوجه ضرباتنا إلى صميم الاستعمار البريطاني لأجل

حرية فلسطين واستقلالها ووحدتها

المشرَّدة ومئات القتلى والجرحى من نساء وأطفال يجب أن تفتح أعين الشّعب العربي ليسلك طريق النّضال الصّحيح ضدّ الاستعمار ومؤامراته، ضدّ سياسة أعوانه وأجرائه من زعماء سياسيّين وعسكريّين يجرّون الشّعب العربي إلى القيد. إنّ هذه المأساة ليست من صنع الغلاة الصّهيونيّين الذين نفّذوا رغائب الاستعمار فحسب بل ويساهم فيها أيضًا أولئك الزّعماء بقسطٍ وافرٍ إذ قادوا الشّعب العربي إلى هذه المجازر التي لا تخدم إلاّ الاستعمار.

إنّ مدى إخلاص أولئك الزّعماء لأفراد الشّعب ظهر جليًّا حين تخلّوا عنهم أوقات المحن. إنّ نزوح الشّعب العربي عن حيفا وقضائها عن أرض آبائه وأجداده وتخلّيه عن أملاكه وأرزاقه وأعماله لمّا يُسهِّل على الاستعمار تنفيذ مؤامراته ويساعد على ابتلاع مصالح العرب في هذه البلد. إنّ مصلحة عرب حيفا وعرب فلسطين تحتّم على سكّان حيفا العرب الرّجوع إلى مدينتهم إلى أعمالهم ومصالحهم، إنّ مصلحة العمّال العرب تقضي أن يعودوا ليحتلّوا المراكز التي كانوا يعملون فيها ويرتزقون منها فلا يفسحون المجال للمنظَّمات اليهوديّة المتطرِّفة لتنفيذ سياسة احتلال العمل والأرض. إنّنا نهيب بمن نزحوا عن حيفا وقضائها من العرب الرّجوع ليستمرّوا في نضالهم في سبيل وحدة فلسطين واستقلالها.

يجب أن لا ننخدع بتصريحات أولئك المأجورين الذين يستفيدون من مآسي الشّعب العربي وآلامه لتثبيت أقدامهم وأقدام المستعمرين. لن يُنقذ فلسطين خدّام الاستعمار وعملاؤه بل نضال سكّانها المباشِر في سبيل تحطيم قوى الاستعمار لأجل الحرِّيَّة والاستقلال والجلاء.

إنّ ذلك الاستعمار الذي ساعد القوّات اليهوديّة على احتلال حيفا وقضائها بمنعه عنها النّجدات العربيّة من الطّيرة والقرى المجاورة، ويسيطر في الوقت نفسه على حركات الجيش الأردني وسكناته، لن يسمح لهذا الجيش باحتلال

حيفا، التي مكّن الوكالة اليهوديّة منها.
فلنقف أمام الاستعمار ومؤامراته وأعوانه ولنوجِّه ضربتنا إلى صميم المستعمِر البريطاني لأجل حرية فلسطين واستقلالها ووحدتها.

حيفا 2/5/1948 عصبة التّحرّر الوطني

كيف وأينَ كُتِبَ "بيان إلى الشّعوب العربيّة" وكيف وصل إلى بلادنا؟

يكتب الرّفيق جمال موسى في كتاب أصدرته لجنة منطقة عكا للحزب الشّيوعي "كفاح الشّيوعيّين في ليل المآسي" صفحة 36: »كان الموعد في عزّ الصّيف من عام النكبة، وكان المكان غرفة ضيّقة في حارة شعبيّة مكتظّة بأهلها العاملين المجدّين ليل نهار سعيًا وراء لقمة العيال. المدينة: إحدى عواصم العالم العربيّ. الحرّ شديد ولكنّ القمع أشدّ. ولم يقوَ على شقّ عصا الطّاعة سوى الشّيوعيّين في فلسطين وفي العالم العربي كلّه مرخصين حياتهم. كعهدهم، في الدّفاع عن مصائر شعوبهم، فلم يكن من السّهل أن يصلوا إلى تلك الغرفة، فلمّا وصلوا لم يخرجوا منها، طول ثمانية أيّام، إلا بعد أن أنهوا مهمّتهم في نقاش مسؤول ما ارتفع فيه صوت عن أقصى الهمس ضمن أبواب ونوافذ مغلقة حتّى صاغوا الوثيقة التّاريخيّة..«

لقد كُتِبَ البيان بالحبر السّريّ وهرّب إلى بلادنا كما يذكر رفيقنا جمال موسى في نفس الكتاب صفحة 45: «عمد رفاقنا الشّيوعيّون اللبنانيّون إلى تأمين وصول بيان الأحزاب الشّيوعيّة الأربعة...إلى رفاقنا وحزبنا في حيفا وذلك عن طريقين..

الأوّل: سلّم إلى الرّفيقة نظلة خوري (أم كمال عطية) في بيروت ضمن أنبوب صغير يَسْهُلُ بلعه عند الحاجة وقد بلعته فعلاً وهكذا وصل إلى حيفا.

الثّاني: يقول الرّفيق رمزي خوري الذي كان في طريق عودته إلى البعنة،

وكان ينزل في قرب «ســاحة البرج» ودخل إلى غرفته شخص لم يعرفه، وقال للرّفيق رمزي، أنت مريض، وسنبعث إليك «بطبيب» لمعالجتكَ، وبالفعل أخذ هذا الطّبيب يزور رمزي يوميًّا..وبعد أسبوع من «المعالجة» زار رمزي للمرّة الأخــيرة، وقال له أعطني حزام بنطلونك وخــذ حزامي بدلاً منه، وبعد تبادل الحزامــين، قــال له عليك إيصال حزامي إلى رفاقك في فلســطين حالاً». وصل الرّفيــق رمــزي البلاد ووصل البيــان حيفا وطُبعَ هنــاك ووزّع في بلادنا وفي الوطن العربي في نفس اليوم كما اتُّفِق..

بيان إلى الشّعوب العربيّة

يشدّد المســتعمرون الانكليز والأمريكيّون هجومهم على الشّرق العربي، وهم وإن تزاحموا وتكالبوا على النّفط والأسواق القواعد العسكريّة، فإنّهم متّفقون على دعم النّظام الاســتعماري وتوطيد النّير في أعماق الشّعوب العربيّة وخنق نضالها في سبيل التّحرّر الوطني والدّيمقراطيّة. أمّا الفئات الحاكمة الرّجعيّة الخائنة، فتزحف على الأربع أمام المستعمرين.

الأسباب الحقيقيّة للحرب الفلسطينيّة

وكانت الحرب الفلسطينيّة نتيجة مباشرة للتّكالب بين انكلترا وأمريكا اللتين عمدتا لإثارة هذه الحرب بغية استغلالها لتسوية الحساب بينهما.

وبعد أن ســالت الدّماء البريئة أنهــارًا، واتّفق اللصوص الانكليز والأميركيّون على اقتسام البترول والنّفوذ والأسواق في الشّرق الأدنى، وتبلور اتّفاقهم حول فلســطين في مشروع عميلهم برنــادوت، الذي يقوم على التّقســيم ولكن كما أراده المســتعمرون، فهو يقــضي بمنع العرب من بناء دولة مســتقلّة لهم في أراضي القســم العربي وبإلحاق هذه الأراضي بالمستعمرة البريطانيّة الأردنيّة وإخضاع مراكز النّفط في حيفا لإشراف بريطانيا وأمريكا المباشر، ثمّ تنسيق ســيطرتهما المشــتركة على فلســطين بتأليف «اتّحاد» في السّياسة الخارجيّة وشؤون الدّفاع بين الدّولة اليهوديّة و«المملكة الأردنيّة الكبرى».

وهكذا يدفن مبدأ الجلاء والاستقلال الذي نصّ عليه قرار الأمم المتّحدة ويتحقّق ما أراده الاســتعمار من منــع العرب واليهود من تأليف دولتين مســتقلّتين،

ويبقى في كلّ فلسطين نظام الاستعمار والاحتلال، والتّدخّل الأجنبي الذي يسمح للإنجليز والأمريكيّين بتشييد القواعد العسكريّة والمطارات وحشد القوّات المسلّحة ومدّ أنابيب البترول وبناء المصافي، كما يتحقّق للملك عبد الله صنيعة الاستعمار، تكبير «مملكته» تمهيدًا لمشروع سوريا الكبرى. ويحقّق للصّهيونيّين توسيع «مداهم الحيوي»، فيشمل فلسطين وشرق الأردن معًا، سعيًا وراء حلمهم الرّجعي القديم والفاشل، بجمع كلّ يهود العالم حول «ضفّتي الأردن».

خيانة الرّجعيّة العربيّة في قضيّة فلسطين

لقد كشفت الحرب الفلسطينيّة بصورة نهائيّة تامّة عن خيانة الحكّام الرّجعيّين في الدّول العربيّة وخضوعهم المطلق للاستعمار الأجنبي، فقد اتّضح بما لا يقبل الجدل أنّهم لم يعلنوا الحرب لمنع التّقسيم كما زعموا بل لتنفيذ التّقسيم كما تريده بريطانيا ولاستغلال حالة الحرب لأجل تثبيت حكمهم المزعزع وقمع الحركة الشّعبيّة الصّاعدة في كلّ بلد عربي وبيع الأقطار العربيّة جملة للاستعمار في ظلّ الإرهاب والأحكام العرفيّة.

لقد كان الحكّام الرّجعيّون عالمين بالمؤامرة المبيّتة من الانجليز والزّعماء الصّهيونيّين وصديقهم عبد الله، والرّامية لتمزيق القسم العربي من فلسطين وإلحاقه كلّه بمملكته، أو إلحاق معظم أجزائه، وتوزيع بعض الأجزاء الأخرى، ومنع عرب فلسطين من إقامة دولة مستقلّة لهم في أراضيهم. وقد بذل الحكّام الرّجعيّون جهدهم لتنفيذ المؤامرة، فدعوا إلى الثّقة ببريطانيا، جلادة العرب وناكثة كلّ عهد ووعد، ورفعوا عبد الله إلى مصاف الأبطال، وغطّوا خيانتهم بحملة رعناء من التّهويش والكذب والافتراء على الاتّحاد السّوفييتي وعلى الشّيوعيّين العرب الذين برهنت الحوادث أنّهم كانوا على حقّ وصواب.

نكبة عرب فلسطين وجميع الشّعوب العربيّة في الحرب الفلسطينيّة

إنّ الحرب الفلسطينيّة التي كانت هائلة على عرب فلسطين أدّت إلى خرابهم وتشريد مئات الألوف منهم وانتزاع أقسام جديدة من أراضيهم، كانت أيضًا نكبة عامّة على الشّعوب العربيّة عسكريًّا ودوليًّا واقتصاديًّا ووطنيًّا. فمن النّاحية العسكريّة حارب الحكّام الرّجعيّون بأمر الانجليز الذين قادوا الأعمال العسكريّة العربيّة قيادة مباشرة، ووجّهوها من البداية إلى النّهاية فأمروا القوّات العربيّة بالتّقدّم أو بالتّراجع وفقًا لأغراضهم وسياستهم ذات الوجهين دون أيّة مراعاة للضّرورات العسكريّة وخلافًا لأبسط القواعد الحربيّة، مستهترين بالضّبّاط والجنود العرب استهتارًا مجرمًا ومخجلاً. وهكذا أذاق الحكّام الرّجعيّون الجيوش العربيّة أمرّ النّكبات وطعنوها من خلف خدمة للانجليز وتنفيذًا لأوامرهم.

ففي أعناق الحكّام الرّجعيّين الخونة دماء آلاف الجنود والشّباب العرب الذين قتلوا في سبيل مطامع الانجليز والأمريكيّين.

ومن النّاحية الدّوليّة أصاب المستعمرون وعملاؤهم سمعة العرب في العالم وسعوا إلى عزلهم عن الرّأي الدّيمقراطي العالمي وجرّوا الدّول العربيّة إلى سياسة عداء واستفزاز ضدّ الاتّحاد السّوفييتي وإلى إقامة العلاقات الودّيّة مع الفاشيست في اليونان ومع فرانكو جلاّد الشّعب الاسباني وجلاّد المرّاكشيّين العرب، المنبوذ من جميع شعوب الدّنيا.

ومن النّاحية الاقتصاديّة تفاقم العجز في موازنات الدّول العربيّة وزيدت الضّرائب على الجماهير الشّعبيّة وعمّ الكساد والضّيق، واستفحلت البطالة وتدهورت الصّناعات الوطنيّة، وزادت ضعفًا على ضعفها.

ومن النّاحية الوطنيّة كانت الأحكام العرفية وسيلة لقمع النّضال الشّعبي في الأقطار العربيّة وتمكين مراكز الاستعمار البريطاني في الأقطار العربيّة،

وفتح طريق الاحتلال العسكريّ أمام أمريكا التي أخذت ترسل مدمّراتها إلى الشّـواطئ العربيّة، وترسـل جنودها وضبّاطها على فلسـطين بحجّة مراقبة الهدنـة. وفي ظلّ الأحكام العرفيّة زيّفت الانتخابـات العراقيّة تمهيدًا لفرض المعاهدة الجديدة التي نبذها الشّـعب العراقي بنضاله الباسـل، وأطلقت يد الانجليز في السّودان، وبوشرت المفاوضات المصريّة البريطانيّة لتجديد معاهدة 1936، وتغلغل النّفوذ الأمريكي إلى قناة السّويس وتفاقم التّدخّل الانجليزيّ الأمريكيّ في سوريا ولبنان، وأصبح الاستقلال الذي حقّقه الشّعبان بدمائهما أثرًا بعد عين. أمّا المملكة السّعوديّة فقد تبيّن أنّها في يد الأمريكيّين مثل مملكة عبـد اللـه في يد الانجليز: أداة ذليلـة خانعة حقيرة لا تملك من أمرها شـيئًا. وسـاهمت الرّجعيّة الصّهيونيّة أكبر مساهمة في جرائم الاستعمار ومؤامراته واستغلّت حرب فلسـطين لتوطيد حكمها وللتّوسّع في القسم العربيّ وتبرير ارتمائها في أحضان الاستعمار الأمريكيّ، وفتح المجال الاقتصاديّ والعسكريّ في أراضي الدّولة اليهوديّة وفي كلّ فلسطين.

إنّ هذه النّكبات التي سـبّبتها الحرب الفلسـطينيّة سـوف تزداد وطأتها إذا اسـتمرّت حالة الحرب، كما يريد المسـتعمرون وعملاؤهـم وأعوانهم. ولذلك تطالب الشّـعوب العربيّة بوقف الأعمال الحربيّة في فلسـطين نهائيًّا، وإعادة المشرّدين العرب إلى ديارهم، وإنقاذ الأراضي العربيّة في فلسطين

من براثن الانجليز والأمريكيّين والصّهيونيّين وعبد الله وسحب قوّات الهجانا والقوّات الأردنيّة وجميع الجيوش منها، وإقامة دولة عربيّة مستقلّة.

الجامعة العربيّة أداة في يد الاستعمار

أكّـدت الحرب الفلسـطينيّة بما لا يقبـل الجدل أن «جامعة الـدّول العربيّة» إنّما هي أداة في يد الاستعمار، ووكر خيانات ودسائس ضدّ الشّعوب العربيّة

وواجهة مزيّفة تخفي وراءها أبشــع المنافسات الدّنيئة الحقيرة بين البيوتات الحاكمة والإقطاعيّات الرّجعيّة المتكالبة على نيل الحظوة لدى المستعمرين.
إنّ الجامعة العربيّة اتّخذت موقفًا سلبيًّا مخجلاً من انتفاضة العراق الرّائعة ضدّ معاهدة بورتســموث في حين أنّها أيّدت وحيّت معاهدة الإذلال والاحتلال الأردنيّة وسـمّتها اسـتقلالاً، ولم تفعل شـيئًا لتأييد نضال الشّـعب المصري ضدّ الاسـتعمار وأيّدت الأمريكيّين في استيلائهم على بترول المملكة السّعوديّة وعرقلـت نضـال جميع الشّـعوب العربيّة في سـبيل الجلاء والاسـتقلال، ثمّ توّجت خياناتها وجرائمها بتآمرها مع الاستعمار والصّهيونيّة ضدّ فلسطين الشّهيدة، وهي تبذل جهدها الآن لجرّ الأمّة العربيّة كلّها إلى تحالف عسكري مع الاستعمار الانجليزي والأمريكي.
وقد اتّضح لكلّ عربيّ مخلص أنّ الطّريق لجمع كلمة العرب في سـبيل التّحرّر من الاسـتعمار وتحقيق الاسـتقلال والسّـير في طريق العزّة والقوّة والازدهار ليس طريق جامعة البشاوات والبكوات ولا طريق الزّعامات الإقطاعيّة الرّجعيّة الباليـة، بل هـو طريق الاتّحاد الوطنـي والنّضال الشّـعبي في كلّ قطر عربيّ، وطريق التّضامن الحقيقي الواسع بين الجماهير الشّعبيّة في كلّ الأقطار العربيّة، للنّضـال العنيد ضدّ الاسـتعمار الانجليـزي والأمريكيّ، وضدّ هـذه الإقطاعيّة الرّجعيّة نفسها وفي سبيل الاستقلال والحرّيّة والدّيمقراطيّة الصّحيحة.

مشاريع الانجليز والأمريكيّين الحربيّة في الشّرق العربيّ

إنّ المسـتعمرين الانجليـز والأمريكيّين، رغـم ما بينهما مـن تزاحم وتكالب متّفقون عـلى جمع كلّ أقطار الشّرق الأدنى من اليونـان وتركيا وإيران على الشّرق العربيّ، في نظام اسـتعماريّ وعسكريّ موحّد، وهم يجدون كلّ عون وتأييـد من الزّعماء الصّهيونيّـين الرّجعيّين ومن الحـكّام الرّجعيّين العرب،

الذين يعملون كلّ في ميدانه لتعميق هوّة العداء بين العرب واليهود وإقامة جوّ التّوتّر والمذابح بين الطّرفين، لصرف الأنظار عن نير الاستعمار ومشاريعه الحربيّة. إنّ إبقاء الجيوش العربيّة في فلسطين وتطويل حالة الحرب واستمرار الأحكام العرفيّة وتوحيد قيادتي الجيشين الأردني والعراقي تحت إشراف الضّبّاط الإنجليز والدّعوة إلى توحيد جميع القيادات العسكريّة العربيّة على نفس الشّكل، وعلى عقد تحالف عسكري بين الدّول العربيّة الخاضعة كلّها للنّفوذ الإنجليزي الأمريكي، وزيادة الإعتمادات الحربيّة وتعميم التّجنيد الإجباري، مع أنّ الطّعنة ألتي تلقّتها الجيوش العربيّة من خلف لا تزال تقطر دمًا، ثمّ ظهور نوري باشا السّعيد إلى الميدان بالدّعاية للفاشيست اليونان والسّعي للتّقرّب من الرّجعيّة التّركيّة السّفّاكة عدوّة العرب التّقليديّة التي اغتصبت لواء الإسكندرونة وقاومت جلاء الإنجليز عن مصر وحاربت وما زالت تحارب نضال العرب من أجل استقلالهم وحرّيتهم..كلّ ذلك ليس الغاية منه «حصر الخطر الصّهيوني» والمحافظة على القسم العربي من فلسطين، كان كذبًا وبهتانًا وتضليلاً بل الغاية منه أوّلاً: قمع الحركة الوطنيّة والدّيمقراطيّة التّقدميّة بين الجماهير الشّعبيّة ضدّ الاستعمار والرّجعيّة في جميع الأقطار العربيّة وثانيًا: تثبيت المراكز المزعزعة للرّجعيّات الإقطاعيّة الخائنة الحاكمة في الأقطار العربيّة، ثالثًا: خنق الحرّيّات الدّيمقراطيّة وإغراق الأقطار العربيّة في ظلمات أنظمة فاشيستيّة والعودة إلى ظلمات القرون الوسطى، رابعًا: زيادة الضّرائب على الجماهير العربيّة ودعم سياسة الاحتكار والنّهب، خامسًا: إضعاف الأقطار العربيّة اقتصاديًّا وذلك لفرض قروض أجنبيّة جديدة على البلاد العربيّة، سادسًا: توطيد استعمار بريطانيا وأمريكا في الشّرق العربي وتجديد معاهدات الاستعباد السّابقة (في مصر والعراق) وعقد معاهدات جديدة مع بقيّة الأقطار العربيّة، سابعًا: ربط

الأقطار العربيّة بصورة مكينة نهائيّة بالمعسكر الاستعماري العالمي سياسيًّا واقتصاديًّا ودوليًّا، بل كل الشّرق العربي إلى ثكنة عسكريّة وقاعدة حربيّة يتصرّف الانجليز والأمريكيّون بخيراتها ونفطها ومياهها وإنتاجها ودماء شبابها وجنودها في الحرب العالميّة التي يهيّئونها ضدّ الاتّحاد السّوفييتي والدّيمقراطيّات الشّعبيّة في أوروبا الشّرقيّة، حرّيّة شعوب الدّنيا بأسرها. وهكذا يجعلون أوطاننا ساحات قتال طاحن يفرضون على الشّعوب العربيّة أقسى ويلات الحرب وفظاعاتها فتهدم بيوتنا وتدمّر مدننا وتنسف معاملنا ومتاجرنا وتحرق حقولنا وبساتيننا وتذهب نساؤنا وأطفالنا وشيوخنا وشبابنا طعامًا لنيران المدافع والقنابل وتغدو هذه الدّيار العربيّة الطّامحة إلى الاستقلال والحرّيّة والسّلام بلقعًا موحشًا وأطلالاً تنعق فوقها البوم والغربان..لكنّ الشّعوب العربيّة التي تكره الحرب والاستعمار وتريد السّلام والحرّيّة والاستقلال والتّقدّم، لن تقع في شباك المستعمرين، وتنجرّ وراء مغامراتهم الحربيّة ولن تقبل أن تكون كنوزها وخيراتها وبترولها ومعادنها ومواردها ودماء أبنائها نهبًا للمستعمرين. وهي تعلم أنّ مصلحتها تقضي عليها بأن تكون في معسكر السّلام والحرّيّة والدّيمقراطيّة، معسكر أعداء الحرب والاستعمار لا معسكر الاستعماريّين الذين يريدون تخليد الاستعباد في أعناق الشّعوب العربيّة ثمّ إبادتها في حروبهم المجرمة.

الاستعمار الأجنبي وحليفته الإقطاعيّة هما سبب تأخّر الأقطار العربيّة وبؤس شعوبها

أيّها الإخوان والأخوات، أيّها العمّال والفلاّحون والمثقّفون الأحرار، أيّها الطلاّب والمعلّمون، أيّها التّجّار الصّغار والمنتجون الكادحون، أيّها الوطنيّون المخلصون في جميع الأقطار العربيّة: إنّ الاستعمار الأجنبي العسكري

والاقتصادي والسّياسي يخنق أوطاننا العربيّة فهو السّبب الرّئيسي الذي يمنع تطوّرهـا الصّناعي والزّراعـي والاجتماعي، وهو المسـؤول الرّئيسي لتدهور أموالها الاقتصاديّة ولما تقاسيه شعوبنا من بؤس وفقر وحرمان.

إنّ الاستعمار الانجليزي والأمريكي، بالاستناد إلى حليفته الإقطاعيّة الرّجعيّة يهيمن على حياتنا السّياسـيّة والعسـكريّة وينهب مرافقنا وكنوزنا وخيراتنا جميعًا. فالقـوّات الإنجليزيّة تجعل العراق ومـصر وشرق الأردن، والضّبّاط الإنجليـز يسـيطرون على قيـادات الجيوش العراقيّـة والأردنيّـة والمصريّة، والخبراء الإنجليز والأمريكيّون يسـيطرون على الجيش اللبناني والسّـوري، وعـلى الجيش السّـعودي ومطارات وامتيـازات وقواعـد في كلّ قطر عربي، وشركات البترول الأمريكيّة والإنجليزيّة تسـتعبد الجزيـرة العربيّة وتهيمن عـلى زيـت العراق والكويـت وتمـدّ أنابيبها عبر سـوريا وفلسـطين ولبنان ومصر، والرّأسـمال الأجنبـي الإنجليزي والأمريكي يسـيطر على أهمّ مرافق الأقطـار العربيّة مـن النّقد إلى سـكك الحديد والكهرباء عـلى المجال الجوّي والـبرّي والمائـي والخـبراء الإنجليز والأمريكيّـون متغلغلـون في الإدارات في جميـع العواصـم العربيّة، والبضاعـة الأجنبيّة، خصوصًـا الأمريكيّة تطغى وتسـيطر وتقتل صناعتنا الوطنيّة والحرفيّة، وتلقي بألوف الشّباب والعمّال في مهـاوي البطالة. إنّ عـشرات الملايين من الفلاّحين العـرب محرومون من الأرض ويعيشـون عيشـة غير لائقة بالإنسـان تحت نير الإقطاعيّين البرابرة وكبار الملاكين شركاء الاستعمار وخدّامه. فالمرارة والحرمان والمرض والجهل تسـحق القرى والأرياف والأحياء الشّعبيّة في المدن، لا مدارس ولا طرقات ولا صحّـة ولا بيـوت صالحة للسّـكن ولا ريّ ولا نور ولا ميـاه صالحة للشّرب، وليس بين أربعين مليونًا من سـكّان الشّرق العربي من هو راضٍ عن الحالة سـوى حفنة ضئيلة من الحكام والإقطاعيّين وكبار المحتكرين الذين يغتنون

ويثرون ويشاركون الاستعمار في التّحكّم والسّرقة والنّهب.
تلك هي في ظلّ الاستعمار والإقطاعيّة حالة شعوب يحمل تاريخها إبن سيناء وابن رشد والفارابي وابن خلدون، تلك هي حالة ملايين العرب في العراق موطن الرّشيد وسوريا موطن إبي العلاء والمتنبّي وفلسطين موطن صلاح الدّين ولبنان موطن الرّيحاني وعمر فاخوري ومصر وريثة أكبر مدنيّة في التّاريخ الإنساني.
لكنّ شعوبًا تحمل تاريخها هذا التّراث الفكري والإنساني العظيم لن تبقى فريسة الحكم الأجنبي والتّحكّم الإقطاعي المظلم.

معسكر الاستعمار العالمي يتقهقر بينما معسكر الحرّيّة والدّيمقراطيّة في العالم يتقدّم

إنّ عجلة التّاريخ تسير إلى أمام، فقد خرج الاستعمار العالمي من الحرب العالميّة متضعضع القوى مزعزع الأسس. فانهارت قوّتان استعماريّتان كبيرتان هما ألمانيا واليابان، وتضاءل الاستعمار الفرنسي والإيطالي وتزعزعت الإمبراطوريّة البريطانيّة تتفسّخ اليوم وتنهار تحت أنظار الجميع. أمّا الولايات المتّحدة الأمريكيّة التي لم تقاس من الحرب وكدس طغاة المال والاحتكار فيها أرباحًا وقوى يطمعون بواسطتها إلى الإطلال على العالم، فالأزمة الاقتصاديّة المرعبة تقرع أبوابها وتصطدم مشاريعها في أوروبا وآسيا بمقاومة الشّعوب الجبّارة.
أمّا معسكر الحرّيّة والدّيمقراطيّة، معسكر النّضال ضدّ الاستعمار فقد خرج من الحرب أكثر بأسًا من معسكر الاستعمار وقوّته تنمو وتتعاظم يومًا بعد يوم. فالاتّحاد السّوفييتي العظيم موطن الاشتراكيّة وعدو الاستعمار اللدود وأكبر نصير للشّعوب في سبيل حرّيّتها قد خرج من الحرب أقوى وأعظم ممّا

كان، وبينما العالم الرّأسـمالي فرح بأزمات البطالة والاضطرابات والثّورات وتنزل فيه أجور العمل وينخفض مسـتوى معيشـة الجماهير، يبني الاتّحاد السّوفييتي إقتصاديّاته بنجاح وسرعة وقد تجاوز فيه الإنتاج مستوى ما قبل الحـرب، رغم هول التّخريب الذي أصابه خلال الحرب، وزادت أجور العمّال خمسـين بالمائة بينما ارتفع نفوذ الاتّحاد السّـوفييتي في العالم وأصبح الآن أقوى دولة في الدّنيا عسـكريًّا وسياسـيًّا واقتصاديًّا ودبلوماسيًّا وهو يحبط اسـتفزازات الأمريكيّين والانجليز في ألمانيا وغيرهـا، بحزم الجبّار الواثق من قوّته.

وقـد تحطّم الطّوق الاسـتعماري في أوروبا الوسـطى الشّرقيّة وخرجت منه شـعوب تحرّرت من النّير الأجنبي والإقطاعي وسارت في طريق الدّيمقراطيّة الشّعبيّة تحثّ الخطى نحو النّظام الاشتراكي.

وفي إيطاليا وفرنسـا يقاوم العمّال ببسـالة تحت قيادة الشّـيوعيّين مشاريع التّوسّع الأمريكي. وفي الصّين العظيمة يقوم مائتا مليون إنسان بحرب وطنيّة عظمـى لا هوادة فيها ضدّ الاسـتعمار تحت لواء الشّـيوعيّين الصّينيّين قادة التّحرّر الوطني، وهم يواصلون انتصاراتهم الرّائعة يومًا بعد يوم ويحرّرون وطنهم من المسـتعمرين الأمريكيّين وخدمهم الإقطاعيّـين الصّينيّين الخونة ويشـيّدون لأنفسهم وطنًا جديدًا حرًّا قائمًا على قواعد راسخة من الاستقلال والحرّيّـة والدّيمقراطيّـة. وفي إندونيسـيا المناضلة والباسـلة اتّحدت جميع الأحـزاب الوطنيّة في جبهـة كبرى طليعتها الشّـيوعيّين والتفّ حولها ملايين مـن الجماهير الشّـعبيّة وهي تواصل النّضال المسـلّح الظّافر لإكمال تحرير إندونيسيا من الاحتلال الهولندي والاستعمار الانجليزي والأمريكي ولتحقيق الاسـتقلال والسّـيادة والسّـير في طريق الدّيمقراطيّة الصّحيحة. وفي الهند الصّينيّة والملايو وبورما يحمل عـشرات ومئات الألوف من الوطنيّين العمّال

والفلاّحين تحت قيادة الشّيوعيّين وسائر الوطنيّين المخلصين في سبيل تحرير أوطانهم من الاستعمار والاحتلال الأجنبي وتحقيق الدّيمقراطيّة. ويقوم الشّعب اليوناني بأبسل ثورة وطنيّة ديمقراطيّة ضدّ الاستعمار الأمريكي والبريطاني وخدمه الملكيّين الفاشيّين. وأفريقيا السّوداء تتحرّك ويقضّ ذلك مضاجع المستعمرين. وفي أمريكا تتّسع الحركة الشّعبيّة التّقدميّة ضدّ سياسة الاستعمار والحرب.

لقد انهارت حملة التّهويش والافتراء على الاتّحاد السّوفييتي التي أثارها المستعمرون وعملاؤهم بأمل إبعاد الشّعوب العربيّة عن حليفها الطّبيعي في نضالها ضدّ الاستعمار والرّجعيّة. فالعرب يرون أنّ الاتّحاد السّوفييتي هو الذي أيّد نضال سوريا ولبنان في سبيل الجلاء وهو الذي أيّد انتفاضة العراق ضدّ معاهدة جبر-بيفن ونضال مصر ضدّ معاهدة صدقي-بيفن وهو الذي يؤيّد اليوم نضال شعوب مصر والعراق وشرق الأردن لأجل الجلاء وإلغاء المعاهدات الاستعماريّة، والنّضال السوري واللبناني ضدّ مشروع سوريا الكبرى وهو الذي دافع عن حقّ الفلسطينيّين في الجلاء والاستقلال وقد كان من أنصار وحدة فلسطين على أساس الجلاء والاستقلال، كما صرّح ممثّلوه رسميًّا في هيئة الأمم المتّحِدة لأنّ من مبادئه الإخاء والتّعاون والتّقارب بين القوميّات والشّعوب بدليل أنّ ستّين قوميّة مختلفة تعيش بتعاون وإخاء في الاتّحاد السّوفييتي. ولكنّه أيّد قيام دولتين مستقلّتين في فلسطين نظرًا للتّوتّر الشّديد في العلاقات بين اليهود والعرب بسبب ما أورثته سياسة الاستعمار البريطاني من عداء متحكّم بين الفرقين بمساعدة الرّجعيّين العرب والصّهيونيّين. ويتبيّن اليوم كم كان الاتّحاد السّوفييتي على حقّ ويتّضح أنّه أراد بموقفه الصّريح تجنيب عرب فلسطين والشّعوب العربيّة نتائج المؤامرة التي دبّرها الانجليز والأمريكان ضدّ فلسطين بمعونة عملائهم الحكّام

الرّجعيّين العرب والزّعماء الرّجعيّين الصّهيونيّين. إنّ العمّال والفلاّحين والمثقّفين والمتحرّرين العرب يتتبّعون بشوق أنباء انتصارات الشّعوب السّوفييتيّة في توطيد النّظام الاشتراكي الذي لا يستثمر فيه إنسان إنسانًا ولا يستعبد شعب شعبًا، إنّ العرب الذين قاسوا أو يقاسون المصائب من نير الاستعمار يرون بالتّجربة أنّ الاتّحاد السّوفييتي هو نصيرهم الثّابت الأمين في نضالهم لأجل الاستقلال والحرّيّة.

إلى الاتّحاد الوطني، إلى التّضامن العربي

إنّ الأحكام العرفيّة وإلقاء الألوف من الوطنيّين العرب نساءً ورجالاً في السّجون وجزائهم الضّرب والتّعذيب الوحشي كلّها لم تفلّ من عزيمة الشّعوب العربيّة. فموجة النّضال الشّعبي ترتفع في كلّ قطر عربي، وفلسطين الشّهيدة يتظاهر العرب هاتفين بسقوط عبد الله وأسياده المستعمرين، وينضمّ الجنود العرب إلى الشّعب المتظاهر. وفي كلّ عاصمة عربيّة يتعاظم نضال العمّال وفي القرى العربيّة تتفتّح عيون الفلاّحين فيهبّون في وجه استبداد الإقطاعيّين. أيّتها الجماهير العربيّة: إنّ الأحزاب الشّيوعيّة في العراق وسوريا ولبنان وعصبة التّحرّر الوطني قي فلسطين هذه الهيئات الشّعبيّة التي برزت من قلب الشّعوب العربيّة التي برهنت الحوادث إخلاصها وصواب سياستها وثباتها في النّضال الوطني من أجل الحرّيّة والدّفاع عن خبز الجماهير ومطالبها تتوجّه إليكم في هذه الظّروف الدّقيقة وتدعوكم إلى جمع الصّفوف في كلّ قطر عربي في جبهة شعبيّة تضمّ جميع القوى الوطنيّة والدّيمقراطيّة ضدّ الاستعمار وعملائه الرّجعيّين في سبيل الجلاء عن كلّ الشرق العربي وفي سبيل الاستقلال والدّيمقراطيّة فلنتضامن ضدّ التّكتّلات الحربيّة التي يراد فرضها علينا إلى الاتّحاد الوطني، إلى التّضامن العربي في سبيل:

1. وقـف الأعمال الحربيّة نهائيًّا في فلسـطين وإعـادة اللاجئين إلى ديارهم وسحب القوّات الصّهيونيّة وجيوش عبد الله وكلّ القوّات العسكريّة من الأراضي العربيّة في فلسطين.
2. إقامة دولة عربيّة مسـتقلّة في القسم العربي ومنع تمزيقه وإلحاقه كلِّيًّا أو جزئيًّا بأيّ شكل كان.
3. الجلاء العسـكري والمدني التّام عن مـصر والعراق وشرق الأردن وإلغاء المعاهدات التي تقيّد هذه الأقطار.
4. إلغاء إمتيازات البترول في جميع البلاد العربيّة.
5. إسترجاع استقلال سوريا ولبنان الذي باعه الحكّام الرّجعيّون للإنجليز والأمريكيّين ومكافحة مشروع سوريا الكبرى الذي يوطّد أقدام الاستعمار في الشّرق العربي.
6. الكفّ عن سياسـة الاسـتفزاز والعداء نحو الاتّحاد السّـوفييتي وتعزيز الصّداقة والتّعاون السّياسي والاقتصادي ومع الدّول الاشتراكيّة الكبرى
7. مكافحـة مـشروع الكتلـة الشّرقيّة وإحباطـه ورفـض كلّ محالفة مع الرّجعيّة التّركيّة وتأييد الشّعب السّوري في لواء الاسكندرونة.
8. إلغـاء الأحـكام العرفيّـة في كلّ الأقطـار العربيّة والقضاء على أسـاليب الإرهاب الفاشيسـتي وتحرير جميع المعتقلين الوطنيّين العرب واحترام الحريّات الدّيمقراطيّة والنّقابيّة.
9. محاربـة النّعرات الطّائفيّة والعنصريّة التي يثيرها الاسـتعمار وعملاؤه لتفريق الصّفوف.

عــاش التّضامــن العربــي ضــدّ الاســتعمار وعملائه في ســبيل الجلاء والاستقلال والدّيمقراطيّة.
عاش التّضامن بين الشّــعوب العربيّة وجميع القوى الدّيمقراطيّة وفي رأسها الاتّحاد السّوفييتي
في النّضــال ضــدّ الاســتعمار لأجــل السّــلام والاســتقلال. وليرتعــش المســتعمرون وعملاؤهــم الرّجعيّون أمــام يقظة الجماهــير العربيّة وتضامنها في النّضال العظيم لأجل الاستقلال والكرامة والشّرف.

أوائل تشرين أول 1948

الحزب الشّيوعي العراقي
الحزب الشّيوعي السّوري
الحزب الشّيوعي اللبناني
عصبة التّحرّر الوطني في فلسطين

من مُفكّرة شيوعيٍّ فحماويٍّ

كنــتُ قد تطرّقْتُ في الحلقة السّادســة عشرة من «يَوْمِيَّات بَرْهُوم البُلْشُــفِيّ» للجمعيّــة التّعاونيّة في حيفا «قوت الكادحــين» وبفروعها العديدة في الجليل، ولــم يدرِ أو لم يعلم مُحدِّثِيَّ أنّــه كانت للجمعيّة فروعٌ في منطقة المُثلّث، فقد كانــت الاتّصــالات بين مناطــق الوطن، من قــرى ومُدن، بعــد احتلال البلاد مُتَعَثِّرة وصعبة ومُنْقطِعة بشكلٍ منهَجِيٍّ، فالحكم العسكري الظّالم عاثَ في الوطن فســادًا، قاطِعًا أوصاله، كتقييد للحُرِّيَّات بأنواعها المُختلفة والعديدة، كــي لا تعرف اليدُ اليُمنى ما تفعله اليُسرى، ولا تــرى العين اليُسرى ما تراه اليُمنى، بهدف قطع دابر وتواصل الأشــقّاء من أهل البلاد الأصليين الّذين لا وطن لهم سواه.

حين نُشِرت الحلقة السّادســة عشرة في صحيفة الإتّحاد الغرّاء وبعدها نُشِرت اليوْميّــات من عــلى الموقع الإلكتروني للجبهة، عقّــب الرّفيق د. زياد محاميد مشــكورًا، على أنّه كان لجمعيّة «قوت الكادحين» فرع في أمّ الفحم، ووجّهني إلى الرّفيــق الحاج إبراهيم الحُصري أبو البديع، حيث حصلت على رقم هاتفه من الرّفيق العزيز أبو وطن، عبد اللطيف حصري.

أمّ الفحــم أو عريــن الثّــوّار، اســمان لبلد واحــد، يُطابــق الأوّل منهما الآخر بانســجام تام، فقد أطلق الرّفيق والأســتاذ تيســير خالد اغباريّة اسم عرين الثــوار على كتابه عن التّاريخ الثّوري لأم الفحم، إشــارة وتأكيدًا منه، وبحقّ، عــلى أنّها منبت الثّوار والأبطال الميامين، وهل ننسى مطلع النّشــيد «أمّ الفحم

جبـل النّار ويا ويـل اللي يعاديها»، فقد كانت أمّ الفحـم قبل الاحتلال تابعة لمنطقة جنين وانضمّت للوطن السّـليب في شـهر أيّار من العام 1949، قسرًا بموجـب اتّفاقيّـة رودوس، مع باقي قـرى المُثلّث، وهي اتّفاقيّـة أو مؤامرة أسموها «هدنة» موقّعة بين المملكة الهاشميّة، لبنان واسرائيل. وقد استوعبت قريـة أم الفحـم، في حينه جميع لاجئي القـرى المجاورة كاللجـون، خبّيزة، أم الزّينـات، الرّوحة، أبو زريق، المنسـة وغيرها مـن القرى وحالاً فُرِض على القريّـة كما على باقي قُرى المثلّث والوطن، الحُكْم العسـكري لتكون في الهمّ واحـدٌ، وهذا يعني، كما قال الحاج أبو البديع: حصار عسـكري، اقتصادي، منع تجـوّل، اعتقالات، تحديـد حريّة المواطنين بهدف تجويـع الأهل وذلّهم وتركيعهم الأمر الّذي زاد الوضع سوءًا...

فهـؤلاء المواطنـون اختارتهم إسرائيل، بمؤامرة من القـوى الرّجعيّة العربيّة حسب اتّفاق رودوس ليكونوا مواطنيها طمعًا في أراضيهم ورزقهم، فضمّتهم لتعذيبهم ومصادرة أراضيهم «ولتُقضّي فيهم الحسايب»....

ولم يسـتطع المرء معرفة أخبار باقي الوطن وكيف يعيش الأهل في مناطقهم البعيـدة كحيفـا والنّاصرة. ويقول الحـاج أبو البديع: لقد تسـلّلَتْ صحيفة الإتّحاد إلى أمّ الفحم بواسطة بعض المرضى الّذين سَمَح لهم الحاكم العسكري بتلقّي العلاج في مستشـفيات النّاصرة أو العفّولة، ومنها وصلتنا أخبار الأهل والوطن ومستجدّات الأوضاع. مع أنّه كان لقاء الحاج إبراهيم الحُصري الأوّل بصحيفة الإتّحاد خلال عمله في حيفا، في فترة الانتداب البريطاني. وقد أُقيمت أوّل خليّة حزبيّة في قرية أم الفحم بواسـطة الرّفيق محمّد موسى، أبو موسى، عضـو عصبة التّحرّر الوطني والّذي انتقل من حيفا إلى أم الفحم لبناء خلية حزبيّـة فيها، وكان يهرّب معه صحيفة الاتحاد، لكنّ الحاكم العسـكري بعد اتّفاقيّة رودوس طرده من أمّ الفحم، ومن البلاد، خوفًا من تزايد نشاط الفرع

وازدياد عدد الرّفاق المُنتسبين للحزب الشّيوعي وكانت حجّته الواهية، أنّه ليس فحماويًّا، وهذا وَضَعَ الرّفاق أمام تحدٍّ صعب، لكنّهم ومنذ تلك اللحظة بدأ عملهم يزداد باطّراد بتنظيم أهل البلد واللاجئين للمُطالبة بحقّهم بالعمل الشّريف والعيش الكريم وتوفير لقمة العيش الحلال. فبدأ الرّفاق بكتابة العرائض وتنظيم المُظاهرات. ويُتابع الحاج: لقد كانت اجتماعات الرّفاق سريّة للغاية في بيوت الرّفاق أو في السّهول المجاورة. فقد نظّموا أوّل مظاهرة شعبيّة كانت قد طافت كلّ أزقّة وحارات وساحات القرية إلى أن وصلت مقر الحاكم العسكري، حيث تشكّل وفد للتّفاوُض وتسليم الحاكم العرائض ومطالب أهل البلد، وحين رفض الحاكم العسكري استلام العريضة الموقَّعَة والمطالِبة بتحسين الأوضاع المعيشيّة من زيادة كميّة المؤن للأهل في القرية من سُكّر وملح وبيض وزيت وطحين، وزيادة فُرص العمل والتّصاريح للخروج من القرية طلبًا للعمل وتوفير الرّعاية الصّحيّة، اعتصمنا أمام مقرّ الحاكم العسكري رغم تهديداته بإطلاق الرّصاص علينا، وحين رأى أنّ الفتك والتّرهيب والوعيد لن يثنِيَ أحدًا من الرّفاق عن مواصلة الكفاح وأنّ الرّفاق يقابلونه بالعزم والثّبات والصّمود وبتحدٍّ، وافق على مُقابلة المُتظاهرين الّذين شكّلوا وفدًا مكوّنًا من الرّفاق: محمّد الشريدي، أحمد خضر حسن وجميل الحاج يوسف. وكانت النّتيجة نجاح المُظاهرة بتحقيق اللقاء مع الحاكميّة واستجابتها لبعض المطالب حيث أصبح المُخصّص للفرد الواحد وبالسّعر الرّسمي عشرة كغم طحين، كيلوغرام واحد سكّر، كيلوغرام واحد من الأرز، وكذلك تصاريح سفر العُمّال للعمل لأهل البلدة بحيث يتناوبون على توزيع هذه التّصاريح فيما بينهم وكان عدد التّصاريح ستّين، وكذلك فُتِحت عيادة طبّيّة...

لكنّ موافقة الحاكميّة لمطالب الرّفاق، كان على مضض، الأمر الّذي أرّق

سـكينتها وزاد من احتقانها وحقدها وضغينتها وبدأت بتنظيم حركة عميلة للاحتلال، تمتدح الحاكم العسـكري وتهاجم الشّيوعيّين «الكفرة» لا بل حتّى تُطالب بطردهم من القرية لأنّ الشّـيوعيّة تعني الإلحاد والإباحيّة، «بآمنوش بألله»، مروّجين مقولتهم أنّ المواطن في البلدان الاشتراكيّة لا يُفرّق بين زوجته واخته أو زوجـة أخيه، أي أنّه يعيشُ في مجتمع مُنْحلّ من كلّ النّواحي حتّى الأخلاقيّة، «فهل ترضون بمجتمع كهذا عندنا».

لقد حاول الحاكم العسكري جاهِدًا بكلّ ما أوتي من قوّة وتحايُل وخداع قلع شـوكة الصّبّار الّتي بلعها بطمعه وخداعه وخيانة الأنظمة العربيّة العميلة، حين ضمّ هذه المنطقة لدولة اسرائيل، وكيف السّـبيل لإخراج شـوكة الصّبّار الجارحة من حلقه! وبدأ النّشاط المضاد لكسر وتحطيم النّواة المُقاوِمة للظّلم والغبن من الشّـيوعيين. إذ كتب عملاء الحاكم العسكري عريضةً ووقّع عليها بعض سُـكّان القريـة دون أن يقرأ أحدٌ منهم ما جاء فيهـا، حيث أن غالبيّة السـكّان كانوا أُمِّيِّين، وحين قرأ الحاج أبو البديع ما جاء في العريضة لبعض الموقّعين، فهموا فحوى الرّسـالة وصرخوا مُسـتنجِدين بأبـي البديع «مزّقها مزّقها دخيل الله». وبعد أن فشـلت عريضة الحاكم العسـكري، أصدر أمرًا باعتقـال الرّفاق ونفيهـم. وكان من بين المُعتقلين محمّـد الشريدي، إبراهيم ألحُـصري وأحمـد خضر جبّارين وقد قـام لاحقًا بنفي الرّفـاق المُعتقلين إلى قرية برطعة الحدوديّة لمدّة ثلاثة شهور، وهناك التقى الأبطال الميامين بعدّة رفـاق مثلهم، في الهـمّ والغمّ والنّفي والنّضال والبطولـة من الطّيبة والطّيرة ويذكـر الحاج أبو البديع بعض الرفاق وهم: عبـد الحميد أبو عيطة، فيصل عبـد الرّزّاق ومحمـود أبو زياد، وقد أكـرمَ أهلُ برطعة وفـادة الرّفاق كرمًا حاتميًّا طائيًّا، فلولا كرم أهل برطعة الأشـاوس لمـات رفاقنا جوعًا، مع أنّهم هُدِّدوا وأُنذِروا بعدم مخالطة المنفيّين أو حتّى استضافتهم.

يقــول الرّفيق الحــاج إبراهيم الحُصري: إنّ عمليّــة النّفي إلى برطعة لم تكن محض صدفةٍ فهي قرية حدوديّة، يقســمها وادٍ صغير إلى قســمين: الغربي تابــع لبرطعــة والشّرقي تابــع لغربي نهــر الأردن التّابع للمملكــة الأردنيّة. وعندمــا تمّ النّفي إلى هُناك، كان يأمل الحاكم العســكري راضيًا ومتمنّيًا من اللــه، إذا كان يعرفه، هــروب الرّفاق إلى شرقيّ الأردن وبذلــك يرتاح مِنْ همّ الشّيوعيّين.

عندما عاد الرّفاق المنفيّون إلى قريتهم أمّ الفحم، وجدوا أنّ الحاكم العسكري ســمح لبعض البقّالــين بتوزيع المــؤن، وعلى مقرّبيه حصرًا، وليس بحســب نظام التّقنين والتّموين والحاجة ليكون كلّ بحســب حاجته، بل كان الهدف مــن ذلك يقول أبو البديــع «شراء الذّمم»، ممّا اضطر النّــاس، يُتابع الحاج، بيع أملاكهم من أثاث ومفروشــات حتّى الفراش لســدّ رمق أطفالهم وشراء الحاجيّات الغذائيّة «بالسّوق السّوداء».

لقــد قرأ الرّفــاق في الحزب الشّــيوعي في قرية أمّ الفحم مــن خلال صحيفة الإتّحــاد والمُهرَّبــة إليهــم سِرًّا، أنّ رفاقهم في حيفــا والجليل أقامــوا جمعيّة تعاونيّة، كلّ بمدينته وقريته واسمها «قوت الكادحين» التّابعة لمؤتمر العمّال العرب. وقاموا بدعوة الرّفيق طيّب الذّكر يوســف عبده إلى قريتهم ليُطلِعهم على المــشروع وكيفيّة إدارتــه ونجاحه. وأُقيمــت الجمعيــة التّعاونيّة «قوت الكادحين» وتسجّلت تحت رقم «تسعون» في دائرة التّسجيل وصادقت عليها دائــرة المؤن وعندما طلبــوا موافقة دائرة الصّحّــة، «التَزَمَت» الأخيرة بشرط موافقة الحاكم العســكري أوّلاً، بدون أي ســبب مقنع أو قانوني أو شرعي، لكنّــه بعد المماطلات والطّلبات التّعجيزيّة صادق على طلب شــيوعيّي القرية بِإصــدار موافقتــهِ على تأســيس «قوت الكادحــين» في أمّ الفحــم ومن بعده وافقت وزارة الصّحّة على هذا المشروع، المشروع. وكان مدير الجمعيّة الحاج

والرّفيق ابراهيم الحُصري. لقد كان عدد المشتركين يزيد عن أربعمائة مشترك في قرية تعد ثلاثة آلاف وخمسمائة نسمة أو يزيد، فقد تحدّى المساهمون في الجمعيّة كلّ تهديدات المأجورين وعملاء السّلطة والّتي دعتهم الى سحب أسهمهم بهدف إفشال المشروع...

لقد حاول الحاكم العسكري شلّ عمل الجمعيّة من خلال تآمره مع عملائه أو فرض الضّرائب الباهظة على السّكّان، وطُلِب من أبي البديع جمع الإلتزامات الضّريبيّة بصفته رئيس اللجنة، ومن لا يملك المال لدفع الضّرائب فليدفع بيضًا مقابل استلام مؤونة سُكّر، مثلاً. لكنّه رفض ذلك مُعلِنًا: لقد أقمنا الجمعيّة لخدمة جماهير قريتنا ولاجئيها وليس لاستغلالهم فنحن في خدمة شعبنا دائمًا ولسنا جُباة ضرائب لكم!

لقد صمدت أم الفحم وما زالت ولم تركع، صمدت ولم تخنع، صمدت ولم تهجع، ولم ترجع قيد أنملة عن حقّها بفضل شيوعيّيها ودعم شرفائها الكُثُر، صمدت ولم تُذَل فهيهات مِنّا الذّلّ.

فللأهل في عاصمة المثلّث الصّامد عرين الثّوّار ولكُلّ الأهل في المثلّث الفلسطيني ألف تحية من عروس الكرمل الاشمّ، عروس الساحل الشّامي. ولصانعي مجد وعزّة وصمود المثلّث ألف ومليون تحيّة سلام وإكبار. لنسيرَ معًا وأبدًا على هذا الدّرب، لأننا نهتدي بشرارة النّور السّاطع في الظّلمات القاتمة الّتي لا نخشاها، ليطلعَ البدر علينا من ثَنَى شمسنا وسنديانتنا الحمراء لنرى بنوره وبنّوره نصرنا الآتي قريبًا.

ربِّي اجعل هذا البلد وهذا الحزب الشّيوعي بجبهته العريضة آمنًا واجنُبنا متاعِبَ لا تُحمد عُقباها.

قُرْمِيَّة الحِزْب

وَلِدَ الرّفيق أبو يوسف، إسطفان جبران خوري في قرية الدّامون الجليليّة، الواقعة في الطّرف الشّرقي لسهلِ عكّا، عام ألفٍ وتسعِمائةٍ وثلاثين أو عام ألفٍ وتسعِمائةٍ وتسعةٍ وعشرين حيث توفى والده بعد ثمانية أشهرٍ من ولادته، وقد حوّله الاحتلال، عام النّكبة، من قرويّ آمنٍ يعيش حياته الخاصّة، يملك بيتًا وأرضًا وماشية وله أصدقاؤه وهواءه وماؤه وذاتيّته، إلى لاجئٍ في وطنه، لا يملك سوى ثيابه التي كان يلبسها في ذلك اليوم، بعد أن سلبوه كلّ شيء..
كان ذلك في الخامس عشر أو السّادس عشر من شهر تَمُّوز عام ألفٍ وتسعِمائة وثمانية وأربعين، حيث سقطت قريته بعد سقوط مدينة عكّا، على أيدي عصابات الهجناه من اللواء السّابع، في عمليّة ديكل.
ترك المدرسة، «في زمن الانجليز» بعد أن أنهى الصّف الرابع ليُعاون والدته وأهل بيته، بمعيشتهم، لأنّه إذا أراد تكملة دراسته كان عليه أن يسافر يوميًّا إلى القرية المجاورة ليلتحق بمدرستها، ولأنّ الحالة الماديّة كانت أقلّ من «على قدّ الحال» قرّرت عائلته أن يبقى في القرية ليُساعدها في فلاحة الأرض وإعالتها مع والدته.
لقد كانت الدّامون قرية عامرة ومتآخية بمسلميها ومسيحييها، وما زال أهلها إلى يومنا هذا متآخين تربطهم ببعض علاقات حميمة وأخويّة لأنّهم في الهمّ واحد، فعلاقة أهل الدّامون في كلّ مناطق الشّتات، بكلّ طوائفها قلبًا واحدًا وقالبًا متماسكًا لا تشوبه شائبة، صامد أمام عثرات الزّمن.

يعــود أصل ســكّان الدّامون إلى القائد العربي باني أوّل «دولة» في فلســطين الظّاهر عمر الزّيداني، وقد امتدّت حدود أراضيها، كما يقول أبو يوسف، من السّهل السّــاحلي غربًا (عين همفراتس وكفار مســاريك، اليوم) حتى طمرة وكابول شرقًا وفي أواخر الاحتلال البريطاني لفلســطين كان عدد سُــكّانها ما يُقــارب الألفين، عمل جميعهــم في الزّراعة واعتمدوا على ميــاه نهر النّعامين لِرَيِّ أراضيهم وعلى مياه الآبار الارتوازيّة للشّرب.

يذكر أيّام الثّورة في العام ألفٍ وتسعِمائة وستّة وثلاثين، كيف كان الجنود البريطانيّــون يُخرجون الأهالي مــن بيوتهم بحُجّة التّفتيش عــن الثّوّار وعن الأســلحة وكانوا يوقِفون الرّجال في ساحة البلد ووجوههم موجّهة إلى قرص الشّمس الحارقة كي لا يرَوا هويّة الجنود ومساعديهم من العملاء، ويُرسِلون النِّســاء إلى أماكــن العبادة، بينما يدخل الجنود مــع عملائهم بيوت الفلاحين ويُعيثوا فيها فســادًا لا يوصف من تحطيم الأثاث والعبث بالممتلكات وخلط الحبوب بعضها ببعض أو الزّيت مع السّكّر أو الطّحين مع السّكّر..

ويذكــر أيضًــا البالونات الضّخمة التي كانت تســبح في سَــماء المنطقة أثناء الحــرب العالميّة الثّانيّة لِتَمويه الطّائرات الألمانيّة التي كانت تُغيرُ على مصافي تكرير البــترول «الرِّفاينَري» وعلى مكاتب شركة النّفط العراقيّة، آي بي سي، في مدينة حيفا.

حــين دخل الصّهاينة القريــة، قام الجنود بسرقة المــواشي والدّواب والأدوات المنزليّة والممتلكات العامّة بالشّكل التّالي: رسم الجنود في الأرض خطًّا عموديًّا طويلاً، بواســطة المحراث، يصِلُ ما بين تل كيسان جنوبًا ومنطقة العيّاضيّة شــمالاً، ومنعوا أهل الدّامون اجتياز الخطِّ غربًا بينما سَــمَحوا لهم باجتيازه شرقًــا إلى ما وراء حدود فلســطين، ســوريا ولبنان، وحــين أدرك أهل القرية الخطر، أرســلوا النّاطور رافعًــا الرّاية البيضاء للمفاوضــات من أجل إعادة

السّكّان إلى ديارهم وإطلاق سراح المواشي.
يقول أبو يوسف: «كانت لنا أرض في منطقة الكُرداني، كُنّا قد زرعناها قمحًا وحين سـقطت قريتنا، حُظِر علينا الحصاد هنـاك، لكنّ الجوع قتّال فذهبنا للحصاد ليلاً على أن نذرّي الغلال ونضُبَّ الحبوب نهارًا».
وبعدها أوكلَتْ العائلةُ الشّابَّ، إسطفان، بتحميل الحصاد على الجمال ونقله شرقًا إلى أقربائهم في سـخنين، التي لم تكن قد سـقطت بعد، خوفًا من العوز والجوع والتّشريد أو حـدوث شيء ما لا تُحمد عُقباه خارج عن إرادة العائلة وليكون لهم ما يأكلونه، حيث قام بعمله على أحسن وجه ونفّذ الخطّة كاملة، ويذكـر أنّه في طريقه إلى سـخنين رأى ثـوّار البروة الأبطال كيـف يُحرّرون قريتهـم بعـد أن احتلّتها العصابـات الصّهيونيّـة، لكنّها سـقطت في أيدي العصابات ثانية.
ويذكـر أنّه رأى كيف أصابـت الرّاجمات إصابة مبـاشرة ابنة خليل أبو علي حيث استشـهدت وهي طفلة في بُرعم عمرها «..كانـت طفلة تصنعُ غدها،.. سقطت، لكن دمها كان يُغنّي».
بعـد سـقوط الدّامون لجـأت عائلة جبران خـوري مع بعـض النّازحين إلى شـفاعمرو التي تبعدُ عن مسقط رأسـه بُعد مرمى حجرٍ يرميه راعٍ متمرِسٌ في رمي الحجارة ليجمع دوابه وماشـيته سويَّة ليبقَوا تحت رقابته. وقد نزح إليها أيضًا المئات من القرى المجاورة من ميعار وهوشة والكساير وصفّورية..
«حضرت والدتي إلى وادي سلامة حيث اختبأتُ هناك ما يُقارب الأربعين يومًا مع الدَّواب والمواشي التي كنت قد بعتُها بعد سقوط الوطن أملاً في أن أجد ملجأً لي في وطنٍ ما، وراء الحدود، لكنّ والدتي أرجعتني وحمتني من اللجوء فقلب الأمّ دائمًا على ولدها مهما كبُرَ وشـابَ شـعره». وعنـد عودتهما، إعترضتهما دوريـة من جيش الإنقاذ عـلى مقربة من كوكب أبو الهيجـاء فأوقفهما قائد

الكتيبــة «على ما أظنُّ أنّه كان من بلاد الحجاز» حيث حثَّهما على الهروب إلى وادي ســلامة إيابًــا ومن بعدها إلى لبنان لأنّهما إذا لــم يفعلا ما أملاه عليهما ســيُعتبران من الخونة، لكنّهما رفضا أوامره وناما في القرية المضيفة، وحين عرف مختار البلدة بالموضوع سار إليهما ليلاً وقام بتهريبهما إلى منطقة قرب قرية عبلّين، وعادا إلى قريتهما، الدّامون، ووجدا أنّها قد سقطت و»النّاس قد هَجَّت» وأنّ الرّاجمات قد دمّرت بيوت القرية ولم تُبقِ حجرًا عامرًا على حجرٍ عامرٍ، وبقيت شــواهد المقابر صامدة، وحدها، في وجه القصف، ترجو القمرَ أن يظلّ بدرًا ليضيء في العتمة أمام الثّوّار ليروا طريق عودتهم ولأنّ الشّواهد ستشهد للاجئين العائدين إلى قريتهم أنّها موجودة ومزروعة في الأرض وأنّها أقوى من العساكر والطّاغوت والتّدمير وأن القرية باقية مهما صار..

وســكن مع عائلته شفاعمرو، التي تبعدُ عن مســقط رأسه بُعد مرمى حجرٍ يرميه راعٍ متمرِسٌ في رمي الحجارة، ليجمع دوابه وماشــيته ســويَّة ليبقَوا تحت رقابته. وبدأت عمليّةَ إحصاء السُّكَّان.

يقصُّ لي والدي أبو خالد عن أحدِ أبناء شــفاعمرو الكبار في السِّنِّ كيف تمّت عمليّة إحصاء السُّكَّان:

«كان يجلس شــخصٌ عنــد باب الحاكم العســكري وقت إحصــاء النّفوس، «صديــق الحاكم»، وحــين كان يدخل إنســان ما السّرايا، يضرب الشّــخصُ بعــكّازه على الأرض ضربة أو ضربتين ليُشــيرَ للحاكم نوعيّــة داخلِ المكتبِ، فإن ضرب ضربتين تكون الإشارة بأن الدّاخل متعاطف مع الثّوّار فيُحرَم من التّســجيل ويُزَجُّ به داخل السّجن «للتّحقيق والأسئلة ووجع الرّاس والتّوقيع على اســتماراتهم»، ومن كان من زمرتهــم كان يضرب بعكّازه ضربة واحدة لتسجيله في سجلّ الإحصاء ويُعفى عنه، وحتى يُبعِد الشّكّ عن نفسه، ضرب بعُكّازه مرّتين حين دخل أبناؤه المكتب للتّسجيل، لكنّ الحاكم كان قد أعطى

أمره بتحرير أبنائه دون أن ينتبه المعتقلون لأوامره..»

لقـد تعرّف اسـطفان خوري على الشّـيوعيّين في شـفاعمرو، وعرف قوّتهم ونضالهـم وشـجاعتهم وعدم خوفهـم في المظاهرات والمجابهـات والتّصدّي للتّرحيل وتوزيع المناشير المُحرِّضة على النِّظام الظّالم ومن أجل كرامة وشرف الشّـعب كذلك عرفهم من جريدة الاتّحاد التي يعشـقها ولهـا في قلبه مكان خـاصّ لأنّها كانت معلّمـه الأوّل، وكما قال: «عرفتُ فكّ الحروف حين أنهيتُ دراسـتي وأنـا في الصّفّ الرّابـع، وكنت أرفع عـن الأرض كلّ قصّاصة ورق كـي أقرأ ما فيها حتى لا أنـسى القراءة». وتابع يقـول: «تعرّفتُ على الرّفاق وجريدتهـم «الإتّحاد» التي كانت بالنِّسـبة لي مدرسـتي الابتدائيّة والثانويّة والجامعيّـة، فهي التي ثقّفتنـي وعرّفتني على الحياة وآدابهـا ومنها تعلّمتُ الحروف المقاومة وبإتقـان..» فكَبُرَ معها وكَبُرَت مَعَهُ وَبِهِ وأخلص لطريقها ومـا زالَ مُخْلِصًـا لهـا إلى يومنا هذا ويقرأهـا يوميًّا مع كلِّ إطلالة شـمس الصّباح من الصّفحة الأولى إلى الأخيرة حتّى الأبراج الّتي لا يؤمن بها، يقرأها، منتهيًـا بقراءة كلمة صبـاح الخير، التي تكون فاتحة نهـاره الذي لا يكتمل دون الجريدة. وإن تأخّرت يومًا «أبقى حائصًا ولائصًا في جنبات البيت حتّى تصـل» ومُنذ بدايـة ربيعه الحزبيّ وهـو يوزّع صحيفة الإتّحـاد حيث كان يوزع حوالي ثمانين عددًا أي أنّه كان يدخلُ ثمانين بيتًا. وقد وصفه أحد قادة حزبنا البارزين أنّه «قُرْمِيَّة الحِزْب» في شفاعمرو، هذا الشّيوعي حتّى النّخاع بَقـيَ على العهد مُناضِلاً صامِدًا رافِعًا الرّاية الحمراء الخفّاقة من أجل وحدة وتقدّم وتوسـيع صفوف الحزب بجبهته العريضة ومـن أجل عودته وعودة أهله وشـعبه إلى الدّامون والبروة وصفّورية وسحماتا وام الزّينات وكفر لام وإجزم وفرّاضية وميعار..... وهذه مرحلة من مراحل عملنا الدّؤوب ونشاطنا المتواصل لنصل بعدها إلى شـاطئ الأمان، شاطئ الرّفاه الاجتماعي والعدالة

الاجتماعيّة والمُساواة.

تلك الرّاية التي لم يُسقِطها قطّ، بل بقيت مرفوعةً عزيزةً حيث أودعها لأبنائه وأحفاده ليرعوها سـويّة، راية الأب والابن والحفيد والرّوح الشّيوعيّة، أربعة أقانيم تشكّل وحدة واحدة غير منفصلة أو منفصمة.

يقول الرّفيق أبو يوسف: «لقد رفعت الاتحاد صوتنا، صوت العمّال والفلاحين والمُضطهديـن واللاجئـين في وطنهم وفي الشّـتات وقد قامـت بإيصال كلمتنا إلى أعلى المراكز الرّسـميّة حيث كانت السّـبّاقة بنشر أخبـار معاناتنا وفضح مجازرهـم وحثّنا على الصّمـود والمثابرة في النّضال من أجل المسـاواة وعودة اللاجئـين ومن أجل السّـلام العـادل، إنّ «الاتّحاد» هي الخبز والمـاء والهواء والدواء والحياة». كذلك رعت الحركة الأدبيّة المقاومة في فلسطين منذ نشأتها.

يذكـر الرّفيق أبو يوسـف كيف أنّه في أوائل الخمسـينيات حاربت الكنيسـة بكلّ الوسـائل، الشّـيوعيّين، حيث منعت إعطاء حلّة الـزّواج لأعضاء الحزب والشّـبيبة فمنهم من وقف على حدِّه ومطلبـه إلى أن حصل عليها ومنهم من انتقـل إلى طائفـة أخرى كي لا يتنازل عن انتمائـه لحزبه وإخلاصه لمبادئه. كذلـك حاربتهم الحركـة الصّهيونيّة والرّجعية العربيّـة المحليّة والحكومات الاسرائيليّة المتتالية.

انضم الرّفيق أبو يوسـف إلى الحزب الشّـيوعي عام ألفٍ وتسـعِمائة وتسعةٍ وأربعين، بعد النّكبة بسنة، مع أنّه تربّى في بيت دينيٍّ ولأخت راهبة «فعُمري الحزبي الآن هو ستون عامًا وعمر حزبي تسعون عامًا».

لقد كان للمنفيَّيْن واللاجئيْن إسماعيل المدهون (من مجدل عسقلان) وإبراهيم الفحمـاوي (مـن إمّ الزّينات) المسـاهمة المتواضعة في بنـاء الحزب في مدينة شـفاعمرو، حيث نُفيَ الأخير بعدها إلى طمرة وقد ساهم هناك في إقامة فرع للحزب وطُرِد لاحقًا من سلك التّعليم بسبب مواقفه وانتمائه.

«بـدأتُ بتوزيع جريـدة «الاتّحاد»، كلمة الحزب والجماهـير، حيث أنّ عمليّة التّوزيع لم تكُن سهلةً، وأذكرُ أنّ أعضاء الكشّافة قاموا بمهاجمتي للنّيل منّي وإرهابي وترهيـبي ولمنعي مـن توزيع الجريدة إلا أنّ الحمايةَ التي تلقَّيتها من النّساء في حارة المسلمين حالت دون ذلك، إذ هجمنَ على المعتدين بالمكانس والصّرامي وفرّوا هاربـين مذعورين، وتابعتُ توزيعها دون خوف أو وجل.. عندما كنّا ندخلُ بيتًا لبيع الجريدة، كنّا نتناقش مع أهله في مواضيع ومواقف حزبيّـة ودوليّة ومحليّة، ونرفع من بعدها مشـاكل النّـاس إلى هيئاتنا العليا لإيجاد حلّ أو مسـاعدة في تدبير أمر ما أو حتّى في كتابة رسـالة ما إلى الجهة المعنيَّة..وكنّـا ندفع أحيانًا ثمن الجريدة من جيوبنا إذا لم يكن في البيت ثمن الجريدة، المهم أن تقرأ جماهيرنا كلمة حزبنا».

ظهرت أزمة المياه في شـفاعمرو عام ألفٍ وتسـعمائةٍ وثلاثةٍ وخمسين، حيث كان أهـل المدينة وقد كان عددهم في حينه خمسـة آلاف مواطنٍ يشربون من آبارها التي كانت شـحيحة ومن المياه التي كانت تُنقل في خزّانات كبيرة من كُفْرِتَّـا وتُفرّغ في بئر السّرايا لِتُضَخّ منه إلى بيوت النّاس. حينها قرّرت وزارة الزّراعة منح البلديّة قرضًا لحفر آبار المياه وعندما بدأ الحفر في أرض البلدة تدفّقـت المياه بغـزارة فائقة، الأمر الـذي دفع الوزارة وشركـة مكوروت إلى سـدّ فتحة الضّخِّ إلى إشـعارٍ آخر، وبعد حوالي سـنتين أتى مسؤول الشّركة باقـتراح يُفيد جمع رسـوم حفر من كلّ فرد في العائلـة لصالح الشّركة لأنّها الوحيـدة صاحبة الامتيـاز، الأمر الذي دفع الرّفاق الشّـيوعيّون إلى تحريض أهل البلـدة ضدّ هذا المـشروع الحكومي حيث بـدأت الاجتماعات في منطقة السّـوق والحارات الأخرى والدّعـوة إلى أنّ من يحقّ له اسـتثمار الحَفْرِ هي البلديّة وليـس شركة مكوروت لأنّ المياه هي مياه شـفاعمرو ومن الطّبيعي أن تكـون بلديّة المدينة هي الوكيلـة الوحيدة، وصاحبة الامتياز لهذا الغرض

دون منازع.

حـين وصل خـبر التّحريض للحاكـم العسـكري، أمر باعتقـال ثلاثة رفاق من رفاق شـفاعمرو، شفيق خوريّة، شـحادة نجّار واسطفان خوري الذين أَوفدوا مندوبًا، أبا يوسف، إلى قيادة المنطقة في حيفا حيث اجتمع مع الرّفيق زاهي كركبي وبنينا فاينهاوز في مقر الحزب في شـارع هرتسل وكان القرار العصيـان على قرار الحاكم العسـكري «عدّتُ وأبلغتُ الرّفـاق بالقرار وعند اعتقالنا طُلِب منّا أن نُسلِّم تصاريح العمل التي بحوزتنا ليمنعونا من العمل، بهدف تجويعنا، فقال لهم رفيقنا شفيق خوريّة الذي فُصِل من سلك التّعليم بحجج واهية لكنّ السّـبب كان واضِحًا له، وهو انتماؤه لحزبه وشعبه:»لقد أضعـتُ التّصريح منذ زمن بعيد» الأمر الذي شـفع له حيث وأطلقوا سراحه وبقيـتُ في الأسر مـع رفيقي شـحادة نجّـار. كان طلب الاعتقـال موقّع من الضّابـط حنّـا حـدّاد فقد «جلسـتُ في غرفـة التّحقيق وظهـري إلى الحاكم العسـكري ووجهي إلى الضّابط حنّا وحين طلب منّي الحاكم تصريح العمل لـم أجبه وقال لي الضّابط حنّا: لماذا لا تجيب على أسـئلة الحاكم فأجبته: إنّ الـذي دعاني للتّحقيق هـو أنت وليس هو. ورفضْتُ تسـليم التّصريح نزولاً عنـد قرار الحـزب الذي اتّخذناه في حيفا. وزجّوا بنا في سـجن الجلمة، حيث زارنـي الرّفيق زاهي كركبي وأدخل معـه، سِرًّا، صحيفة الاتّحاد وكانت أغلى وأثمن شيء حصلتُ عليه في المعتقل. وعند وقوفنا صباحًا في سـاحة السّـجن لإحصائنـا، رفع الضّابط يده لضربي بعد أن وجد الصّحيفة معي، فمسـكت يده بقوّة وأردْتُ انتزاعها من مكانها حتّى لا تسـوِّل له نفسه ثانيةً بالتّمادي عـلى كرامتي وعندها ذقتُ حلاوة الصّمود ومرارة الزّنزانة والتّعذيب والمهانة التي لم تزدني إلا عنفوانًا وصبرًا وروحًا ونَفَسًا طويلاً للتّحدّي وإصرارًا على وجوب هزيمتهم».

لقـد نقلوا اسـطفان خوري إلى عدّة سـجون منها الجلمة، عكّا، شـفاعمرو، والدّامون الواقع على سفوح الكرمل، خوفًا من إقناع المساجين بخطّ الحزب، «حتّى أسْرنـا يُرهِبُهم ويُخيفُهم! وأُطلق سراحنا بعـد تدخّل رفيقنا محامي الأرض حنّا نقّارة.

بعد مدّة اعتقلت الشّرطة في مدينة عكّا الرّفيق أبو يوسـف لعدم حيازته على تصريـح فحُكم عليه بدفع غرامة قدرها ليرتين ونصف أو السّـجن، وأعطوه مهلـة يوم واحد لدفعها، فكيف له أن يتدبّر أمره وهو الغريب لا يعرف أحدًا في عـكّا يُديِّنه المبلغ، لكنّ الصّدفة خـيرٌ من ألف ميعاد إذ التقى بابن الحلال الدّاموني، صالح أبو علي أبو إدريس، في السّوق وأعطاه المبلغ ودفعه للمحكمة وهكذا تحرّر أبو يوسف.

هـذا الظّلـم والإجحاف لم يُثنِ ولـن يُثني رفاقنا عـن طريقهم وعن زخمهم النّضالي العنيد، المعطـاء والمُثابر، لأنّهم يداومون، بثبات وقناعة لا مثيل لها، على اسـتمراريّة الطّريق الصّادق، والنّهج النّاجـع مهما عصفت رياح الظّلم والاحتلال البغيض والاضطهاد والسّجن والتّعذيب.

لا أقدر أن أنهي مقالتي هذه بدون أن أتطرّق إلى يوم الأرض الأوّل وإسـهام أبي يوسف في هذا اليوم، حيث كان يعمل في كيبوتس ساعار مع زميله يوسف سـويد من قريـة البقيعة، أبو علي، حيـث كانوا يُنـادون الأوّل بممثل راكاح والثّاني بممثل منظّمة التّحرير. وحين دعا حزبنا الشّيوعي إلى الإضراب العام بعد اجتماع شـفاعمرو التّاريخي والذي فيه أعلن خالد الذّكر توفيق زيّاد أنّ القرار للشّـعب وليس للرّؤسـاء، الذين حاولوا إفشاله بناءًا على توصية كينغ إيّـاه، تجنّد رفاقنا لإنجاح الإضراب وحين رأوا في الكيبوتس أنّ الإضراب كان ناجحًـا ولم يأتِ أحد للعمل عرفوا من هو «زنبرك الحركة»، فنظّم رفيقنا أبو يوسـف حسـب طلب الكيبوتس ندوة برئاسة القسّ شـحادة شحادة رئيس

لجنــة الدِّفــاع عــن الأراضي وانتهت النّدوة بنجــاح الأمر الذي لم يســتلطفه مســؤول الكيبوتس حيث كان ردّهم طرد الرّفيق اسطفان من العمل بعد أن وعدوه بزيارة لإقامة ندوة مماثلة في مدينة شفاعمرو، الظاهر.

وسيبقى رفيقنا اسطفان خوري، المعروف في شفاعمرو باسطفان الشّيوعي، دامــت لنا صحّته وعافيتــه، رافعًا الرّاية الحمــراء بمطرقتها ومنجلها إلى أن يبــزغ فجر النّصر الآتــي ويتحقّق السّــلام العادل ويُدحــر الاحتلال ويعود اللاجئون إلى قراهم ومدنهم ويعود أبو يوســف، إسطفان جبران خوري، إلى قريته، الدّامون، ويعمل فيها ما يشــاء، ويذهب أينما شــاء ويزور قبر والده متى يشــاء، ليضع عليه زهور الفلّ والياســمين والقندول المقطوفة من سهل عــكّا الشّرقيّ بعد غيــاب قسري طال أمده ويغســل الضّريح مــن مياه آبار الدّامون أو من مياه نهر النّعامين كما يشاء.

وللمتطاولــين عــلى تاريخنا الشّريــف والمُشرِّف استشــهد بما قالــه الرّئيس الجزائــري أحمد بــن بِلاّ في مذكّراته ص 164: إنَّ عداء الشّــيوعيَّة سياســة خطرة، ويجب أن أضيف بأنّي على الصّعيد الإنســاني أشــعرُ باحترام عميق للمناضلين الشّــيوعيّين. إنّهم يثيرون إعجابي لأنّهم تجرّدوا من ارتباط بعالم المصالح الشّخصيّة الصّغير والحقير. ولأنّه لا المال، ولا النّجاح، ولا المناصب، لا شيء من كلِّ هذا يُحســب له حســاب عندهم. ولأنّهم مســتعدُّون للتّضحية بكلِّ شيءٍ بما في ذلك حرِّيتهم وحياتهم نفسها في سبيل مثلهم السّياسي الأعلى. وبهذا الخصوص أشعر بأنّي جدّ قريب منهم.

ولنُردِّد معًا:

بِجُمُوعٍ قَوِيَّة هُبُّوا لاحَ الظَّفَر
غَدُ الأُمَمِيَّة سَيَشْمَلُ البَشَر

وَبِدُونِهِم لا أَكُونُ شَيْئًا

الرّفيق صالح إدريس مصطفى تيتي، أبو إدريس، وُلِد في العشرين من شهر كانون الثّاني عام ألفٍ وتسعِمائة وثلاثة وثلاثين، قرية البعنة، الجليل. منحه والده الاسم صالح تخليدًا لاسم عمّهِ الشّهيد الذي لا يعرفه، فقد كان أوّل شهيد من القرية، قُتل دفاعًا عن البلاد في معركة مع جندرما الباب العالي، بعد أن كان فراريًّا. بعدها بثلاثة أعوام توفى والده، كان ذلك في عامَ ألفٍ وتسعِمائة وستّة وثلاثين إثرَ مرضٍ.

يذكر من ثورة الستّة وثلاثين أشياءَ حُكِيَت له وعلِقت في ذهنه أو أنّه يحملها في ذاكرته منذ أن كان طفلاً ابن الثّلاث سنوات..

أنهى الصّفّ الثّاني ابتدائي، في مدرسة مجد الكروم حيث أُقفِلت مدرسة القرية بعد حادث قتل المواطن يعقوب خازن.

كان أخوه خالد مناضلاً، حارب مع الثّوّار وشاركهم في عدّة معارك ضدّ العصابات الصّهيونيّة في منطقتهم، منها معركة الليّات والبروة.

يذكر رفيقنا صالح أنّ بعض الجنود من جيش الإنقاذ اعتدوا على الفلاحين وعلى نسائهم، فلم يهُن الأمر على أخيه خالد فقام برميهم بقنبلة يدويّة لم تنفجر فقاموا بتطويقه واعتقاله ولكنّ الضّابط أفرج عنه بعد أن عرف القصّة.

ويعيش أخوه خالد اليوم في كندا..

«كان عمري في عام النّكبة خمس عشرة سنة، حيث كنت أشتغل عند حنّا بولس في تصليح أسلحة قيادة جيش الإنقاذ التي أخذت من قرية مجد

الكروم مركزًا لها وتقديرًا لأبـي حنّا ومجهوده الكبير وتضحيته، قام الحاج أمين الحسيني، مفتي الدِّيار المقدّسة، بإهدائه بندقيّة».

يتذكّـر رفيقنا أبـو إدريس قائدَه التُّركي، من جيش الإنقاذ شُـعبة سـوريا، صـلاح الدّيـن مورالِّي، بعـد أن تعرّف عليـه في لبنان عندما كان يسـافر إلى هنـاك مع المناضل حنّا بولس لاقتناء قطع غيار للأسـلحة. لقد كان الضّابط التُّركـي مقاتلاً ذا بأسٍ حيـث ردّ على قائده القاوقجـي، مُعارضًا أمره، بعد أن طلـب منه الانسـحاب قائلاً:»أعطني أوامرك وأدخـل مدينة عكّا لأُصلِّي في جامع الجزّار»، ولَم يُطِعه بل اسـتمرّ في الزّحف إلى عكّا لكنّ القاوقجي أصرّ على أوامره فما كان من المقاتل صلاح الدّين مورالّي إلا الانسـحاب قائلاً: «أنا بـدّي أعمّر لبلاد اللي بدها تخرّبها صحابها». ويُعقِّب أبو إدريس على روايته قائلاً: «وبعد ذلك رَفَّع الملك عبد الله القاوقجي من بيك إلى باشا، حيث كانت الخيانة مدبّرة مع الحركة الصّهيونيّة والاستعمار والرّجعيّة العربيّة، الثّالوث الدّنس، لتسليم الجليل».

نزح إلى لبنان ومنها إلى سـوريا، بعد سـقوط فلسطين، و»تسـلّل» عائدًا إلى وطنه مرّةً واحدة، وأُعيد إلى ما وراء الحدود بقناعة تامّة أن يعود إليها لاحقًا، فعـاد إليها مع أهله بموجب قانون لَمِّ الشّـمل، بعـد النّكبة، في العشرين من شهر كانون أوّل من العام ألفٍ وتسعمائة وتسعة وأربعين.

وعند نقطة الحـدود في رأس النّاقورة أرادوا إرجاع صالح إلى لبنان لأنّه بالغ وعليـه أن يكـون لديه تصريـحٌ خاصٌّ به بسـبب جيلـه، إلا أنّ صبيّة كانت ترافقهم واسمها حنّة خوري شهدت أمامهم أنّ هذا الشّاب صالح كان أصغر منها بسنة واحدة حيث كان «أوطى منّي بصفّ في المدرسة» وصدّقوا كذبتها البيضاء وبعدها دبّر الرّفيق رمزي خوري الهويّة بعد أن صادق عليها مختار البلدة إبراهيم بشارة.

أنضمّ إلى صفوف الحزب الشّـيوعي في سـنوات الخمسين بعد أن أوصى عليه الرّفيق يعقوب الياس، أبو سهيل.
يُرفّع الرّفيق، حسـب الدّسـتور، من الشبيبة إلى الحزب بتوصية أحد الرّفاق. أمّا إذا طلب الانضمام إلى الحزب مباشرةً، عليه أن يمرّ فترة تجريبيّة، لاختبار صدق الطّلب وإخلاص وصمود طالب الانتساب، بعد أن يسألوا عنه..
«كنـت أجلس كثيرًا في مجالس الشّـيوعيّين وكلامهـم كان صحيحًا ومعقولاً ويُعبِّـئ الرأس وأعجبني لدرجة أنّنـي أردتُ أن أصبح مثلهم. أنهيت الصّفّ الثّانـي ابتدائي، لكنّ صحيفة الحـزب الاتّحاد واجتماعـات الخلايا علّمتني القـراءة والكلام والنّقاش والجدال والإقنـاع والصّبر، حيث كانت اجتماعاتنا أسبوعيّة مرّة تنظيميّة وأُخرى سياسيّة وكان علينا التّحضير للبيان السّياسي ونأتي لنتناقش فيه في الاجتماع..»
لقـد رأى الرّفيـق صالح كيـف احتلّ الشّـيوعيّون أرض الكسـارة في البعنة التـي كان جميع عمّالها مـن اليهود حيث تدخّلت الشّرطـة واعتقلت رفاقنا الذين كانوا يهتفون بالعبريّة، في سـيّارات الشّرطة والمعتقل «الخبز والعمل» وبعد مبادرة من مؤتمر العمّال العرب، حيث كان تنظيمًا شـيوعيًّا بعد نكبة فلسـطين وتتمّة للحزب الشّيوعي الفلسـطيني وعصبة التّحرّر، لترتيب عمل العرب هناك سـمحوا بإدخالهم إلى العمل في الكسّـارة التـي تقع على أرض بلدتهم.
ويُتابع أبو إدريس: «اشـتغلْتُ في صبّ الحديد، في منطقة خليج حيفا، حيث كان عـليّ طلـب أو تجديد تصريح العمل كلّ يومين وكانـت الشّرطة، على ما أذكـر، تدعنا ننتظر في طقّة الشّـوب تحت رحمة أشـعة الشّـمس الحارِقة، سـاعات وبعدها كانوا يعطون التّصاريح لشـخصين أو أكثر آمرين الآخرين بالعودة في اليوم التّالي».

وحين زرتُ أبا إدريس، مع والدي إبراهيم تركي والأستاذ اسكندر عمل، في بيته العامر في قرية المكر، قام بعرض صورة يعتزّ بها كثيرًا وهي صورته مع الرّفيق الشّاعر منصور الياهو (من الرّفاق اليهود العراقيّين) في غابة الجيش الأحمر وهنا يتذكّر والدي، أبو خالد، هذا الاسم ويتذكّر حادثة كانت مع رفاق شبيبة حيفا حين وزّعوا أدبيّات الحزب في منطقة «محني دافيد»، الواقعة في الجهة الغربيّة لمدينة حيفا، مقابل شاطئ العزيزيّة، فاعترضتهم ثلّة من شباب من اليهود الشّرقيين اليمينيّين حيث أرادوا منعَ رفاقنا من توزيع أدبيات الحزب هناك، وإذ بشباب من اليهود العراقيّين، وكان بينهم الرّفيق إلياهو منصور، يُنقِذون الموقف حين رأوا على صفحة غِلاف مجلّة الغد صورة للقائد السّوفييتي ستالين، فبدأوا يهتفون بحياة الرّفيق ستالين بأعلى حناجرهم، يعيش الرّفيق ستالين، واشتروا الصّحف وأيضًا اهتمّوا بمعرفة مكان ومقرّ الحزب في حيفا، لزيارته والانخراط بصفوفه. وهذا شيء معروف عن غالبيّة اليهود العراقيين بآرائهم اليساريّة وثقافتهم الواسعة وأكاديميّتهم. لكن الدعاية الصّهيونيّة وإغراءاتها ومضايقاتها وتعسّفها حيالهم حيث اعْتُبِروا خونة لأبناء «قومهم»، كانت أقوى من الثّبات على موقفهم. وحالت دون استمرارهم في الطّريق الّتي بدأوها هناك، بعد أن أعمت الصّهيونيّة أبصار غالبيّتهم.

لقد حرّضوا على شيوعيّي وطننا، من خلال صوت العرب من القاهرة، بعد انتصار ثورة تمّوز الوطنيّة بقيادة عبد السّلام عارف بأن الشّيوعيّين في العراق قد مزّقوا القرآن، وأنّهم «بعجوا» بطون الحوامل بعد أن تراهنوا بينهم إن كانت حاملاً بذكر أو أنثى، وكان رجل المخابرات أبو خضر بوق هذا التّحريض في منطقة عكّا وقاد اعتداءً على رفاقنا حين وزّعوا جريدة الاتّحاد هناك، لكنّهم تعلّموا درسًا وحفظوه وأُوْقِفوا عند حدّهم الذي لا يعرفونه..

يكتب الشّاعر إلياهو منصور، ويسكن الآن في جبعتايم، تل أبيب:

طوبى لمن عرف حدّه، فوقف عنده
بالغ في النّظر
قضى وفصل
ردّ ومنح
تمسّك بالكلام الموافق للحقّ

فتوصّل إلى صواب الأمر وسداده. (مجلّة الإصلاح، شهريّة مستقلّة للأدب والتّوعية والإصلاح، العدد الرّابع، المجلّد الثّامن، الصّفحة السّادسة).

انتقل الرّفيق أبو إدريس للسّكن في مدينة عكّا في شهر تشرين الثّاني من العام ألفٍ وتسعِمائة وخمسين، حيث كان على المواطن العربي إن أراد الانتقال من عكّا العربيّة إلى خارج أسوارها إصدار تصريح بالانتقال، فقد كسر الشّيوعيّون هذا القانون، حيث قاموا بمظاهرة جبّارة دعوا فيها كلّ عرب عكّا للمسيرة إلى النّقطة الفاصلة حيث عبروها ومنذُ ذلك الحين أُلغيت التّصاريح..

ويذكر مشاركته في مظاهرة الطّحين التي نظّمها الحزب الشّيوعي، منطقة عكّا، بالاشتراك مع حركة النّساء الدّيمقراطيّات هناك وذلك بعد أن انقطع توزيع الطّحين ووزّعوا مكانه خبز إفرنجي، فقامت المظاهرة تحت شعار «بدنا خبز بدنا طحين» وهناك من نادى «بدنا ليحِم بدنا طحين» ومن بين الرّفيقات اللواتي شاركن المظاهرة وصحن بأصواتهم العالية في هذا النِّداء الأوّل: نفيسة عجمي مباركي، ابتهاج خوري، سلوى موسى، نجيبة غطّاس وعريفة صفدي وغيرهن..

يروي أبو إدريس قصّته مع أسلوب المخابرات العفن لتشويه صورة رفاق الحزب فقال: «رجعتُ مرّةً من البعنة إلى عكّا ليلاً، وكما تعلمون أنّ حركة

السّــير لَم تكن كما هي اليوم نشيطة، وعندما كنتُ واقفًا انتظر، وإذ بسيّارة تاكــسي تقف بقربي وســألني ســائقها محمّد حســن بشر: إلى أين إن شــاء اللــه فقلت لــه إلى عكا، فقال لي: إركب! وكان في السَّــيَّارة رجل المخابرات بن يتســحاق مسافرًا معه، وعند وصول سيّارة الأجرة إلى قرية مجد الكروم قال لي بن يتســحاق إحنا واصلين بسّ لهون، حتّــى أنزل في مجد الكروم ويراني أهلهــا مع المأفون بن يتســحاق وروح إثبت أنّك بريء من كلّ إثم.. وعشــان النّاس تشوفني بالليل راكب مع المخابرات ويتّهموني بالعمالة».

بعد أن توفّى الزّعيم الرّاحل جمال عبد النّاصر في شهر أيلول عام ألفٍ وتسعمائة وسبعين جابت جماهير عكّا شوارعها بقيادة الحزب الشّيوعي، جنازة رمزيّة، وحين وصلت المســيرة جامع الجزّار وإذ بالعملاء يرمون البوليس بالحجارة حتّى يكون للمخابرات سببٌ للتّدخّل، فكما يعملون اليوم في مظاهرات بلعين وغيرها، ويظهرون للرّأي العام كم أنّ الأمر لا يليق بجماهيرنا التي لا تعرف أن تتظاهر بشــكل ســلميّ .. لكنّ الشّرطة اســتغلّت الحدث واعتقلت الرِّفاق وســجنتهم في ســجن الجلمة لعشرة أيّــام ويذكر رفيقنا أبــو إدريس الرّفاق الذين اعتقِلوا معه وهم: رمزي خوري، أحمد أبو شــنب، سخي جريس، فهد بشتاوي، فخري بشــتاوي وجورج كومبانيو وخير عامر ورمضان خاسكيّة وغيرهم وفي المحكمة وقف العملاء «وشهِدوا علينا بدون خجل».

يذكــر رفيقنا صالح أن أبناءه كانوا يوزّعون صحيفــة الاتّحاد في مدينة عكّا سرًّا، حيث كانوا يضعونها في سلّة من القشِّ وكأنّهم ذاهبون/ راجعون من/ إلى السّــوق ومن فوقها بعض الخضار. فقد حــدث مرّةً، أن ذهب مع الرّفيق إبراهيم بولس، أبو يعقوب، لتوزيع جريدة الاتّحاد على العمّال في قرية نحف، و»كانت لُغتي العبريّة على قدٍّ أقلٍّ من حالي»، وســارا على الأقدام على الشّارع الرّئيسيّ وإذ بســيّارة بوليس تقف بجانبهما ويطلب منه الرّفيق أبو يعقوب

«تحكيـش ولا كلمة»، وحـين رأوا صحيفة الاتّحاد معهما قامـوا باعتقالهما وزجّهما في سـجن عكّا، حيث طلبـوا منهما تنظيف الكـراج فرفضا، فقالوا لهما «بدكوا تنظفوا الإسـطبل» فرفضا، «وأنا لَم أستلم هويّتي بعد»، ويتابع حديثـه «..بس مش مفرقة معي» وجاء الضّابط بعصاه الغليظة وهوى فيها على المعتقلَيْن بدون رحمة وبدون «كلمة آخ .. صمدنا وحرّرنا محامي الأرض حنّا نقّارة وأنشدنا بعدها نشيد إتّحاد الشّباب الديمقراطي العالمي»:

نَحْنُ شِدْنَا المَعَالِي وَسَنَبْنِي حَيَاةَ السَّلام
نَحْنُ أُسْدُ النِّضَالِ وَحَّدَتْنَا الأَمَانِي العِظَام
فَشَبَابُ البِلادِ هُمُ رَمْزُ الجِهَادِ
أَشْدُوا وَشِيدُوا يَحْلُو النَّشِيدُ
لَحْنَ الهَنَا هَيَّا

يُتابـع أبو إدريس حديثه: «ماكنتش تشـوف غير الشّـيوعيّين على السّـاحة النِّضاليَّة».

بعد أن اقترف حرس الحدود جريمة قتل نكراء، عام ألفٍ وتسـعمائة واثنين وسـتّين، بحقّ خمسـة شـباب من العرب أرادوا عبور الحدود إلى مصر لكي يُتابعوا دراستهم الجامعيّة هناك، جابت في شوارع الوطن مظاهرات استنكار للجريمة في حيفا وعكّا وسـخنين والنّاصرة..واستجابت عكّا لنداء الحزب في التّظاهر حيث شارك فيها الطّلاب والأساتذة والعمّال والفلاحين، «وأذكر من بين المتظاهرين الأسـاتذة جريس طنّوس، د. إدوار الياس ويعقوب حجازي وقاسـم بكري، ومن الطُّلاب أذكر: أديب أبو رحمون، مكرم خوري، تيسـير خاسـكيّة وموسى سخي جريس، وقد قمنا، مع الرّفاق يعقوب الياس وموسى مرعب وسـخي جريس بالتّجنيد يومـين لإنجاح المظاهـرة فكانت المظاهرة صاخبـة على قدر الحادث الجلـل.. وأُصيب الرّفيق فخري بشـتاوي بجراح

أليمــة واعتقِل غالبيّة الرّفاق الذين وردت أســماؤهم أعــلاه، وقام بتحريرنا مــن المعتقل محامــي الأرض أبو طوني، حنّــا نقّارة بالتّعــاون مع المحامين فايتسمان ورورديتي وميلامد وفاكســمان وكان رجل المخابرات بن يتسحاق إيّــاه يهدّد ويخيف حاضري المحاكمة، لكــنّ عزمنا انتصر وتحرّرنا وأكل بن يتسحاق هوا».

لقــد أعاد الرّفيق أبو إدريــس ذكرياته مع والدي، أبو خالد، حين اشــترك في مظاهــرة في حيفا بمناســبة الأوّل مــن أيّار مع رفاق منطقتــه، كيف دحروا شــباب اليمين إلى شارع هشــومير وقام أبو إدريس برمي «جمشة كبيرة على رؤوسهم وأصبتُ وجرحتُ عددًا منهم».

يقــول أبو إدريــس: «إنّ قُدوتي في العمــل الحزبي والتّفانــي والتّضحية هم الرّفاق رمزي خوري وحنّا ابراهيم وجمال موسى ونديم موسى وكمال غطّاس وتوفيق طوبي وقمّة القمم المثقّف والموسوعة إميل توما».

وحــين طلبتُ منه أن يحدّثني قليلاً عن نفســه قال لي: هذا لأنّي جزء من هذا الكلّ وبدونهم لا أكون شيئًا».

الرّفيــق صالــح إدريس مصطفــى تيتي، أبــو إدريس، أنهى الصّــفّ الثّاني الابتدائي، لكنّه وجد بحزبه الشّــيوعي ورفاق دربه، طريق العودة إلى الوطن بعد أن كان لاجِئًا ومُهجّرًا في ســوريا ولبنان، وجد بحزبه المدرســة الابتدائيّة والثّانويّة والجامعيّة وبجلسة واحدة تعرف أنّك تجلس أمام موسوعة متحرِّكة، ضليعــة بتاريخ حركتنا الوطنيّة، رَبَّى أبناءه على حبّ الوطن والأرض والعلم والحــزب والجبهة، اســتطاع هذا العامل في مصانع صبِّ الحديد، أن يســقي الحديــد الأحمر من النّار بماء الحياة ليُصبح فولاذًا بعد أن تعلّم كيف يصقل الإنسان نفسه ليكون قدوة يُحتذى به على درب «كيف سقينا الفولاذ»، وعرف الرّفيق أن يصل بأبنائه إلى المراتب العليا علميًّا وثقافيًّا وأدبيًّا..

دمتَ لنا ولحزبك الشّيوعي ولجبهتك الديمقراطيّة يا أبا إدريس رفيقًا، وطنيًّا، صامـدًا، معطـاءً، أصيلاً وغيورًا، ودامت لكَ صحّتـك وعقلك وقلبك وفؤادك، ودمْـتَ أبًا حنونًا رؤومًا خدومًـا لأبنائك ولأهلك وعائلتـك الصّغيرة والكبيرة ووعـدًا منّا أن نبقـى على العهد والوعـد لتحقيق آمالنا وطموحنـا وأمنياتنا ووعدنا الواعد «إنّا باقون على العهد».

وهنيئًـا لنا بهؤلاء الرّفاق الذين أناروا دربنـا وطريقنا وكانوا وما زالوا منارًا وفنارًا يُهتدى به..

هذا المناضل يُردِّدُ معنا ونُردّد معه:

نَحْنُ شِدْنَا المَعَالِي وَسَنَبْنِي حَيَاةَ السَّلام
نَحْنُ أُسْدُ النِّضَالِ وَحَّدَتْنَا الأَمَانِي العِظَام

شُيُوعِيٌّ مُنْذُ اعْتِقَالِي

وُلِـدَ الرّفيــق يعقوب إبراهيم حنّا الياس، أبو سُــهيل، في العشرين من شــهر كانــون الثّانــي من العام ألــفٍ وتســعِمائة وثلاثةٍ وثلاثين، في قريــة البعنة، منطقة الشّــاغور الشّــمالي، جبال الجليل، قضاء عكّا، حيث تطِلُّ القرية على الشّارع الرّئيسي الذي يربط مدينة عكّا بمدينة صفد، وتقع شرقيّ مدينة عكّا حيث تبعد عنها إثنين وعشرين كم.

أنهى أبو ســهيل الصّــفّ الثّالث ابتدائي في مدرســة القريــة وانتقل بعدها، في العــام ألفٍ وتســعِمائة وثلاثة وأربعين، إلى مدينة عكّا لتكملة دراســته في المدرســة الوطنيّة حيث كان مدير المدرسة إنســانًا وطنيًّا وشخصيَّة مرموقة اجتماعيًّا، يُدعى أحمد سعد الدّين، ولَم يؤكِّد على التّحصيل العلمي فقط، بل أيضًــا على التّربيــة الوطنيّة وحبّ الوطن والتّضحيــة. وقد أنهى فيها الفصل الأوّل من الصَّفِّ الأوّل ثانوي، ولَم يســتطع تكملة التّحصيل العلميّ، بعد أن أقفلت المدرســة أبوابها بعد ســقوط المدينة، حيث يذكرُ أنّه ذهب لعطلة آخر الأســبوع يوم الخميس إلى قريته، البعنة، وحين عاد يوم الأحد إلى المدرسة لَم يجد أحدًا في المدرســة وكانت شــوارع المدينة خالية من المارّة، سقطت مدينة عكّا على أسوارها..

يذكر أنّ أعضاء نوادي عكّا، نادي أسامة وعمر والأرثوذكسي وعصبة التّحرر، نــادوا إلى الإضراب العام في ذِكرى قرار التّقســيم لتُدينــه وتُندِّد بوعد بلفور، وحين دخل أســتاذ التّاريخ الصّفّ، الأســتاذ نبيل عفيفــي، وجد أن إضراب الطّلاب ناجح وشــدّهُ الإعجاب والحماس وســألهم عن وعــد بلفور فلَم يُجبْه

أحــدٌ، ولّم يُعجِبهُ ردّهــم، لعدم معرفتهم ســبب الإضراب وما هي معركتهم المصيريّة، فشرح لهم بإســهاب عن الوعد المشــؤوم وعن قرار التّقسيم كذلك شرح لهــم عن مشــاركته في جميع المظاهرات والإضرابــات التي كانت تدعو إليهــا لجان الطّلاب حين كان طالبًــا في الجامعة الأميركية في بيروت، وبعدها خــرج مع الطّلاب وشــاركهم في مظاهرتهم الجبّارة التي جابت كلّ شــوارع عكّا وأزقّتها، حيث شارك فيها جميع سكّان الأحياء التي مرّت منها المسيرة.

يقــول رفيقنا يعقوب: "لقد شــارك والدي في ثورة السّــتّة وثلاثين، فقد كان قائــد فصيل، وقلّما رأيتــه في بيتِنا، كان ينزل مع الثّــوّار ليُهاجموا ويُفجّروا بعــض آليّات العدو في معســكر الجيــش البريطاني في مجــد الكروم ويعود معهــم إلى القرية، فقد كان يســافر إلى بيروت، بســيّارة كومنــدكار، مع ابن عمّتــي لشراء حاجيّات العائلة وخلال ســفريّاته تعرّف على ضابط في جيش الإنقــاذ يُدعى فــؤاد طهبوب، وبدأ يُحضِر حاجيــات الجيش من بيروت، بناءً عــلى طلب الضّابط، وقد جاء الضّابط فؤاد إلى والدي قبل خروج جيشــه من منطقة الشّــاغور بعد أن ســلّموها للعصابات الصّهيونيّــة، قائلاً: لقد بيعت البلاد دبِّر حالك ولقد سمعت هذه الجملة بذاني وما زلتُ أذكرها.."

وكذلك يذكر نشيدًا لنوح إبراهيم كان يُردّدها والده:

تعيش المرأة العربيّة إسلام ومسيحيّة

باعت لي أساورها واشترت بندقيّة

لقد فرض جيش الإنقاذ منع التَّجوُّل في المنطقة لمدّة يومين واستيقظ السُّكّان في اليوم الثّالث ليجدوا أنّ البلاد قد سُــلِّمت لعصابات الهجناة، وبدأت موجة القتــل والتّخويف والإرهاب تعلــو وتيرتها لتدبَّ الرّعــب في قلوب الأهل وبدأ الهرب والنّزوح إلى ما وراء الحدود الشّــماليّة والشّماليّة الشّرقيّة وقام رفاق عصبة التّحرّر بتوزيع منشــور يدعو فيه السّكّان لعدم ترك البلاد والبقاء في

الوطن.

وقع المنشــور بيد أبي سهيل وهو في طريقه للمراعي، حين كان يرعى بقراته في السّــهل الغربــي، فأخذه إلى أخيه الأكــبر الرّفيق حنّا إبراهيــم حنّا الياس (المعروف بحنّا إبراهيم خ.ت.) ليُريه المنشــور ويقرأه لكنّ أخاه لَم يستغرب من المنشــور بل طلب من أبي سُــهيل أن يقرأه جيِّدًا ويتمعّن في كلّ كلمة وأن يعمل، بروح دعوة المنشور، على إرجاع كلّ من يراه هاربًا شمالاً إلى بلده، وقد علــم بعدها أن أخــاه حنّا هو الذي وزّع المنشــور في بلدتهم بعد أن أحضره مــن قرية أبو ســنان وكان أخوه أوّل شــيوعي يراه في حياته وكان المنشــور أوّل مــادّة يقرأها للشّــيوعيّين وبدأت عمليّة الولادة الجديــدة والعمر الجديد والتّطوّر الفكري لدى الرّفيق يعقوب.

بعــد أن حــرّر الثّوّار قرية البروة ســلّموها لجيــش الإنقاذ لأنّه تعهّــد للثّوّار بتكملــة التّحرير والحفاظ عليــه، لكنّهم رأوا أنّ هــذا الجيش، أعطى القرية لعصابــات الهجناة بعد أن فرض عليها منع التّجــوّل ليهرب وجميع أفراده من المنطقة، هذه الحادثة أثارت الشّــكوك وعــدم الثّقة بهذا الجيش «المُنقذ» ممّا جذب الكثير من الشّباب المثقَّف ليلتفّ حول رفاق عصبة التّحرّر الوطني (الشّــيوعيّين خ.ت.) الذيــن حذّروا السُّــكّان من هذا الجيــش ومن تصرّفاته وعرفــوا صواب تقديرات الرّفاق، الأمر الذي أمكن الشّــيوعيّين من إقامة نواة لأصدقائهم في البعنة.

يقول الرفيق يعقوب الياس:»عندما علم قائد منطقة الشّاغور لجيش الإنقاذ بتوزيع المنشــور أمر باعتقل أخي حنّا إبراهيــم لكنّه أطلق سراحه بعد فترة وجيــزة لعدم وجود أدلّــة قاطعة تدلّ على أنّه هو الذي وزّع المنشــور، أذكر كذلــك أنّهم فرضــوا علينا منع التَّجوّل في أواخر شــهر تشريــن الأوّل، حيث ادّعوا أنّها ســتأتيهم فرق عســكريّة داعمة ســتعزّز قدرات الجيش «المُنقذ»

لطـرد اليهود من البلاد الأمر الذي أثار شـكوك رفاقنا في عصبة التّحرّر، وفي ساعات المساء من ذلك اليوم رأينا سيارات جيش الإنقاذ تتّجه شرقًا وشمالاً، وأهالي مجد الكروم هربوا إلى قريتنا وصوت عويل ونحيب النّسـاء والأطفال وصل لآخر الدّنيا..»

تشـكّل بعدها وفد كبير من القرى الثّلاث المجاورة، البعنة ودير الأسد ومجد الكـروم للقـاء قائد الجيـش الإسرائيلي في منطقـة البروة، حيـث كان يُدعى أورباخ، ليُعلِموه أنّ جيش الإنقاذ انسحب وأنّ السّكّان يريدون العيش بأمان فطلب القائد أورباخ من أعضاء الوفد العودة إلى قراهم ليُطمْئِنوا أهالي القُرى الثّلاث هناك بأنّ الشّرّ لن يدخلهم وسـوف يُباشر مسـؤول الدّاخليّة، بأسرع وقت بمباشرة عملية الإحصاء.

لقـد حضروا، في اليوم التّالي، إلى قرية البعنة وبأسرع وقت، حضروا بوحدات عسـكريّة إسرائيلية مدجّجـة وبدأوا بإطلاق النّار في الهواء ليُرهبوا السّـكّان وليُعلنوا عن احتلال القرية فبعد أن نادوا بمكبّرات الصّوت يدعون أهل البلد ليتجمهـروا في السّـاحة العامّة، وبعـد ذلك أمروا المختـار أن يطلب من أهل القرية تسـليم السّلاح، تحت شعار سَلِّم سلاحك تِسلَم روحك، فجمع المختار السّلاح وسلّمه للضّابط، حيث قام بعدها بتوزيع أهل البلد، الرّجال لوحدهم والنّساء والأطفال لوحدهم وكلّ الذين سلّموا أسلحتهم وضعوهم في مجموعة خاصّة بعيدًا عن المجموعتين. ودخلت فرقة من الجيش وبدأت تجمع ممتلكات الحضور الشّـخصيّة من صيغة وأقلام وسـاعات وأمـوال ويذكر رفيقنا أبو سهيل:»لقد كان في جيبي قرشان فلسطينيّان قمتُ بإخفائهما في التراب، بعد أن حفـرت حفرة صغيرة حتـى لا يسرقانهما منّـي». وبعدها طلب الضّابط من أربعة شُبَّان، حيث كان الانتقاء عشوائيًّا، الذّهاب لإحضار الماء لأهل البلد لإرواء عطشـهم، وبعد أن أدار الشّـبان ظهرهم ومشـوا بضعة خطوات وإذ

بأصوات طلقات النّار من بنادق جنود الاحتلال تجرح كبد السّماء لتستقرّ في قلوب الشّباب، كان الشّبّان الأربعة من دير الأسد والبعنة بالتّناصف، يذكررفيقنا أسماءهم، حنّا فرهود وعلي عابد وصبحي محمود ذبّاح وآخر من دار الأسدي لم تُسعفه ذاكرته على حصر اسمه، وبعد تلك المجزرة أخذوا المعتقلين ليمرّوا قرب جثث الضّحايا..

وهكذا روى الجنود عطشهم لرؤية الدماء وسفكها!

لقد جمعوا من القريتين (البعنة ودير الأسد) نحو مائة وعشرين رجلاً على أن يُوزِّعوا أنفسهم إلى مجموعات بحيث تتألّف كل مجموعة من ثلاثة رجال، وبدأوا تحت التّهديد، بالسّير على الأقدام شرقًا حتّى وصلوا قرية الرّامة، لقد كانت القرية شبه خالية من سكّانها، وعند عين الصّرار ركض المعتقلون ليشربوا ويُسكتوا عطشهم من عناء السّير تحت أشعّة الشّمس الحارقة وما أن ركعوا للشّرب من العين، حتّى بدأ الجنود بإطلاق النّار على الماء وفوق رؤوسهم كي يمنعوهم من الشّرب.

ثلاثة أيّام من الجوع القاتل والعطش الذّابح، فقد كان الجنود يوزّعون الخبز على المعتقلين، بحيث كان الرّغيف يُقسّم على عشرة معتقلين، وحين انتقل أبو سهيل، ابن الخمسة عشر ربيعًا آنذاك، مع فرقته إلى المعتقل في عتليت، لَم يحصل على حصّته من رغيف الخبز في ذلك النّهار، وكان المعتقلون معه، الرّفاق جميل وكمال غطّاس ورمزي خوري وجمال ونديم موسى، يعرفون قائد الفرقة منذ أن كانوا يعملون سويَّةً في مصنع تكرير البترول في حيفا وكانوا قد حموه مرّة من اعتداء بعض العناصر عليه، فجمعهم وأعطاهم الأكل والشّراب ويقول رفيقنا يعقوب: «بحياتي لن أنسى ذلك الرّغيف الذي أكلته في طريقي لسجن عتليت».

كان السّجن في عتليت يمتدُّ على قطعة أرض مكشوفة للهيب أشعَّة الشّمس،

حيث كانت مغطّاة بالأعشـاب الشّـائكة والقارصة ولَم يكن لهم مأوى سوى بطّانيّـة واحدة، هي الخيمة والوسـادة والفـراش والغطـاء. ويذكر رفيقنا يعقوب أسـماء المعتقلين كانـوا معه هناك وهم: جمال مـوسى، نديم موسى، رمزي خوري، فرج الياس، إبراهيم طنّوس، إبراهيم بولس، الياس مكراوي، يحيا ذبّاح، كمال غطّاس، جميل غطّاس، غطّاس غطّاس، حبيب زريق، ذيب زريق وفريد زريق.

كان سـجن عتليت مقسّـمًا بالأسـلاك الحديديّة الشّـائكة إلى خمسة أقسام بحيث وزّعوا المعتقلين إلى فرق، يفرش كلّ سـجين بطّانيّته على الأرض وعلى أشواكها القارصة، الدُّرِّيس، التي كانت كلّما تحرّك الشّخص فوقها أكثر كلّما غرزت الأشـواك في الجلد أكثر، وكانت مجموعة أبي سـهيل مسجونة في قسم رقم خمسـة. ويُتابع حديثه عن حادثة جرت في المعتقل لا ينسـاها أبدًا وهي حين قام المراقب العسـكريّ مـن برجه برمي أحد المعتقلـين من كفر عنان، فـأرداه قتيـلاً وبدم بارد إن كان له دم. لقد كان ذنـب الكفر عناني أنّه رأى صديقًا عبر السّياج في قسم آخر من السّجن، فاقترب من السّياج الفاصل بين القسمين، ليتحدّث معه، وكان هذا آخر حديث له مع صديقه.

لقد أمر مدير السّـجن بعض المعتقلين جمـع تواقيع جميع الأسرى الموافقين على قراره بأنّ من يريد أن ينتقل إلى لبنان أو سوريا يستطيع مغادرة المعتقل ويُفـرج عنه ومـن يريد البقاء في الوطن، يبقـى في المُعتقل وحين علم الرفيق نديـم موسى بالخبر أصدر تعليماته لجامعي التّواقيع على أن ينقلوها لجميع المعتقلـين أنّ «الخروج مـن الوطن خيانة» فرجعوا إلى مدير السّـجن قائلين «جميعهم باقون في الوطن».

جمـع الرّفيق رمزي خوري الرّفاق في السّـجن كي يوقّعوا على رسـالة كتبها بخـطّ يده بالعربيّة وقد ترجمها للغة العبريّـة الرّفيق فريد زريق حيث كان

يُجيـد اللغة جيِّدًا، يُطالبون فيها إدارة السّـجن بأن تُعامل المعتقلين كأسرى حرب وإلا فلماذا تعتقلهم، وإن لَم تسـتطع ذلك، فلتُحرّر المعتقلين لأنّه كان من بينهم سـجناء لَم يبلغوا سـنّ الرّشـد بعد، إذ كانت أعمار بعضهم دون الخامسـة عشرة. وعندما خرجوا إلى معسكرات الجيش البعيدة عن المعتقل، للعمـل في تنظيفها أخذوا معهم الرّسـالة ووزّعوها عـلى المدن التي تمرّ فيها الحافلة العسـكريّة إلى المعسـكرات بعد رميها من شـبابيك السـيّارة وهكذا وصل خبر الإضراب إلى الصّحافة وأعضاء الكنيسـت الشّـيوعيّين حيث قاموا بزيـارة المعتقلين ونشرت صحيفة الاتحاد عن الخبر، وعملوا على إخلاء سراح المعتقلين..

بعد التّحرير عمل ألرّفيق أبو سُـهيل في المحاجر قرب قريته وفي صبّ الحديد لاحقًا في منطقة السّعادة (التشيكبوست)..

يذكر رفيقنا أبو سـهيل: «حضر إلى مكان العمل زُلُم آبا حوشي، فرقة مكوّنة من مائة وخمسـين عاملاً توزّعوا على أماكن العمل التي تُشَغِّل عربًا، طالبين من المُتعهِّد أن يطرد العمّال العرب ويُبدّلهم باليهود ليكون العمل عبريًّا، لأنّ نقابة العمّال (الهستدروت) قامت لخدمة العمّال العبريّين في أرض إسرائيل، وليس العرب، لكنّهم فشلوا في ذلك حيث وصل المسؤول عن الشّغل إلى قناعة بأنّه لن يجد عمّالاً أفضل منّا، لكنّهم طردونا من العمل بعد عدوان حزيران».

عمل حزبنا الشّيوعي على تغيير اسم نقابة العمّال العبريّين في أرض إسرائيل، الهسـتدروت، بنضال جماهيريّ مرير ومثابر حيث نجح في تغيير الاسـم إلى نقابة العمّال العامّة لِتشمل جميع العمّال مواطني الدّولة، عام ألفٍ وتسعِمائة وستّة وخمسين.

كان عـلى رفيقنـا، كما كان على غـيره من العمّال العرب، مـن أجل العمل أن يُصـدر تصريحًا بذلك، حيث كان يُسـافر يوميًّا من البعنـة إلى مكان العمل

وقلّما كان يجد مكانًا شــاغرًا في الحافلة، فقد كان ســفره للعمل ذهابًا وإيابًا واقفًا.

شقاء وإرهاق وتعب وتحدّ وتصميم..

لقد اقترن اســم قرية البعنة باللون الأحمر، حيث مُنحت اسم البعنة الحمراء كما اقترن اســم مدينة حيفــا بنفس اللون، بفرق واحد وأســاسي، أنّ غالبيّة ســكّانها من العمّال لوجود مصانع عديــدة في منطقتها، وكان حزب العمّال الصّهيوني مســيطِرًا على المدينة، أمّا البعنة فحمراء بوجود الشّيوعيّين فيها، هــؤلاء الذين أنقــذوا أهل بلدتهم والقرى المجاورة مــن التّرحيل وحمَوا أهلها من شرّ الهويّات الحمراء التي منحتها سلطات الاحتلال للسُّكّان وكانت هذه الهويّات عبارة عن تصاريح عســكريّة لإقامة مؤقّتة قابلة للتّجديد، ولأنّ لون التّصاريح كان أحمر سُــمِّيت مجازًا بالهويّات الحمراء مقابل الزّرقاء المدنيّة المعروفــة والموجودة بحــوزة كلِّ واحدٍ منّــا. وكما هو معــروف أنّ الهويّات الحمراء أُعطيت لغالبيّة ســكّان منطقة الشّــاغور ليكــون وجودها في وطنها الذي لا وطن لها ســواه تحت رحمة الحاكم العســكري وحسب إخلاص هذا المواطن لســلطات الاحتلال، بحيث لا يحقّ لأصحاب هذه الهويّات امتلاك أيّ شيء وكذلك لا يحقّ لهم الاقتراع..

لقد اقترن اسم محامي الأرض حنّا نقّارة، أبي طوني، بقرية البعنة، فقد كتب الرّفيق حنّا إبراهيم في كلمته التّأبينيّة لأبي طوني، تحت عنوان حامل وســام معركة الصّمود، في كتاب حنّا نقّارة محامي الأرض والشّــعب ص 270: « لا أعرف اســم بلدة ارتبط تاريخها الحديث وربّما مســتقبلها باسم حنّا نقّارة كقريتنا البعنة»، لقد كان يقول محامي الأرض «البعنة تعزُّ عليّ كثيرًا وكذلك أهلها بالطّبع».

يُتابــع الرّفيق حنّا إبراهيم:»..كان من نصيب أهل البعنة الوقوف في الطّليعة

وتحدّي الحكم العسـكري. وقد أعددنا أنفسـنا جيِّدًا». وبالفعل استعدّ رفاق الحزب هناك لمعركة الهويّات حيث دعا الرّفاقُ جماهيرَ البلدة لاجتماع شعبيّ قامـوا فيهـا بعمليّة إحصـاء محليّة ولتعبئة اسـتمارات توكيل كي يتسـنّى لمحامي الأرض أبو طوني، الذي شـعر بخطر هذه الهويّات وبادر إلى اللجوء إلى القانون، فرفع دعوى إلى محكمة العدل العُليا باسمهم، لكي يحصلوا على الهويّـات الزرقـاء لجميع المواطنين متوعِّدين بذلـك إذا مُنح أحدٌ من قريتهم هويَّة حمراء فسوف يرفض جميع أهل البلدة الهويَّة الزّرقاء، وكان لأهل البلد ما أرادوا وكان أبو طوني بطل الموقف والنّصر.

وقد تغنّت فتاة بالنّصر، شاكرة محامي الأرض حنّا نقّارة:

حنّا نقّارة يا محامينا الحمرا والزّرقا عَ صرامينا

يا بو خضر تعال ودّينا من كلّ الحكومة ماني مهمومة

وطبعًا شـخصيّة أبي خـضر المخابراتيّة معروفة لجميع أهالي الشّـمال، ولَم تمرّ حلقة من حلقات ذكريات الرّفاق، الذين جلسـتُ معهم، إلا وكان اسـمه واردًا ومرتبطًا بعمليّات التّرحيل والتّشريد والاعتقال والنّفي..

وتغنّت أخرى متحديةً رئيس الحكومة بن غوريون:

صبايا البلد ردّوا عليّ، الله ينصركو يا شيوعيّة

حنّا نقّارة جاب الهويّة غصبن عن رقبة بن غوريونا

ويكتـب الرّفيـق حنّا ابراهيـم في الكلمة ذاتها ما قاله له أبـو طوني، بعد أن رفض أن يتقاضى أجر أتعابه ص 274:»لو تقاضيْتُ مقابل أتعابي ..لاعتبروا المسـألة كلّها قضائيّة. ولخفِيَ عليهم الجانب السّـياسي الكفاحي فيها. يجب أن يعرفوا أنّني فعلتُ ما فعلتُ ليس لأنّني محامٍ بل لأنّني محامٍ شيوعيّ».

يقـول رفيقنا أبو سـهيل:»تعرّفت في عكّا على زوجتي سُـميَّة جميل جريس وتزوّجنـا وعندمـا تقدّمتُ بطلب تصريح إقامة في عكّا مـع عائلتي الجديدة،

دعونــي إلى مقابلة مع الضّابــط زيغدون بعد أن صادروا تصريحي بأمر من الحاكم العســكريّ، فعاد إليّ بعد أســبوع طالبًا منّــي التّصريح، قلت له لقد صادرتــه منّي قبل ســبعة أيّام كيف تطلبه منّــي الآن، فاعتقلوني وأعادوني لوحدي بسيارة الشّرطة إلى البعنة، لكنّي عدتُ إلى عكّا مساء اليوم ذاته، حيث رأيت ذلك الشّرطيّ الذي نقلني إلى قريتي داخلاً دار السّينما وبالتّأكيد رآني، لكنّه لَم يكترث لوجودي ولَم يسألني عن سبب عودتي ولَم يعتقلني..

ونجح محامي الأرض حنّا نقّارة، أبو طوني، بإصدار قرار من محكمة العدل العُليا يصرّح لي بالسّكن في عكّا، لكنّ ضغينة وحقد الحاكم العسكري ظهرت بعد أيّام معدودة من القرار حين أحضروا لرفيقنا أبي سهيل الإقامة الجبريّة وقرار إثبات وجود في مركز الشّرطة مرّتين في النّهار..

وعندما ســألتُ أبا ســهيل عن عمره الحزبــي أجابني:»أنا عضــو في الحزب الشّــيوعي منــذ اعتقــالي الأوّل في عــام النّكبــة» أي أنّ الاعتقــال والتخويف والتّرهيب والطّرد من العمل لَم تغيّر او تُبدِّل من إيمانه بالشّيوعيّة قطّ.

الرّفيــق يعقوب إبراهيم حنّا الياس، أبو سُــهيل، عضو في الحزب الشّــيوعي منذ اعتقاله الأوّل في سجن عتليت في عام النّكبة، حين كان عمره خمسة عشر عامًا، تعرّف على الشّــيوعيّة من خلال قراءته لمنشور عصبة التّحرّر الوطني الدّاعي إلى الصّمود وعدم النّزوح والبقاء في الوطن، وتأثّر فيها أكثر حين علم أنّ من وزّع هذا المنشــور كان أخاه حنّــا، وعرف أنّ هؤلاء، الرّفاق، هم الذين صنعوا بقاء شــعبنا ومجده، فهُم صناديد الوطن وفرســانه وهم الأمناء على هذه الدّيار وحماتهــا وهم الذين بالمجد والعزّ والفخار والكرامة والشّــهامة اعتمــدوا ونتمنّى لرفيقنا أبي سُــهيل وجميع أفراد عائلتــه الكريمة، زوجته سُمَيّة والأبناء رجاء وسهيل ووفاء وزهير كلّ الصّحّة والعافية والعمر الطويل والعقل السّليم لمزيدٍ من العطاء والصّمود لأنّنا بوركنا بك أيّها الرّفيق الأصيل

كما أنّك بوركت بهذا الحزب الشّـيوعي ولا بديل عن هذه الطّريق والسّـبيل، مهما عصفت رياح الغرب للتّغيير، ومهما كبت أجيادنا..

فقـد قـال الشّـاعر عمر أبو ريشـة في قصيدته عـرس المجد احتفـالاً بجلاء الفرنسيّين عن الوطن سوريا:

نَحْنُ مِنْ ضَعْفٍ بَنَيْنَا قُوَّةً لَمْ تَلِنْ لِلْمَارِدِ الْمُلْتَهِبِ
كَمْ لَنَا مِنْ مَيْسَلُونٍ نَفَضَتْ عَنْ جَنَاحَيْهَا غُبَارَ التَّعَبِ
كَمْ نَبَتْ أَسْيَافُنَا فِي مَلْعَبٍ وَكَبَتْ أَجْيَادُنَا فِي مَلْعَبِ
مِنْ نِضَالٍ عَاثِرٍ مُصْطَخِبٍ لِنِضَالٍ عَاثِرٍ مُصْطَخِبِ
شَرَفُ الوَثْبَةِ أَنْ تُرْضِي الْعُلَى غَلَبَ الوَاثِبُ أَمْ لَمْ يُغْلَبِ

ونهتف مع أبي سـهيل، هذا الشّـيوعيّ العريق، عاليًا قول الشّـاعر المناضل داود تركي أبي عايدة، في قصيدته رفرف لواءك وانتصِب أيّارُ:

فَشَلُ الطَّرِيقَةِ لَيْسَ يُلْغِي مَبْدَأ
يَسْمُو بِهِ وَيُفَاخِرُ الأَخْيَارُ
لَكِنَّهُ دَرْسٌ تَوَجَّبَ عِلْمُهُ
لِمُنَاضِلٍ قَدْ هَمَّهُ اسْتِمْرَارُ

"هَذَا الوَطَنُ حَقٌّ لَهُ أَنْ يُفْتَدَى بِالدِّمَاءِ وَالمُهَجِ"

"مهمَّتنا هي: الهجوم من أجل الاحتلال.. قتل الرّجال، تدمير وإحراق الكابري وأمّ الفـرج والنّهر" بهذه الوحشـيّة كانت الأوامـر الموجَّهة لوحدات كرميلي، الكتيبـة واحد وعشريـن، التّابعة للهجناه، لاحتلال هـذه القُرى وإزالتها عن بكرة أبيها ومحوها أو مسحها مع الأرض في عمليّة "بن عامي" وذلك انتقامًا لتصـدّي أهل تلـك المنطقة للاحتلال بعد أن تكبّدت هذه العصابات خسـائرَ فادحـة في العتـاد والأرواح، بعـد أن قُتل قائد الكتيبة بن عامـي بِخْتِر، الذي نقل الجنود والمدرّعات من شـمال مدينة حيفا إلى منطقة نهاريا. لقد اعتبرت عمليّة احتلال هذه القُرى أكثر وحشيّة وأشدّ عنفًا وأقصى انتقامًا وأحقد أمرًا من كلّ الأوامر العسـكريّة، بعد أن كانت الأوامر، عادةً، على مستوى "دمِّر – و – اطرد" (التّطهير العرقي في فلسطين، إيلان بابه ص 154).

تقـع قرية النّهر شـمال شرق مدينة عكّا، السّـهل السّـاحلي، منطقة الجليل الغربـي، حيث تبعد عنها مسـافة أربعة عشر كم، عـلى الطّريق العام ما بين ترشـيحا وعكّا، وتتكـوّن القرية من حارتين، الأولى تسـمّى الحارة الشرقيّة، النّهـر، والثّانية وتقع على تلٍّ مرتفع وتسـمّى الحارة الغربيّـة، تلّ النّهر، أو التّـل، وهاتـان الحارتان توأمان في بلد واحد ولهمـا مختار واحد ويقع قرب القرية تلٌّ أثريٌّ يسمّى تلّ القهوة..

قريـة النّهر هي اسـمٌ على مُسـمًّى، غنيّة بالميـاه الجوفية والآبـار الارتوازيّة والينابيـع العذبـة المتجمّعة في بركة الفوّارة وبركة تلّ المفشـوخ حيث كانت تتدفّق مياهها لتروي الأرض وتسـير بغـزارة لتُحرّك أحجار رحى الطّواحين

المائيّــة، حيث وصل عدد هــذه الطّواحين إلى ثماني مطاحــن، لطحن القمح والذّرة على أنواعها وكانت تروي البساتين الغنّاء بالتّين والدُّرّاق والحمضيّات والزّيتــون والتّفّــاح والسّــفرجل حيث كانــت تُعبّأ الحمضيّــات والفواكه في صناديــق ليبيعها الفلاحون في أســواق حيفــا وعكّا وصفد وكانــت الرّوابي معطّرة بالرّياحين والقندول والياسمين وعصا الرّاعي والورد الجوري، كانت القرية جنّة على الأرض، جنّة تجري من تحتها الأنهار وفردوسًــا مُنعِشًا من فوقه الأزهار..

ويقول الأخطل الصّغير لتلك الرّوابي:

يا رُبى لا تترُكِي وَرْداً ولا تُبقِي أَقَاحَا
مَشَتِ الشَّامُ إلى لُبنانَ شَوْقاً وَالتِيَاحَا
فَافْرُشِي الطُّرقَ قُلُوبًا وثُغُورًا وَصُدَاحَا
غُرّةٌ مِنْ عَبدِ شَمْسٍ تَمْلأُ اللّيْلَ صَبَاحَا

كانت القرية جنّة وفردوسًــا إلى أن ســقطت في العشرين من شــهر أيّار من العام ألفٍ وتســعمائة وثمانيةٍ وأربعــين، وتوقّفت الحياة فيها، ونضبت مياه الأنهار وانقطع عن مســمعنا خريره وتحوّلت الجنّة إلى جهنّم بعمليّةٍ سُمِّيَت بن عامي على اســم قائد الهجناه بن عامي بِخْتِر الذي قُتِلَ في اشــتباك وقع في منطقة نهاريا، في آذار من عام ألفٍ وتســعمائة وثمانيةٍ وأربعين،وأقيمت من بعدهــا على أرض القرية مســتوطنة بن عامي تخليدًا لــه (كي لا ننسى، وليد الخالدي ص 502).

وُلِــد في هذه الجنّــة الغنّاء الخضراء، أبو فاتن، الرّفيق حســين علي مصطفى مباركي، في العام ألفٍ وتســعمائة وثلاثين، لوالدٍ ثائرٍ من ثوّار السّتّة وثلاثين الأبطــال، قلّما كان يراه، حيــث كان وإخوانه يُرابطون لدوريّات الانكليز على الطُّــرُق العامّة بين عــكّا ونهاريا ويذكر رفيقنا أنّ والــده حين كان مطلوبًا،

ناداه وأخذه بين ذراعيْه ضامًّا، تحت شجرة الليمون في حاكورة البيت، مودِّعًا إلى بــيروت للاختباء هناك ريثما يمرّ الوقت، غاب لفترة طويلة لَم يُعْرَف عنه شيءٌ، لكنّه عاد بعدها، في فــترة الحرب العالميّة الثّانية، كئيبًا، قائلاً:»براغيث التّلّ ولا أوتيلات بيروت» من شــدّة حبه لبلده وإخلاصه لها..ويُضيف رفيقنا أبو فاتن الشّــغوف في حبِّ قريته والمفتــون بجمالها وروعتها حيث:»إذا لازم تصير جنّة على الأرض لازم تصير في النّهر».

كان عمــره في نكبة فلســطين ثمانيــة عشر عامًا حيث يذكر استشــهاد أخيه الطّفــل، ابن السّــنة وثلاثة أشــهر، وهو في حضن أختــه برصاص الاحتلال، فقد زحف إليهما والده وأنقذ الابنة وســحب جثّة الطّفل الرّضيع والشّــهيد، ووضعها على الأرض بعد أن غطّاها بالحجارة، حتّى لا تنهشــها وتفترســها وحــوش البريّة بعد أن قتلت الطّفــل الوحوش البشريّة، وبعد أن زال الخطر، مؤقَّتًــا، صلّى والده على الشّــهيد، ودفنه في المقبرة. «اللي كانوا يمســكوه حيّ في البلــد كانوا يعدموه رميًا بالرصاص، وأذكر أنّني رأيتهم يعدمون شــابّين معاقين هما محمّد عبد العال ومحمّد راغب».

درس رفيقنا حســين في مدرســة القرية الخاصّة والوحيــدة، الكُتّاب، وكانوا يتعلّمــون فيها وهم جالســون عــلى الأرض، حفظ القرآن والحســاب واللغة العربيّة والطّبيعة، وانتقل بعدها إلى مدرســة الكابري الحكوميّة، حيث أنهى فيها مســتوى الصّفّ الرّابع، وهناك رأى لأوّل مرّة في حياته الدِّراسيّة مقعدًا وطاوِلةً حُفِرَ فيها شــكلٌ دائريٌّ لوضع المحبرة، حيث كانت الكتابة بالرّيشة والمداد. ويذكر أســتاذَه جمــال الطّاهر، من نابلس، الذي كان يعشــق وطنه وكــرة القدم فقد لعبــوا معه كثيرًا كرة قدم، حيث كان في النّهار أســتاذًا وفي المســاء صديقًا، وقــد حفّظهم عن ظهر قلب قصيدةً وطنيّــةً، يذكرُ أبو فاتن مطلعها:

هَذَا الوَطَنُ حَقٌّ لَهُ أَنْ يُفْتَدَى بِالدِّمَاءِ وَالمُهَجِ
عَارٌ عَلَيْنَا أَنْ نَنَامَ ونُضَيِّعَ مَجْدًا لَمْ يُضَم
هُبُّوا وَلَو ذُقْنَا الحُمَامَ بِالرُّوحِ نَفْدِي بِالرُّوحِ نَفْدِي ذَا الوَطَن
وكان يُحذّرهم بألا يُنشدوه بحضور الشّرطة خوفًا وحذرًا..

«أذكـرُ أنّهـم فجّروا بيـت فارس سرحـان أفندي، حيـث كان مـن الزّعماء والقوميّـين العرب، وهرب بعدها إلى لبنان،كان هذا في العام ألفٍ وتسـعمائةٍ وسـبعةٍ وأربعين كذلك أذكر كيف أحرقوا حافلة ركّاب عند قرية جدّين بعد أن أنزلـوا منها ركّابها وأُجبِروا بعدها تكملة الطّريق مشـيًا على الأقدام، وفي حادثة أخرى رأيتُ كيف أطلقوا النّار على ثمانية من شـباب الزّيب لا شـبق لهـم ولا عبـق في المقاومـة وذلك انتقامًا لخسـارتهم في المعركـة هناك، أنا لا أذكـر أنّنا حاربنا أو أردنا الحرب بـل أذكر أنّه بدأت فرقة أردنيّة من جيش الإنقاذ الهجوم على المستوطنات وحين علا وطيس النّار هربت الفرقة وبقينا لوحدنا، ثمّ لوحدنا بدون حماية وتحت رحمة نار الهجناة».

هُجِّروا من القرية وهم لا يملكون شـيئًا سـوى ثيابهم إلى قرية أبو سـنان، حيث كانت قليلة البيوت، فتركوها إلى ترشيحا، التي لَم تكن قد سقطت بعد، وسـكنوا عند معارفهم هناك، لكن عندما اشـتدّ القصف على قرية ترشـيحا وسقطت هي الأخرى، قرّر والده العودة إلى أبو سنان، حيث سكن مع تسعة أنفـار، أبنـاء عائلته، في غرفة صغيرة جـدًّا عند أخت الخـوري نجيب طيّب الذّكر، نجيبة، وكانوا يتسـلّلون إلى قرية النّهر بحثًا عن أشيائهم وأغراضهم وممتلكاتهم ليُحضِروها إلى بيتهم الجديد!

«يجـب أن أُنصف الخوري نجيـب، لقد كان هذا الخوري مثـالاً يُحتذى به، وطنيًّا شـهمًا من الدَّرجة الأولى، وجدعًا وقبضاي أحبَّ أهلَ البلد الكرام حتّى النّخاع وأخلص لهم»..

يذكر رفيقنا، أبو فاتن، كيف وشــوا للحاكم العسكري عن وجود أربع بنادق عند والده، حيث أرسل رجال الشّرطة في الحال، وطوّقوا البيت طالبين والده، لــم يكُن آنــذاك في البيت، فقد أخفــاه الخوري نجيب عنــده، وأرادوا اعتقال الابن رهينة بدل الأب، لكنّ والدته رفضت ذلك بإصرار وقاومت بقوّةٍ اعتقال مُهجــة قلبهــا، والتزمــت وتعهّدت بحضــور زوجها، أبي حســين، إلى مركز الشّرطــة في اليوم التّالي، وفي الغد وقبل مثولــه أمامهم في المركز، حضر طيّب الذّكــر الرّفيق خليل عيسى خوري، أبو ســخي، مُنبِّهًا ومُحذِّرًا ومُعلِّمًا، «أيّاك والاعتراف بــشيءٍ، فش أيش تخسر وفش أيش تحكي ومــا عليك إلا الصّمود وعــدم الخوف» وحين بدأ المحقّق الشــويلي أبو خــضر بالتّحقيق أنكر والده الاتّهام وكفر بالتُّهمة على مســمع شــاهد راعي غنم، من ديــر القاسي، الذي أحضروه لتلفيق الملفّ، لا يعرف المنطقة ولَم يعرف كم تبعد أبو ســنان عن دير القاسي، أو حتى أين تقع، وبهذا فنّد والده كل التّهم وهوت عصا المحقق عــلى ظهر الرّاعي، الشّــاهد، الذي لَم يُتقن روايته وحُرِّر المتّهم، أبو حســين، بعدها.

وهكذا تعرّف رفيقنا أبو فاتن على أوّل شيوعي في حياته، أبي سخي، وبدأ معه بتوزيع صحيفة الاتّحاد في أبو ســنان وبدأ يقرأها لنفســه ولوالده المُتعطّش للمعرفــة، فقــد كان قبــل الاحتــلال، وهو في جيــل العاشرة، يقــرأ الصّحف الفلســطينيّة لوالده، «الدِّفاع» و»فلسطين»، حيث يذكر أنّ والده كان يحضر محــاضرات إميــل توما جميعهــا وكان يحبّ الجلوس في أوّل القاعة عطشًــا لسماعه وسماع تحليله وجديده.

معروف أنّ أبا سخي، كان عضوًا في عصبة التّحرّر، وقد سكن في قرية البعنة بعد أن هُجِّر من البروة، وبناءً على طلب الرّفاق هناك، انتقل ليســكن في قرية أبو ســنان لبناء فرعٍ للحزب الشّــيوعي فيها وهكذا كان أبو فاتن أوّل رفيق

منتسب للحزب في القرية، وكان الفرع مكوَّنًا من عضوين، أبو سخي من البروة وأبو فاتن من النّهر، «كنّا قلائل لكنّنا كنّا فعالين» كقول السّموأل بن عاديا:

تُعَيِّرُنا أنّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا
فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ

«منعت الرّقابة مرّةً صدور صحيفة الاتّحاد وصدرت لمرّة واحدة باسم المهماز، ووقفتُ مع أبي سخي، نجمع التّواقيع على عريضة تضامنٍ مع الصّحيفة ونجمع التّبرعات لدعمها، وذلك ساعة المساء، ساعة حلّة العمّال، الذين أنتهوا للتوّ من عملهم الشّاق، كانت جرأة الشّيوعيّين واضحة وظاهرة للعيان، وكان تجاوب العمّال كبيرًا، كنّا نكفر بالأنا ونؤمن بنحن، كان بيننا وبين رفاق كفر ياسيف تعاون تامّ ولاطمت أكفّنا المخرز، ولعنّا اللي عملو، ببطولة وعناد وإصرار وهذه ليست بطولة منّي بل بطولة من تربية الحزب».

كان الحاكم العسكريّ يُعطي تصريحًا لثلاثة عمّال من بين الجموع الحاشدة، المنتظرة الفرج لأخذ تصريح عمل يضمن لها لقمة العيش بشرف، تحت أشعّة الشّمس الحارقة ويسرّح الباقي على أن يعودوا في اليوم التّالي، «لقد كانوا مسيطرين على الخبز وأرادوا التّحكّم فينا من خلال تحكّمهم هذا في كلّ شاردة وواردة»..

يُتابع أبو فاتن حديثه:»تعرّفتُ على الرّفاق جمال موسى، نديم موسى، حسين الصّفدي، يعقوب الياس، صالح إدريس ورمزي خوري حين انتقلت للسّكن في مدينة عكّا، عام ألفٍ وتسعِمائة وستّة وخمسين، وهناك تعرّفت على زوجتي، نفيسة، من مواليد مصر، حيث كان والدها سائق قطارٍ، ففي سنة النّكبة بعث الملك فاروق باخرةً لرعاياه يحثّهم فيها على العودة إلى مصر، بعد أن سلّموا البلاد، لكنّ الأحداث أخذته على حين غرّة ولم يستطع الإبحار مع

عائلته وبقوا في فلسطين وأصبح وطنهم الثّاني التّوأم..»
تعـرّف على زوجته نفيسـة بعد مشـاركته في مظاهرة الطّحـين التي نظّمها الحزب الشّـيوعي، منطقة عكّا، بالاشـتراك مع حركة النّسـاء الدّيمقراطيّات هنـاك وذلك بعد أن انقطع توزيع مؤن الطّحين بواسـطة بطاقات التّموين، ووزّعـوا مكانه خبزًا إفرنجيًّا، فقامت المظاهرة تحت شـعار «بدنا خبز بدنا طحين» وهناك من نادى «بدنا ليخِم بدنا طحين» ومن بين الرّفيقات اللواتي اعتُقلن بعد أن شـاركن في المظاهرة وصحـن بأصواتهم العالية في هذا النِّداء الأوّل: زوجتي نفيسـة عجمـي مباركي حيث كان عمرها سـبعة عشر عامًا، ابتهاج خوري، سلوى موسى، نجيبة غطّاس وعريفة صفدي وغيرهن..
حين أقدم الشّـاويش زيدان نمر على ضرب المعتقلات بالعصا، قامت الرّفيقة نفيسـة ورفسته برجلها رفسـة أليمة أنسته الحليب الذي رضعه، إن كان قد رضع مرّةً من حليب أمّه؟ وقال لها: قتلتني..
وأُعجِبَ أبو فاتن ببأسها الشّديد ومراسها القويّ وأحبَّ شجاعتها ومروءتها وحظـي بتلك الفتـاة التي سـحرته وكان نصيبه جميلاً حيـث تزوّجا لاحقًا وأنجبا فاتن وحنان وغادة ونجوى وعامر.
بعد أن انتقل الرّفيق حسـين مباركي إلى مدينة عكّا، كان يعود إلى أبو سـنان أيّـام الجمعـة ليُعـاون أبا سـخي في توزيع صحيفـة الحزب، كانـت آنذاك أسـبوعيّة. كانـا يحثَّان أهل البلـدة على القـراءة وشراء الصّحيفـة ليعرفوا «وين الله حاططهم»، وقد حصل الحزب على خمسـة وتسـعين صوتًا في أوّل انتخابات للكنيسـت بعد النّكبة، وتوسّـعت صفوف الفرع في أبو سنان بعد انتسـاب رفاق ورفيقات من كافّة طوائف البلدة حتّى أصبح من أكبر وأقوى فـروع الحزب والجبهة في منطقة عكّا وهكذا بدأ الفرع من عضو واحد، أبي سـخي، وأصبح كبيرًا مُشـيَّد الأركان متراصّ البنيان رافعًا راية الحزب فوق

هام المجد..

اشــتغل بعدها في دائرة الصّحّة، قســم الوقاية من الحــشرات والزّواحف، في البلدات والكيبوتســات المجاورة لمدينة عكّا، «وأذكرُ يومًا، أن أتاني رجل وأنا عــلى درّاجتــي طالبًا منّي، بعد أن قــال لي أنّه يعرف عنّي وعــن زوجتي كلّ شيء، أنّهم لا يريدون منّي شيئًا سوى أن أُخبرهم ما يجري داخل اجتماعات خلايانــا الحزبيّــة، وأجبتــه ما فــشرت عينك، إنــسَ هذا الموضــوع، وبعدها طردوني من العمل وحين رفعتُ دعــوى مطالبًا بتعويضاتي، رفضوا طلبي ودفّعوني تكاليف المحكمة، ســتّين ليرة آنذاك، بحجّة أنّ عملي كان موســميًّا وليس على مدار السّــنة، وسحبوا منّي تصريح العمل العادي والعسكري لأنّ العمل على الحدود كان جزءًا من عملي ويتطلّب منّي إصدار تصريح عسكريّ فضلاً عن التّصريح العادي، لتلك المنطقة».

وحتّى سنّ التّقاعد عمل أبو فاتن في مصنع البلاستيك في المنطقة.

الرّفيق حســين علي مصطفى مباركي، أبو فاتن، هو ابن ثائر مغوار من ثوّار الستّة وثلاثين، هو أخُ شهيد طفل قتلته العصابات الصّهيونيّة وهو في حضن أخته في نكبة شعبنا لإرهاب السّكّان وحثّهم على ترك البلاد بعد تخويفهم، هو لاجئ يحلم بالعودة إلى جنّة الكون على الأرض، النّهر، يعمل من أجل العودة إليهــا بــإصرار وإرادة وتصميم وتنظيم في إطار الحزب الشّــيوعي وجبهته، هو زوج بطلة رفيقة لاطمت مخرز الشّاويش وكسرته، هو عامل يُناضل من أجــل رفاه العمّال والفلاحين وإعطائهم حقّهم في العيش بشرف وكرامة، هو إنسان بكلّ ما في الكلمة من معنى..

وجد الرّفيق أبو فاتن في الحزب الشّــيوعي، بعد أن انتسب إليه، بيته وصوته ومنــبره ومنصّته وفنارتــه ومنارته، هذا الحــزب علّمه الشّــجاعة والبطولة والبــأس والاصرار، فكفــر بمفهــوم الأنا ليكــون العمل جماعيًّــا ديمقراطيًّا

ومتناسِقًا، وشــعرتُ في حديثه الجميل والجيّاش أنّه يُكثِر من استعمال «كُنّا وعملنــا وأردنا..» لأنّه أنّ الحقّ مع الجماعة ناكرًا وصفه بالبطل لأنّ البطولة هــي لمــن صنعها ومن صنعها هو ذلــك الحزب الطّليعــي المدافع عن حقوق المظلومين والمضطهدين، الحزب الشّيوعي.

نتمنّــى لرفيقنــا وجميع أفراد عائلته، فــردًا فردًا، الصِّحَّــة والعافية والعقل السّــليم والعودة إلى النّهر ليستعيد ما يملك من أراضٍ وبساتين كما تدلّ على ذلك الكواشين التي ما زال يحتفظ بها في قلبه ويصونها في جيب قمباز والده، كذلك نتمنّى لأبــي فاتن مزيدًا من العطاء والمروءة والنِّضال من أجل رفاهية العامل والفلاح ووعدًا صادقًا أنّنا على هذه الدّرب لا نخلف الميعاد.

ونهتف مع أبي فاتن، هذا الشّيوعيّ العريق، عاليًا قول الشّاعر المناضل داود تركي أبي عايدة، في قصيدته رفرف لواءك وانتصِب أيّارُ:

أُولئِكَ الظَّلاّمُ أَصْلُ بلائِنَا
يجْتَثُّهُم من عيشِنَا الإعصَارُ
أَنتَ السّبيلُ إِلَى الخلاص منَ الوَبَا
وَنُفُوسُنَا لِبَهَائِكَ الإزْهارُ
مَا عادَ فِينَا للتَّرَاجُعِ طَاقَةٌ
أَقْدِم عليهِم واقْتَحِم أَيَّارُ
وَكُنْ المؤدِّي ظُلْمَهُم لِنهايةٍ
أنتَ الوَحيدُ وعَزْمُكَ المِقْدَارُ

عِيدِي يَوم عَوْدَتِي وعِيدِي الأوَّل مِن أيَّار

صادَفْتُ الرّفيق بطرس سِـمعان، أبا خليل، في أحد الشَّعانين قبل عدَّة أعوام، وعندمـا هنّأته بالعيد، أجابني: عيدُنـا الحقيقي، يا رفيقي، عيدان، الأوّل من أيّار والعيد الأكبر، هو حين تكون عودتنا إلى قريتنا، سُحماتا، بهاتين الجملتين يُلخّص أبو خليل مسيرته النّضاليّة التي ما زال يعيشها دهرًا على دهرٍ وعقدًا على عقدٍ من أجل هدفه السّامي.

فهـذه هي صفات الرّفيق الكادح والمُثقّف الثّـوريّ الذي خدَمَ وما زال يخدم شـعبه وطبقته العاملة مـن خلال نقابة عمال البناء ولجنـة الحيّ، حيّ ابن المُقفّع ودرج البُسـتان وبوّابة الدّير، فهذا اللاجئ في وطنِه، يُناضلُ من خلال لجنـة المُهجّرين من أجل العودة إلى بلدته وعودة باقـي المُهجَّرين إلى مدنهم وقراهم التي يبعِدون عنها بُعد مرمى الحجر ولا يسمحون لهم بالدّخول إليها، بينما أولائك الغرباء الذين أتوا بلادنا، من شـتّى أنحاء العالم واسـتوطنوها، وبنـوا عليها بيوتهم بعـد أن هدّموا بيوتنا وطردونا منهم، ليمنعوا السّـكان الأصليّـين من العـودة إلى ديارهم بحجّـة أنّها أصبحت ملكهـم، وإن دخلها صاحبُهـا الأصلي يُتّهم بانتهاك حرمة أملاك الغـير، وكأنّهم يعرفون احترام حرمات النّاس وأملاكهم..

يُداوم رفيقنا بطرس على زيارة قريته مع أهلها، مرّة واحدة في السّـنة، حين يُصادف التّاريخ العبري للنّكبة ويحتفلون باسـتقلالهم، حيث يُسـمح لأهل القُرى المُهجّرة بزيارة بلداتهم لأنّها في ذلك اليوم لا تُعَدّ مغلقةً، ونُسمّي هذه الزِّيارة بمسـيرة العودة، أملاً بالعودة، ويقول أبـو خليل « كانت بلدنا ثاني

بلد بامتلاكها لأشــجار الزّيتون بعد قرية الرّامة، لكنّ الاحتلال جرفها واقتلع غالبيتهــا، وأنــا أُداوم على زيارة بلدي مــع أهلها لنؤكِّد على تشــبُّثنا بأرضِنا وتمسكِّنا بأملاكنا وعلى حقِّنا الشَّرعي بالعودة إلى قريتنا الغالية، وفي كل مرة أزورها أولَدُ من جديد لأنّها تُعيدني إلى طفولتي ومرتع صباي والمطلوب منّا الوحدة والصّمود والأمل والعمل على المثابرة والثّبات على الموقف»...

تقعُ قرية سُــحماتا على الطّريق الموصِل بين مدينة صفد ومســتوطنة نهاريا السّــاحليّة حيث كانت تابعة لقضاء صفد في فترة الحكم العثماني، وبعدها، في فترة الحكم البريطاني تَبِعت قضاء مدينة عكّا. وتقع القرية شــمال شرق مدينة عكّا، وتبعد عنها حوالي خمســة وعشرين كم وتحيطها أخواتها، القرى المجاوِرة، سبلان وبيت جنّ وفسّوطة وترشيحا وكفر سميع وحُرفيش.

كانت قرية سُــحماتا تعدّ حوالي ألفٍ ومائتين نسمة، من مسلمين ومسيحيّين، عاشــوا بسلام وتآخٍ وانســجام وتجانس، حيث كان حمّام العريس المسيحي عند جاره المســلم والعكس صحيح ويخصُّ الفــرح أو التّرح أهل كلّ القرية، حيث أنّ فرحهم واحد وترحهم واحد وهمّهم واحد.

ســقطت القرية في الثّلاثين من شــهر تشرين الأوّل من العام ألفٍ وتسعِمائةٍ وثمانيةٍ وأربعــين، بعد أن دخلها لواءان، جولاني وعوديد، كانا قد التقيا عند مدخل القرية، بعد قصفٍ جويٍّ شــديدٍ وعنيفٍ وواسع النّطاق من الطّائرات الصّهيونيّة المُغيرة، بعد خروج جيش الإنقاذ منها، وقُتل خمسة عشر مواطِنًا، ما بين امرأة وطفل وكهل، كانوا يحلمون بغدٍ أفضل، كانوا يحلمون بمستقبل أجمل..

لقد تساقطت القنابل مثل «زخّ المطر» على رؤوس المواطنين العُزّل والأبرياء، لإخافتهمــا وإرهابهم، ليهربوا. «وبقِيَ لعرب أرض إسرائيل وظيفة واحدة – الهرب»(تصريح دافيد بن غوريون، 21/10/1948).

تذكـر الباحثة، الإسرائيليّة، الجريئة نوغـا كدمان، في أطروحتها للّقب الثّاني في موضوع علوم السّـلام والتّطوّر في جامعة غوتبورغ السّويديّة «في جوانب الطّريق وفي هوامش الوعي» كيف تُحاول المؤسّسة الصّهيونيّة والمستوطنون اليهود الذين اسـتوطنوا فلسـطين أو حتّى سـكنوا بيوت الفلسـطينيّين بعد طردهم ونزوحهم منها، مَحْوَها من ذاكرة ووعي الفلسطيني.

لقـد تجاوز عـددُ هذه القُرى العربيّة التي «أفرَغوها من سُـكّانها» (حسـب تعبيرها) وفي مكان آخر تكتب احتُلَّت، العددَ أربعمائة..

فقد نهج الاحتلال على هدم البيوت ومسحها مع الأرض، ليمنع عودة اللاجئين إلى ديارهـم، حيث قام بعدها بزرع وريٍّ الأشـجار العاليّة والكثيفة حتّى لا تظهر بقايا البيوت المهدَّمة للعيان «وتُشوِّه المنظر» (حسب تعبيرهم)، كذلك كانت تمنح مُقاولي البناء الحقّ في الدّخول إلى تلك القُرى لجمع أحجار البيوت المهدومة وبناء بيوتٍ أخرى، للمسـتوطنين، في نفس المكان أو على مقربة منه أو في مكان آخر، بعد أن تُعطي المكان اسمًا آخر لا يمتّ بصلة لاسمه العربيّ أو تمنحه اسـمًا قريبًا منه، أو تمنحه اسمًا توراتيًّا، كان الهدف تهويد البلاد والذّاكـرة والانتماء ومحو هويّـة الوطن العربيّة وعروبة الذّاكرة والشّـعور، ومحو أي أثر لهذه البيوت، محو كلّ شيء عربيّ.

فقد أقيمت مستوطنتان على أرض سُحماتا، مستوطنة حُوسِن في جنوب غرب القرية ومسـتوطنة تسوريئيل في شرقها، حيث اقتطعوا من الأرض مساحات واسـعة لتربية المواشي والدّواجن، ويُعقِّب رفيقنا أبو خليل قائلاً: «يظهر أنّه لا يحقّ لنا العيش في أرضنا، حسب قاموسهم، وأنّه يحقُّ لحيواناتهم الأليفة العيش في أرضنا أكثر منّا»..

عملـت المؤسّسـة الصّهيونيّة على «منع الفلسـطينيّين من العـودة أو العمل في أرضهـم عن طريـق حرقها أو قتلهم بإطلاق الرّصـاص عليهم إن عادوا،

وتأجـير الأراضي العربيّة لمسـتوطنات يهوديّة، وإقامة مسـتوطنات يهوديّة جديدة على أراضي اللاجئين وإسـكان اليهود في بيوتهـم، ومصادرة قانونيّة لـلأراضي حسـب قوانين الطّـوارئ البريطانيّـة، والإعلان عن هـذه المناطق، مناطق عسـكريّة مُغلقة بإحكام للـضّرورات الأمنيّة وتوكيـل الملكيّة التّامّة للكـيرن كييمت وجهات حكوميّة رفيعة المسـتوى..» (في جوانب الطّريق وفي هوامش الوعي، ص 23).

يُعرِّفُنا رفيقنا أبو خليل على نفسـه: «اسـمي بطرس خليل أسـعد سـمعان، ولِدْتُ في قرية سُـحماتا في العاشر من شـهر أيلول من العام ألفٍ وتسعمائة وأربعة وثلاثين، وتملك عائلتي نحو مائة وثمانين دونمَ أرضٍ أو يزيد، أنهيتُ الصّـفّ الرّابع الابتدائـي في القرية وانتقلتُ بعدها إلى قرية فسّـوطة لتكملة دراسـتي، أذكر شيئًا، ربّما من ذاكرتي أو ذاكرة من حدّثني في طفولتي، عن ثُوّار الستّة وثلاثين في بلدنا أنّهم حين دحروا الانجليز، بعد أن قتلوا بعضًا من جنـوده وأسروا قائدهم حين حاولوا احتلال قريتي، لكنّهم عادوا للانتقام، إذ بعد أن أحكموا الطّوق حول عنق سُـحماتا، دخلوها وأفسدوا المؤن وحطّموا أثاث المنازل وأهانوا سُكّانها وأزهقوا أرواحنا وحطّموا خوابي الزّيت والسّمن ورشّـوا القمـح والطّحين في الشـوارع حتّى كِدْتَ تحسـب أنّ الأرض بيضاء وخوفًا على أنفسنا هربنا من القرية لكِنَّنا عُدنا إليها بعد أيّام معدودة».

كان عمـر أبي خليـل أربعة عشر عامًا حين سـقطت قريته، في عـام النّكبة، بأيدي لوائي غولاني وعوديد، وهُجِّرَ أهلها وبقي في كنيسـة القرية المتقدِّمون في السّـن وحضرت والدته إلى المدرسـة في فسّـوطة لأخذه والهرب إلى لبنان، بعـد أن أقلّتهـم الشّـاحنات إلى قرية كفر برعم، كذلك هرب أخوه أسـعد إلى لبنان، لكنّهم عادوا إلى الوطن بعد بضعة أيّام مع الرّفيق شـفيق متري، بعد أن سـمعوا حال عبورهما الحدود نداء شـخصٍ من فسّوطة، لا يذكرُ اسمه،

«سايق عليكو الله إنكو ترجعوا ولا تتركوا بلادكو» وبعد ذلك عاد أخوه أسعد، ولم تكن هناك حاجة لاستعمال قوانين لَمِّ الشّمل حيث أن عودتهم تزامنت مع عمليّة إحصاء السّكّان ولم يعلم أحد بنزوحهم، وسكنوا قرية البقيعة. أمّا الذين احتموا في كنيسة الكاثوليك، طُرِدوا منها لاحقًا في ليلة عيد الميلاد من عام النّكبة إلى الحدود اللبنانيّة قرب قرية كفر برعم، ومن لم تُسعِفه رجلاه في الهرب والاختباء وجد أهلُهُ أنّ رصاصة الغدر استقرّت في رأسه.

نصّ رفيقنا بطرس سمعان في الأوّل من شهر تمّوز عامَ ألفٍ وتسعِمائةٍ وتسعةٍ وأربعين رسالةً، كتبها بخطٍّ جميلٍ طيّب الذّكر أبو عفيف سمعان، موجَّهةً إلى مدير مكتب الأراضي المتروكة مُذيَّلةً بختم وتوقيع مُختارَي البلد أيّوب إيليّا الصّالح وحسين عبد الله الصّالح طالبًا فيها إعادة الأرض لعائلته، حيث تملك عائلته نحو مائة وثمانين دونمَ أرضٍ أو يزيد، والتي تركها اضطراريًّا لظروف الحرب (كما جاء في نصِّ الرّسالة) لينجو مع عائلته من دمارها بعد أن بقيَ في حدود الدّولة ولم يتركها، بقيَ في البلاد مقيمًا ويشهد المختارون والوجهاء على ذلك بعد أن حصَلَ على أوراق التّسجيل من دائرة الإحصاء، ويُبيِّن فيها حقّه في عودته إلى بيته لترميم ما أصاب البيت من دمارٍ ليأويه وعائلته وأهله وزرع أرضه وفلحها في سبيل العيش من أملاكه، يقول رفيقنا أبو خليل: «كان ردّ دائرة الأراضي المتروكة أن هدمت بيتنا بالكامل، بعد أيّام معدودة من استلامهم رسالتي».

«بدأتُ العمل أجيرًا في قطف زيتون أرضنا وزيتون قريتنا، عند مقاولٍ أصدر تصريحًا لنا للعمل في كرومنا، حيث استغرق عملنا إثنتي عشرة ساعة يوميًّا مقابل خمسة قروش.. بعدها اشتغلْتُ في البناء حيث كان عليَّ حفر أساسات في الأرض لإقامة المنشآت عليها، ويجب أن يكون عُمق الحفرة مترين ونصف المتر، ومن لم يحفر حفرة ونصف في اليوم، كان يُحرَم من أجر ذلك النّهار،

مع أنّ المعاش المدفوع كان أقلّ بكثير من تسـعيرة الهستدروت لعمّال البناء، فضـلاً عن أنّ الشّركة التي كنتُ أعمل فيها هي شركة «سـوليل بونيه»، أكبر شركـة بنـاء في الدّولة، وقمتُ مع رفاق لي في ورشـة العمل بتحريض العمّال عـلى الإضراب وأنّ علينا العمل يدًا واحدة لإنجاحـه، الأمر الذي لاقى تجاوبًا واستحسـانَ العمّال، لكنّ العمّال بعد أن حضر مسـؤول الشّركة إلى ورشـة العمل حال سـماعه الخبر، خنعـوا ورفضوا الالتزام بقـرار الإضراب فقمتُ مسـتنكِرًا تصرّفهم وتصرّف المسـؤول المُكْرِه الذي حـضر لإرهابهم ناجحًا، فتركتُ العمل ولم يُدفع لي معاش الأيّام التي اشتغلتُهَا، لكنّهم بعد ذلك بعام واحـد، حين شـعروا على جلدهم الظّلم أكثر، نظّمـوا إضرابًا حصلوا فيه على جميع مطالبهم، تقريبًا،لم أغضب من تصرفهم، لكنّي شعرتُ بنشوة عمّاليّة منصـورة من ثمار تحريضي على صاحب العمـل وظروفه والمطالبة بحقوق أفضل للعمّال..»

انضـمَّ الرفيـق أبو خليـل إلى الحزب الشّـيوعي بعـد انتصار ثـورة الثّالث والعشرين من شـهر تَمُّوز في مصر، حيث كانت لها، في نفسـه، أبعاد معنويّة وقوميّة واشـتراكيّة وعُمّاليّة، حيث لَم يتجاوز الثّامنة عشرة، وزاد من قناعته بصواب الطّريق محاضرات الرّفيق خالد الذّكر شفيق متري.

قـاد، أوّل انتخابـات بلديّة بعـد الاحتلال، مع ثلاثة رفاق مـن فرع البقيعة، كانوا الشّيوعيّين الوحيدين في القرية، حينها، حيث كان على القائمة أن تكون مكوّنةً من خمسـة مرشّحين وهم: رزق سـمعان، الياس عبده وكمال الحاج وحتـى يكـون نصاب القائمـة قويمًا في مرشـحٍ خامسٍ، انضـمَّ إلى القائمة الانتخابيّة والد الرّفيق كمال، ميخائيل الحاج ابنُ الثّانيةً والسّبعين، في حينه، ونجحت القائمة بإدخال أوّل شيوعي إلى المجلس البلدي أو حتى أوّل شيوعي في جميع بلدات الشّـمال، وأُقيم احتفال كبير في القرية يليق بالنّصر بحضور

الرّفيق الشّاعر توفيق زيّاد..

بعـد أن أزهقـوا روحه بإصـدار التّصاريح، انتقل للعمل والسّـكن في مدينة حيفا عام ألفٍ وتسـعمائةٍ وسـتّين، حيث سـكن في بوّابة الدّيـر في قمّة درج البستان المجاور لبداية شارع ابن المُقفّع.

يـروي قصّة ابن عمّه الذي كان عاملاً ممتـازًا في قطاع البناء، «معلِّم عمار»، حيـث لَم يقدر على إصدار تصريح عمل لكونه شـيوعيًّا، لذلك عمل بما يأتي ويتسـنّى لـه ويُصادِفـهُ من عمل، حيـث عمل في فلاحـة الأرض عند فلاحي البقيعة بسعرٍ زهيدٍ، ولم يتنازل عن شيوعيَّته..

بـدأ العمل، في حيفا، في صبِّ الموزايكا مع ابن عمِّه وجيه سـمعان وقد كانوا يدفعـون لهُمـا أجرًا أقـلَّ من التّسـعيرة الهسـتدروتيّة، دون أجرة السّـفر وتأمينات صحيّة خاصّة بعمال البناء، فقد قاما بالتّجنيد للمطالبة بتحسـين ظروف العمل على أن يلوِّحوا لهم بالإضراب، كوسـيلة ضغطٍ، إن لَم ينجحوا في تحقيـق مطالبهم، حيث جنّدوا لهـذا النِّداء إثني عـشر عاملاً يذكر منهم الرّفاق محمود العمر وعـادل أبو الهيجاء ولطف مطر.. لقد انتظم الإضراب ونجح حيث تواجدوا في مكان العمل دون أن يعملوا شيئًا مدّة أسبوعين. لكنّ الأمر أغاظ صاحب العمل حيث أتى «وشـتمني وهدّدني أملاً منه أن أضربه أو أردّ على استفزازه، بقيت صامتًا لا أردّ عليه، لكن بعد لحظات حضر رجال الشّرطة وسـاقوني للمعتقل بتهمة تهديده بسـكين كانت في حوزتي» كانوا يريـدون منه كسر الإضراب والتّوقيـع على تصريح يدعو إلى حلّه، لكنّه ادّعى أنّـه لا يقـرأ العبريّة، ويريد محاميًا ليُدافع عنه، فبعـد أن رفضَ التّوقيع على تصريحهم بصّموه بإبهامه عنوةً، وعاد ليجد نفسـه ذاهبًا إلى مكان الإضراب الـذي نجح لاحقًـا وحصلوا على جميع مطالبهم من أجور حسـب تسـعيرة النّقابة، وتأمينات خاصّة وتحسين ظروف العمل والسّفريّات..

يتحـدّث رفيقنا أبو خليل عـن الكثير من النّضـالات العمّاليّة التي قادها مع رفـاق وزملاء له في العمل وأثمرت بنجـاح تامّ ويذكر من هؤلاء الرّفاق أديب شرّش، نعمان توما، شفيق عودة (المعلّم)، حنيف حنيف ومحمود كنانة، لقد قادوا إضراباتهـم بقوّة صوّانيّة وإرادة حديديّة بوحدتهم ورباطة جأشـهم وشـجاعتهم التي لا تعمل للخوف حسـابًا ولا للتّهديد جوابًا سـوى التّحدّي والصّمود والإقدام..

عمل الرّفيق بدأبٍ ونشـاطٍ ومـا زال يعمل رغم تقدّمه في السّـن بهمّة عالية وعزيمـة فتيّـة وعنفوان شـبابيّ في لجنة الحيّ حيث ثابـر خلال عقدين من الزّمن على النّضال من أجل تغيير وإعادة بناء البُنى التّحتيّة في حيّ ابن المقفّع بالتّعاون مع النّاشط الأستاذ أسامة هاشول ولجنة الحيّ ونائب رئيس بلديّة حيفا السّـابق، عن الجبهة، المربّي اسـكندر عمل، فقد قامت البلديّة بتوسيع الشّـارع حيث حلّت مشكلة أزمة السّير ومشكلة مواقف سيّارات الحيّ كذلك حُلّت مشـكلة الإنـارة، لكنّه يُتابع النِّضـال مع أهل الحيّ ضـدّ القرار الذي وضعته البلديّة بفرضها على سـكّان الحيّ الاشـتراك بتكاليف مشروع البُنى التّحتيّة، ألأمر الذي لَم تُطالبهم به البلديّة قبل ذلك ولَم تضع هذا الشّرط قبل بدء ومباشرة العمل..

كذلـك قاد نضـالاً بلديًّا آخر من أجل ترميم درج البسـتان الـذي يَصِل بين بوّابة الدّير وشـارع ابن المُقفّع ونجح في تركيب «درابزين» للدّرج لمسـاعدة المسـنّين والمُعاقين على الاتِّكاء أثناء الصّعود والنّزول منه، وبقي مطلبٌ واحدٌ للـدّرج وهو ترميمه حيث مـا زال يداوم دون كلل على هذا المطلب حتّى يُنفّذ التّرميـم، وحـين تكون الانتخابـات في عزّها نراه، من الأصايـل، خَيْلاً أصِيلاً يعمل بروح نضاليّة دون ملل في منطقة غرب حيفا ومحطّة الكرمل وشـارع يافا حيث يحرثها كما يحرث الفلاح أرضه البور لتسجيل نصر جديد للحزب

والجبهة..

الرّفيق بطرس خليل أسعد سمعان، أبو خليل، شيوعيٌّ يطمح إلى تحقيق العدالة الاجتماعيّة في وطنه، وتحقيق الحقوق الكاملة للعمّال والفلاحين في وطنهم، ابنُ سحماتا المُهجّرة، لاجئٌ يناضلُ بروحه وفؤاده وعقله مع رفاق حزبه وجبهته من أجل العودة إلى ديار آبائه وأجداده، حيث لا تنازل عن الحقّ في العودة ولا تنازل عن العودة إلى الحقّ ولا تنازل عن الأملاك، أملاك سحماتا كباقي أخواتها في الهمِّ والغمّ والعذاب، أبو خليل لا يتنازل عن حقّه في شمّ النّسيم في بلدته، في خلّة الدّوالي وبقبوش والزّعترة والبلاّنة وجورة اللقيش، ولا تنازل عن حقّه في الشّرب من العين أو من عين البازل ونبعة المويصة ولا تنازل عن مائة وثمانين دونمًا تملكها عائلته، بعد أن جرّده الاحتلال من كلّ شيء وأصبح لا يملك بعده شبرًا واحدًا منها، ناشطٌ في لجنة العمل البلدي يعمل بكدٍّ ونشاط من أجل حقوق سكّان الأحياء المشروعة في العيش في أحيائهم بعزٍّ وكرامةٍ وفي ظروف تليق بالعصر الذي يعيشون وفي مستوى الأحياء اليهوديّة الأخرى، نقابيٌّ خدم جمهور العمّال، قاد ووجّه نضالاتهم من أجل الحصول على لقمة العيش بشرف وتحسين ظروف العمل المُذلّ خاصّة في مجال عمّال البناء، رئيسٌ للجنة المراقبة للحزب الشّيوعي، منطقة حيفا لسنين طويلة، بقي صامدًا، شامِخًا وثابتًا على العهد لَم تنل منه أنواء البحر ولا أعاصير التّغيير، عالميًّا وقطريًّا، قيد أنملة.

دُمتَ رفيقًا، معطاءً، كريمًا، عزيزًا وشريفًا ودامت لك عائلتك الكبيرة والصّغيرة ودمت لهما ما دام الدم الحيّ يجري في عروقك أحمر حارًّا وما دام هواء الجليل يمرّ عليلاً شافيًا فوق سحماتا ليطمئنَّ ويُطمئنكم عنها، ويعدكم بأنّ لا عيد غير عيد العودة ولا رجوع أو تراجع عن العودة، كما تردّد روحك: عِيدِي يَوم عَوْدَتِي وعِيدِي الأوَّل مِن أيَّار..

ونهتف مع أبي خليل، هذا الشّــيوعيّ العريق عاليًا قول الشّــاعر الفلسطينيِّ الكبير أبي سلمى:

يَا مَنْ يَعُزُّونَ الحِمَى
ثُورُوا عَلَى الظُّلْمِ المُبِيد
بَلْ حَرِّرُوهُ مِنَ المُلُوكِ
وَحَرِّرُوهُ مِنَ العَبِيد

"بالفعل كنّا الطّليعة"

حـينَ نقولُ عـن امرأة أنّها أخت الرّجال نقصد فيهـا أنّها صلبة العود، قويّة العزيمة، سـديدة الرّأي، ثابتة في نهجها، وشُـجاعة في معركتها ومقدامة في خطاهـا، لا تهـن ولا تخاف أو تهاب شـيئًا، وقد جاء في الحديـث الكريم أنّ النِّسـاء شـقائق الرّجال. وإن كانت الرّفيقة عضوًا في الحزب الشّـيوعي فإنّ الرّفيقات شـقائق الرّفاق حيث يُكَوّنون جسمًا واحدًا يكمل فيه الجزءُ جزءَه الآخر فليسـت كلّ النّسـاء هنَّ أخوات الرّجال وليـس كلّ الرّجال رجال وهنا لا نعنـي فيما جاء أنّنا نؤكّد عـلى الانتماء الجنسي هذا دون الآخر، ذكوري أم أنثوي، فالنّسـاء مثيلات الرّجال، لا أحدٌ قوّام عليهنَّ وحقّ الذّكر كحقِّ الأنثى بالتّناصف والعكس صحيحٌ.

والمرأة هي النّصـف الأوّل للمُجتمع أو أكثر بكثير من نصف المُجتمع فلولاها لم نكُن ولم نبقَ ولم ندُم ولَم ننتصر أو نصمد..

لذلك وضع حزبنا الشّيوعي بندًا مهمًّا في دستوره أنّه يُناضل من أجل مساواة المرأة في كلِّ المجالات ولإيقاف كلِّ أشكال العنف والقمع تجاه النّساء.

نعرِّفكم في هذه الحلقة على أخت الرّفاق وشـقيقتهم، الرّفيقة أوديت إبراهيم حنّـا نمر، وُلِدت في مدينـة النّاصرة، عاصمة الجليل، في العشرين من شـهر كانون ثاني عام ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثةٍ وثلاثين.

تـوفّى والدهـا وهي طفلـة، فلَم تعرفـه، وتركـت والدتها البيت بعـد وفاته، واحتضنـت الجـدّة الأولاد، وتوكّلـت تربيتهـم، حيـث ربّتهم عـلى التّواضع

والعصاميّة والإباء والشّجاعة والمقاومة والكفاح ضدّ الظّلم فكانت جدّتها الزّيتونة الخضراء التي لا تُسْقِط ثمارها بعيدًا عن جذعها.

بعد أن أنهت رفيقتنا أوديت الصّفّ السّادس في المدرسة الحكوميّة في النّاصرة، اندلعت حرب احتلال البلاد حيث حالت دون تكملة دراستها. فقد كان عمرها حينها، خمسة عشر عامًا. إنّ تركها لمقاعد الدّراسة آلمها جدًّا، فقد أحبّت المدرسة والعلم والتّعليم وبهذا فقد قضى الاحتلال على جميع أحلامها وأمانيها..

تقول الرّفيقة: «تركتُ المدرسة بعد الاحتلال وتوكّلت جدّتي تربيتي مع أخويَّ، مع أنّي كنت طالبة مجتهدة وأحببتُ المدرسة والدِّراسة كثيرًا، لكنّي لازمت البيت لمعاونة جدّتي في عملها البيتي. واستمرّت علاقتي بزميلاتي على مقعد الدّراسة وداومت على المطالعة والتّثقيف الذّاتيّ كهواية خلال عملي المنزلي في بيت جدّتي».

التقت بالشّيوعيّين عام النّكبة، حين أرادت المشاركة في مظاهرة ضدّ ترحيل الأهل من الحارة الشّرقيّة في المدينة. فقد قام الحاكم العسكري بمحاولة طرد المئات من تلك الحارة بحجّة عدم امتلاكهم تصاريح إقامة وهويّات زرقاء.

لقد عاد النّازحون إلى مسقط رأسهم، النّاصرة، بعد أنْ كانوا قد تركوها خوفًا على أرواحهم من عبث جيش الاحتلال بأرواح السّكّان العرب أهل المدينة الأصليّين، كما جرت عادته في باقي مناطق الوطن.

وحين عادوا منحت السّلطات قسمًا منهم الهويّات الحمر تمهيدًا لنقلهم لاحقًا عبر الحدود لطردهم من بلادهم التي ولدوا فيها، أرض آبائهم وأجدادهم أو ليكون تجديد الإقامة تحت رحمتهم والقسم الباقي عملت جاهدةً على طرده في الحال، وبدأت معركة الهويّات الحمر في النّاصرة لمنع ترحيلهم وبدأت كذلك معركة البقاء في أرض الأجداد، وننشِد معًا نشيدًا طالما أحبّت رفيقتنا

أوديت إنشاده:

عليك منّي السّلام يا أرض أجدادي

ففيك طاب المقام وطاب إنشادي

حضر الرّفيق صُبحي السّروجي، أبو عاطف، إلى دار جدّتها ليسأل عن خالها إيليا نمر، حيث كان أبو عاطف ورفاقه يجمعون المؤن للسّكّان المحاصرين في الحارة الشرقيّة، وحين سألته أوديت عن هويَّته قال لها نحن من عصبة التّحرّر وبعد أن فسّر لها غايته من زيارته، حملت أوديت ابنة الخامسة عشرة، بمبادرتها الخاصّة، سلّتها غير آبهةٍ بذئب الغاب وبدأت تجمع المؤن من الجيران لتُسلّمها للرّفاق في الجابية، والجابية هي عبارة عن المكان الذي يسقون فيه الماء للدّواب والمواشي ويُطعمونها، فضلاً عن وجود العلف وبعض المواد الزّراعيّة، وحين وصلت الجابية لم تجد فيها أحدًا، لأنّ العسكر نقل المُعتقلين بالحافلات إلى المسكوبيّة، فسارت مشيًا على الأقدام وفي عزّ الحرّ إلى هناك.

تقول الرّفيقة أوديت:»رأيت هناك شيئًا زعزع كياني، رأيتُ بطولة قلّ مثيلها، رأيتُ النّساء والرّجال يفترشون الأرض أمام شاحنات التّرحيل، وحين سألتُ عنهم، أجابوني إنّهم الشّيوعيّون أعضاء عصبة التّحرّر الوطني».

فقد قال شاعر الشّعب توفيق زيّاد:

قالوا شيوعيّون، قلتُ أجلّهُم

حُمرًا بعزمِهم الشُّعوب تحرَّرُ

قالوا شيوعيّون، قلتُ منيّةً

موقوتةً للظّالمين تقدّرُ

وتُتابع حديثها:»وأعجبتُ بهم وببطولتهم، وسألتُ نفسي كيف يُضحِّي هؤلاء بأنفسهم من أجل بقاء غيرهم، الأمر الذي فتّح آفاقي وحبِّ استطلاعي وبدأت

أقـرأ أدبيّات العصبة واشـتركت في عدّة نـدوات وفعّاليّـات لجمعيّة النّهضة النِّسـائيّة التّابعة لعصبة التّحرّر حيث كان مركز الجمعيّة في بيت السّـيّديْن زكريا وإسـماعيل توما قرب المسـكوبيّة، وأوّل محاضرة كنت قد اسـتمعتُ إليها واسـتمتعتُ بها كانت للرفيق فـؤاد خوري، أبو جابر، عن دور المرأة في المجتمـع، حيث أعطى مثالاً عن دورها في مجتمعنا: بأنّ الطاولة ترتكز دائمًا على أربعة أعمدة ودور المرأة هو كدور ركيزة هذه الطّاولة فإن كُسِرت هبطت الطّاولة وطار كلّ ما عليها، واختلّ توازنها وبَطُل استعمالها وتُرمى بعدها في المزبلة أو تُحرق وهكذا كان لي الشّرف أن أتعرّف عليهم وأنتسب إليهم».

انتسـبت الرّفيقة أوديـت إبراهيم حنّا نمر إلى الشّـبيبة الشّـيوعيّة في مدينة النّاصرة قبل ثمانيةٍ وخمسين عامًا، في العام ألفٍ وتسعِمائةٍ وواحد وخمسين، حيـث كان عمرها ثمانية عشر عامًا، وبعد قبولها عضوًا في صفوف الشّـبيبة ناشـدت بنفسـها جميع الرّفاق والأصدقاء بأن يدعـوا أخواتهم وصديقاتهم للانضمام للشّـبيبة حتّى تكون بالفعل شـبيبة تضمّ شبابًا وشابّات، ويكون شـعار المسـاواة والوحدة الوطنيّة صحيحًا «وحدة وحدة وطنيّة الشّب بحدّ الصّبيّة» وقد لاقى نداؤها آذانًا صاغية حيث استطاعت مع رفاقها ورفيقاتها توسـيع صفـوف الحلقـات الشّـبابيّة لتضمّ رفـاق ورفيقات مـن النّاصرة وقـد كانـت اللقاءات تُقام في نادي النّهضة النّسـائيّة، وحـين بلغت الحادية والعشرين قُبِل طلب انضمامها للحزب الشّـيوعي، عام ثمانية وخمسـين من القرن الماضي.

تذكر أنّها شـاركت مرّة في مظاهرة رفع شـعارات للشّبيبة في النّاصرة حيث كان صوتهـا يصـدح عاليًا بالهتافات الدّاعية إلى سـقوط الحكم العسـكريّ وتحريـر الأسرى والمعتقلـين وعودة اللاجئـين وتقول الرّفيقـة أوديت:»وإذ بالشرطـة تحضر لاعتقالي فهربتُ، وكنتُ ألبس بلوزة بلونين مختلفين، وكان

اللــون الدّاخلي يختلف عن الخارجي، وحالاً غيّرت بلوزتي حيث أصبح اللون الدّاخلي خارجيًّا وهكذا لَم تســتطع الشّرطــة معرفتي مع أنّي مررتُ بقُربهم ونجوتُ من الاعتقال».

رفض الحاكم العســكري إصدار تصريــح لمظاهرة الأوّل من أيّار في النّاصرة التي دعا إليها حزبنا الشّــيوعي في العام ألفٍ وتســعمائةٍ وثمانية وخمسين، ســنة العاشــور أي مرور عشر ســنوات على الاحتلال، بعد أن أفشــل رفاقنا احتفــالاً كانت قد أقامته الحكومة ليكون احتفالاً مركزيًّا بعيد الاســتقلال في النّاصرة تُظهر فيه للعالم مدى رضا وســعادة عرب فلســطين لقيام الدّولة، بعد أن منعت رفاقنا من التّظاهر صباحًا وقرّر رفاق الحزب تنظيم مظاهرة كبيرة حيث قام بتجنيد جميع الرّفاق من المنطقة وخارجها لإنجاح المظاهرة كــردٍّ على احتفالهــم وقد أتت وفود من القرى المجــاورة إلى النّاصرة ليلاً وفي ســاعات الصّباح الباكر وتوزّعوا على المناطق المحيطــة بالمكان المعدّ لانعقاد المظاهرة، وقد كان ردًّا ملائمًا للحاكم العسكري وزمرته وأعوانه، وصفعة في وجــه كلّ متطاولٍ على حقّ رفاقنا في التّظاهر ضدّ الاحتلال ومن أجل العودة وحقوق العاملين، وكان على رفاقنا الإثبات، أنّهم «قدٌّ التَّحدِّي وغصبن عن بن غوريون والبوليس وما لفّ لفّهم وكانوا على قدٍّ الحِمل..»

وتقول الرّفيقة أوديت نمر:»لقد أرسلني رفاق الحزب إلى منطقة تواجد رفاقنا مــن القرى المجاورة ليبدأوا في التّحرّك وقــد تعالت حناجر الرّفاق بالهتافات المنادية بســقوط الحكم العســكري وبحياة عبد النّاصر، وقد استطاع رفاق الشّــبيبة تجنيد غالبيّة أهل النّاصرة، بعد أن أفشلنا احتفالهم الذي تحوّل إلى احتفال هــشٍّ وراقصٍ على هزّات خصر فايزة رشــدي ونغمات عود وصوت موشــيه إلياهــو ومقدِّمة البرامج ليــلى نجّار حيث انضمّ المشــاركون في ذلك الاجتمــاع إلى مظاهــرة حزبنا وبدأوا بترديــد هتافات رفاقنا لنصرة شــعبنا

وحزبنا، فبعد أن حاولوا الاعتداء علينا هتفنا سويَّةً شعبنا شعب حيّ دمنا ما بصير ميّ، وقد أقنعنا جميع المشــاركين بأنّ احتفال الحكومة هو رقص على قبور شــهدائنا واحتفال بتشريد شعبنا ونشبت اشــتباكات دامية بين رجال الشّرطة والمتظاهرين واعتُقل يومها حوالي تسعمائة معتقل».

اعتُقلت في عام ألفٍ وتسعمائة وثمانية وخمسين، بعد النّجاح الكبير لمظاهرة الأوّل من أيّار في النّاصرة وقد حُكِم عليها بالسّــجن مدّة شهرٍ مع دفع غرامة ماليّة قدرها خمسين ليرة وإن لَم تدفع الخمسين ليرة تُسْجن شهرًا آخر، فقد قال لها القاضي:

«حتّــى تتعلّمين من صغرك عدم إلقــاء الحجارة وعدم تجنيد الأطفال للقيام بهذا العمل» لأنّ مهمّتها كانت في تلك المظاهرة تجنيد وحشد أكبر عدد ممكن من الأطفال للمشاركة في مظاهرة الأوّل من أيّار وحين نجحت في هذا التّجنيد «طار ضبان عقلهم».

لقد كانت حياة السّــجن حياة سياسيّة نشِطة ونقاشــات حادّة وجادّة بينها وبين السّجينات وحين دعتها مديرة السّجن، عراقية المولِد، لجلسة استفسار حول حلقاتها السّياســيّة داخل السّجن، استطاعت أن تُمرّر للسّجّانة موقف الحزب من النّضال العربي اليهودي وحلّ القضيّة بدولتين للشّعبين وحدّثتها عن قرار التّقسيم الأمر الذي أثار استغرابها لجهلها مواقف حزبنا الأمر الذي زاد احترامها لأوديت. لقد علّمت وأنشدت داخل السّجن أناشيدنا الثّوريّة مع سجينات يهوديّات من أصل أوروبي شرقي، فقد أنشدت معهنّ نشيد القرى الثّائرة ويا شعوب الشّرق، وحين خرجت من السّجن قُمن بتوديعها والعبرات تقطر من مآقيهنّ، كذلك استلمت من مديرة السّجن أجر الطّريق.

لَم يثنِها السّــجن عن مواصلة الطّريق، فقد تحرّرت يوم الجمعة من ســجن نافيــه ترتســا، يوم صدور صحيفة الحــزب الاتّحاد، فذهبــت حال وصولها

مدينــة النّاصرة إلى المقرّ لتأخذ مكانها في توزيع الصّحيفة وتذكر أنّها وزّعت في منطقــة السّــوق كميّــة مضاعفة مــن العدد الــذي كان يوزّع عــادةً، وقد لاقــت تجاوبًا كبــيرًا وتضامنًا عظيمًا من أهل البلــد وبعدها وزّعتها في الحيّ النّمســاوي. وقد كتبت، لاحقًــا، مقالاً في مجلّة الغد بعنــوان «عادات وتقاليد تســقط أمام الإرهاب» تبيّن فيها أنّ اعتقال النّســاء لأسباب وطنيّة ما هو إلا وسام شرف لها، وتسقط باعتقالها كلّ العادات والتّقاليد.

حــين كانت غائبة عــن قيامها بالواجــب بتوزيع الصّحيفــة، عندما كانت في المعتقل، قامت جدّتها ابنة الخمســة والسّــبعين عامًا وهي تتّكِئ على العكّاز، بتوزيــع الاتّحــاد في منطقة العين وكذلــك جمعت التّبرعــات لنصرة الأسرى والمعتقلين.

كذلك كانت الرّفيقة أوديت نمر عضوًا في جوقة الطّليعة للإنشــاد حيث كانت من مجموعة ألتو وكانت ألسّولو في الألتو.

لقد تأسّست الجوقة في شهر أيلول من عام النّكبة، في مدينة النّاصرة وذلك خــلال أحدى اجتماعــات عصبة التّحــرّر الوطني. وتصــوّروا التّوقيت، بعد الاحتلال تتأسّــس فرقة للإنشــاد! وإن دلّ هذا على شيء، فإنّه يدُلّ على روح المقاومة والتّضحية ورفض الذّل والعنصريّة وقبول الإخاء والتّســامح وأخذ كلّ ذي حــقّ حقّه. وتذكر الرّفيقة أوديت أنّه حين أنشَــدوا، في الاجتماع، مع فرقة «رون» لفرع الحزب الشّــيوعي في تلّ أبيب نشــيد الأمميّة، تأثّروا كثيرًا وثارت في نفوسهم النّشوة وعزّت عليهم عدم معرفة كلمات النّشيد بالكامل أو لحنه، وأرادوا حفظ هذا النّشــيد، فتوجّه الرّفاق بشارة عبّود وصليبا خميس وحنّا أبو حنّا إلى الموســيقار ميشــيل درملكنيان الّذي كان حاضِرًا الاجتماع وشــاوروه في الاقــتراح وقد بــارك الفكرة حيــث أخذت التدريبــات مجراها. واســتأجروا غرفة قبالة المســكوبيّة واستأجر الموســيقار ميشيل درملكنيان

البيانو من حيفا ونقله إلى النّاصرة.
بـدأت الفرقة كجوقــة للرّفيقات وبعد ذلــك انضم بعض رفاق الشــبيبة إلى الجوقة.
كانت جوقة الطّليعة تُحيي المهرجانات والمؤتمرات الّتي كان يُقيمها الحزب بأناشــيدها الثّوريّة والوطنيّــة المحليّة والعالميّة وكذلــك كانت تجوب القرى والمدن.
وكان حضورها في كلّ مناســبة من أهمّ أســباب نجاح الاجتماع، مع أنّ آلات الجوقة الموســيقيّة كانت عبارة عن عود، كمان وطبلــة، وكانت في النادي آلة رابعة هي البيانو.
تقول الرّفيقة أوديت:» دُعينا إلى كفر ياســيف لإحياء مهرجان شعبي هناك، وكان التّنقّــل بين القرى والمدن بتصريح من الحاكم العســكري الذي رفض إعطاءنــا إيّاه فما كان منّا إلا السّــفر دون تصاريح وســافرنا في حافلة نقل مواد بناء، تراكّ، واعتقلتنا لعدم حيازتنا على تصاريح، من التّاســعة مســاءً إلى الثّامنة صباحًا، وقد أنشــدنا طيلة تلك الليلة أناشيدنا الشّعبيّة والثّوريّة، قرقعناهم، حيث كان السّــجن في تلك الليلة مكانًا للتّدريب على الإنشــاد، وقد أفرجَ عنّا في اليوم التّالي..
وتذكر رفيقتنا أوديت أنّ رئيس جمعية مكافحة السّرطان في الناصرة، السيِّد نعمــة أيّوب، قد دعا فرقة الطليعة لإحياء أمســية لها في ســينما أمبير، حيث كان الحضــور غفيرًا، وقد بدأوا الاحتفال بنشــيد العودة، حيث كانت الرّفيقة عفاف ديب تدخل النّشيد بأوّل سولو وبعدها تدخل الرّفيقة أوديت بالسّولو الثّاني، وخلال النّشــيد قطعوا التّيّــار الكهربائي عن القاعة، لكنّ الشّــموع المُحّــضرة للحظات كهــذه، لأنّنا كنّا دائمًا على اســتعداد لكلّ طارئ، أضاءت المسرح واستمرّ الإنشاد في الظّلام وبدون مكبّر صوت، الأمر الذي أثار إعجاب

الجمهور الغفير الصّامت والسّامع بكلّ حواسه وكانت موجات التّصفيق تهزّ جدران قاعة السينما! «بالفعل كنّا الطّليعة».

أرسل الحزب الشّيوعي الرّفيقة أوديت للدّراسة في الاتّحاد السّوفييتي، في المعهد العلمي بموسكو على اسم لينين، في العام ستّة وستّين من القرن الماضي، موضوع العلوم السّياسيّة والاجتماعيّة، حيث ما زالت تُتقن اللغة الرّوسيّة إلى يومنا هذا، وبعد أن تخرّجت من الجامعة وعادت إلى البلاد، قرّر الحزب تفعيلها، تقديرًا لنشاطها ومكانتها، في إطار حركة النّهضة النّسائيّة التي أصبحت بعدها حركة النّساء الديمقراطيّات، حيث تعرّفت على مشاكل المجتمع عامّة والنّساء خاصّةً وأهميّة دمجهنّ في العمل السّياسي.

«رفضْتُ اقتراح ترشيحي، من قبل الحزب، لعضويّة اللجنة المركزيّة مرّتين، وذلك لأنّني أردْتُ أن أكون مع القاعدة وأعمل مع النّاس وأتجوّل وأعمل بينهم في مدينتي وفي فروع المنطقة وتعوَّدْتُ على هذا العمل ولا أريد تغييره، لأنّني أريد أن أربّي أجيالاً تحمل راية الحزب وتحميه برمش العين عن اقتناع، ولذلك عُيِّنتُ سكرتيرة حركة النِّساء الديمقراطيّات في منطقة النّاصرة».

اشتركت في جميع دورات الحزب القطريّة التي كانت تُقام في الكيبوتسات وفي الدّورات المحليّة التي كانت تُقام في فروع المنطقة، وقد تأثّرت جدًّا بالرّفاق المحاضرين ممّا شدّ من عزيمتها بصدق وصحّة اختيارها لهذه الطّريق.

تتابع الرّفيقة أوديت نمر حديثها:»بعد انهيار النّظام في الاتحاد السُّوفييتي، كادت الأمور تضيع من بين أيدينا فقرّرتُ أن أتابع عملي في الحركة النِّسائيّة رغم شِحَّة الموارد، فقمنا باستئجار مكان وحوّلناه إلى مخيطة وبدأنا نعمل في الخياطة بالأجرة على أن تأخذ الخيّاطة قسمًا من المبلغ والباقي للنّادي النّسائي كذلك قمنا بتنظيم رحلات سياحيّة إلى مصر وأوروبا وهذا أيضًا كان موردًا للمال لتغطية مصاريف فعّاليّاتنا ومشاريعنا، كذلك أقمنا دورة

خياطة وأشغال يدويّة وعملتُ في هذا الإطار محترفة دون مقابل..».
لقد حصلت على أوسمة تقدير واعتزاز من منطقة النّاصرة للحزب الشّيوعي ومن رئيس بلديّة النّاصرة الرّفيق رامز جرايسي ومن الجبهة الدّيمقراطيّة، القطريّة، ومن الطّلاب الثّانويّين في مدرسة الزّهراء البلديّة حصلت على شهادة تقدير.
الرّفيقة أوديت إبراهيم حنّا نمر مناضلة وثائرة على الظّلم والاحتلال والتّمييز العنصري والاضطهاد، مناصرة للحقّ مهما كان الثّمن فمنذ شبابها المُبكّر خاطرت بحياتها من أجل عودة اللاجئين وضدّ التّرحيل ومن أجل مساواة المرأة بالرّجل، قياديّة من الصّفوف الأماميّة المواجهة دفاعًا عن السّلام العادل والثّابت في منطقتنا، حياتها ما زالت حياة غزيرة بالعطاء والوفاء والحبّ.
فيا رفيقتنا أوديت لكِ منّا كلّ الوفاء والتّقدير والمحبّة ونتمنّى لكِ الصّحّة والعافية والعمر المديد والعقل السّديد، أبدًا على هذه الدّرب.
ونهتف مع هذه الشّيوعيّة العريقة والإنسانة المناضلة عاليًا قول الشّاعر الكبير عبد الكريم الكرمي، أبو سلمى:
قالوا: شيوعيّون.. قلت: أجلّهم قولاً ومبدا
هذي المطارق والمناجل تحصد الظلام حصدا
وتحرّر الإنسان حتى لا ترى في الكون عبدا

أسْعَدَ اللّه صباحك يا عزيز حيفا بكلّ الخير

تُحِــبُّ حيفا أهلها وتعزُّ من يعِزُّها فهي عزيزة وكريمة وطاهرة وهذا بفضل بحرها الذي يغســل قدميْها كلّ يوم خميس منذ أن احتفل المُخلّص بخميس الأسرار في عشــائه السّرّي، حيث يحفظ كرملها أسرار أهلها في رموش عينيه وجفونهــا، هــذا الكرمل الــذي يطلّ على مــرج ابن عامر ويطلّ على السّــهل السّاحليّ من رأس النّاقورة شمالاً وحتّى قيسارية جنوبًا مرورًا بمضيق بريٍّ، عند خــضر ابو العبّاس ومار الياس، عين حيفا السّــاهرة التي أخذتها غفوة العــام ثمانيــة وأربعين مرةً، على حين غرّة، لكنّها صحــت صحوةً مُذّاك، ولم يعرف جفنها طعم النّوم مليون مرّة.

وما أحلى وما أجمل صباح حيفا حين يكون عزيزُها الرّفيق بنيامين غونين.

فقد قلَّد مجلس حيفا البلدي، بتوجيهٍ من نائب رئيس بلديّتها المربّي الجبهويّ اســكندر عمل ورفيقنا الطّبيب الطَّيِّب عيسى نيقــولا، الرّفيقَ بنيامين غونين لقــب «عزيز حيفــا» للعام 2008، حيث يُعَدُّ هذا نــصرًا لجبهة حيفا ولأهلها التوّاقين للعدل والحريّة والدِّيموقراطيّة والمساواة والتّعايش.

بنيامين غونين هو النّقابيّ والعمّاليّ المعروف والأشــهر من نارٍ على علم وهو الذي يُشارُ إليه بالبنان واسمه على رؤوس الأشهاد منذ عقود خلت.

فهو الشّــيوعي والجبهويّ الثّائر والرّاصد والسّــاهر على مصلحة عمّال هذه البلاد بشــعبيها، وهو المُتصــدّي والطّلائعي، مع رفاقه، في صفّ الدّفاع الأوّل عن حقوق الجماهير العربيّة الفلسطينيّة الباقية في وطنها الذي ليس لها وطن

سواه منذ نكبته، من أجل حقوقه المدنيّة وعن الجزء الثّاني من شعبنا الرّازح تحت الاحتلال منذ نكسته من أجل كنسه ليعيش بسلام وأمن وطمأنينة كما تعيش باقي شعوب المسكونة المعمورة والعامرة.

لقد وقف الرّفيق بنيامين غونين عام 1965، عام الانقسام، في المؤتمر الخامس عشر للحزب الشـيوعي والذي عُقِد في تل أبيب، حين كان عضوًا في سكرتارية الشّـبيبة الشّـيوعيّة، كالطّود صامدًا في وجه المدّ القوميّ الصّهيونيّ برئاسة سـنيه وميكونيـس مُتحَدِيًا هذا الانحراف القومي واليميني ومهنِّئًا الحزب الشّـيوعي «الذي حافظ في هذه الفترة القاسـية التي مرّت علينا، على الوحدة اليهوديّة العربيّة التي هي بؤبؤ عين حركتنا، وحافظ على الاميّة البروليتاريّة والاخلاص لوطن الشّعبين».

وكذلك وقف في المؤتمر السّـادس عشر لحزبنا الشّـيوعي، عام 1969، حيث قال: إنّ أخطر الأمور التي يزرعونها في هذه البلاد هي الشّـوفينيّة، الاستعلاء القومـي والغطرسـة، وأخطـر شيءٍ هو بأيّ الطّـرق يُسرِّبونها إلى أوسـاط الشّـباب. ويتابع قوله: أعتقد أنّ رئيس لجنة الخارجيّة والأمن في الكنيسـت دافيـد هكوهـين هو الذي لخّـص الصّهيونيّة، بشـكل صحيـح، بقوله أنّها، عمليًّا، مثل التّسـمّم. وانتبهوا، كيف أنّ جيلاً كاملاً مُسَـمَّمٌ بالسّمِّ الشّوفينيّ والصّهيونيّ.

لقـد كانت وما تزال مواقفه طلائعيّة وجريئـة في الدّفاع والكفاح والذّود عن حقـوق الطّبقة العاملـة وجماهير الشّـعب الكادح، بعربه ويهـوده، بعمّاله وفلاحيـه، ومثقّفيـه الثّوريّين، ضدّ حكومـة الاحتلال والاسـتغلال والموالية للاستعمار وأهدافه والمعادية للسّلام وأخوّة الشّعوب والدّيمقراطيّة.

لقـد كنتَ وما زلـتَ عزيزَ حيفا، وما هو هـذا النّيشـان، وإن مُنِحْته متأخِّرًا لكنّه مُتزامِنٌ ومُلازِمٌ لعيد ميلادك الثّمانين، إلا تتويجٌ لما عملته وصنعته يداك

وصنعــه قلبك وعقلك وخطّه حبرُك وقلمك، خدمةً لشــعبَي هــذه البلاد بكلّ فئاته الشّعبيّة.

وهــل ينسى أهل حيفــا العرب وقفتَــك ورفاقك معهم في عــام النّكبة مانعين نزوحَهــم ومُعيدين السّــكّان إلى بيوتهــم وطارِدين اللصوص مــن الهجناة، مــن بيــوت العرب، أهل البلــد الأصليّــين ومدافِعين عنهم من مجــازر كادت تحصُدهم.

فَلَــك كلّ الشّــكر والاحترام والتّقدير والمودّة وألف ألــف مبروك، فالبيت الذي يقيم فيه أهلٌ، رفاقٌ، كبنيامين غونين لا تأخذه الغلبة ولا يأكله الضّيم.

فنحــن أهلُ هذا البيــت وأهلٌ لهذا النِّضــال ولنَحْم هذا البيــت ونَصُن رفاقه ونحفــظ لهم تاريخهم ونحافظ على دربهم التي نسَــير في هَدْيِها كما تُحافظُ مفاصل صخرة على عشب ينبت بينها.

يَصْقُلُ الانْتِمَاءُ الطَّبَقِيُّ عَقْلَ الإنْسَانِ

تقــع قرية أم الزّينات على ســفوح جبل الكرمل، منطقــة وادي الملح، جنوب شرق مدينــة حيفا، حيث تبعد عنها نحو عشرين كيلومترًا. وقد كانت مأهولة بالسُّكّان منذ العهد الرّوماني ـ البيزنطي إلى أن سقطت في الخامس عشر من شــهر أيّار من العام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين بعد أن احتلّتها الكتيبة الرّابعة من لواء غولاني في عمليَّة سُمِّيَت "ביעור החמץ» أي اجتثاث الخميرة، (وهي عملية تطهير، اعتمدها اليهود قبل عيد الفصح العبريّ، عن طريق النّار بالحرْقِ أو الغليان لجميع أواني البيت وأثاثه وأطراف البيت وتنظيف كلّ ما هو شــائب أو مُخمّر حتّى يكون البيت نظيفًــا) والتي كانت جزءًا من عمليّة المقصّ لقطع أوصــال مدينة حيفا العربيّة. لقــد أرادوا لأمّ الزّينات ومنطقة جبــل الكرمــل، كما أرادوا لباقــي الوطن أن يكون «حــلالاً כשר» و»طاهرًا» و»نظيفًــا» من ســكّانه الأصليين، أي مُلــكًا خالصًا لهم، فوجــود العرب فيه «يُدنِّسه» – حسب زعمهم- لذلك قاموا بعمليّة تطهير عرقي، بعملية اجتثاث «الخميرة» (العرب الفلســطينيّن) أهل هذه البلاد الأصليين، وأقاموا واقعهم الاستيطاني.

يــسردُ الكاتب الفلســطينيّ، ابن أمّ الزّينات،والمُقيــم حاليًّا في الكويت، محمّد الأســعد (اســمه الكامل محمّد إسماعيل الأســعد حردان)، في روايته «أطفال النّــدى» مــا حدّثته والدته عــن «الدّعم» العربــي للثّوّار وكيــف كانت تصل الإمــدادات للحــركات الصّهيونيّة مــن الغرب إلى الــدول العربيّــة المجاورة،

كمحطّة لتخطيط إدخالها إلى فلسطين، وكيف أنّ الجيوش العربيّة طلبت من الثُّوَّار الفلسطينيّين أن يُشـاركوهم في القتال، لمساعدتهم، فتنفّس المُقاومون الصّعداء، حتّى يستريحوا قليلاً من عناء القتال، وتركوا لإخوانهم أن يتسلّموا المواقع، فطلبوا منهم تسـليم أسـلحتهم ليُقاتلوا عنهم ومعهم، لكنّهم بعد أن تسـلّموا سـلاحهم، اعتقلوا الثّـوّار ونقلوهم إلى الأسر العربـّي، تاركين جثث المقاتلـين في مواقع المواجهة والقتال لدرجة أنّ والده ظلّ يعتقد بعد عشر أو عشريـن سـنة أنّ الضّباع ما زالت تأكل جُثثهم:» لا يبـدو أنّ أحدًا أدرك لهم وجـودًا» (ص 22). وفي مكان آخر يقول:»أنحـن أصحاب أحزاب وتحزّبات ومـا زالت الضِّباع تأكل جثث رجالنا؟ ويبدو لي هذا التّعبير بليغًا أو شـبيهًا بحكمة تُقال لترسـم حياة كاملة. وما بعد هذه الحكمة هو الصّمت ..الصّمت إلى الأبد» (ص46).

لقد لجأ أهل أمّ الزّينات إلى التّجمّعات السّكّانيّة المجاورة كالفريديس وطمرة وأمّ الفحـم وحيفا ودالية الكرمل وجنين وبعضهـم تجاوز حدود الوطن إلى الدّول العربيّة المُجاورة.

وُلِـد الرّفيـق إبراهيم محمّد إبراهيم فحماوي، أبو وائـل، في قرية أمّ الزّينات عام ألفٍ وتسـعِمائة وثمانية وعشرين، حيث أنهى الصّف الرّابع الابتدائي في المدرسة الابتدائيّة للبنين في القرية، وتابع بعدها دراسته في مدينة عكا، حتّى أوّل ثانـوي، إلى أن أنهى ثانويّة كليّة النّجاح في مدينة نابلس. يذكر كيف أنّ الجيش البريطاني كان يدخل قريتهم للتّفتيش عن الثّوّار بعدما شارك أهلها في ثورة العام سـتّة وثلاثين تحت قيادة الشّيخ يوسف أبو درّة وبعد مقاومةٍ شرسـة أراد الانجليز الانتقام مـن أهل القرية فقاموا بهـدم خربة أم الدّرج عـن بكرة أبيهـا وهجّجت أهلها بعد أن استشـهد ثلاثة مـن أبنائها. وقاموا بطـرد أهل القرية من بيوتهم إلى البيادر، ودخـل الجنود البريطانيّون بيوت

المواطنين ليَعيثوا فيها دمارًا وخرابًا حيث خلطوا مؤن البيت بعضها ببعض، الزّيت والبيض والطّحين والسّكّر، بعد أن رموها أرضًا ففي رواية «أطفال النّدى» يذكر الكاتب ما حدّثته والدته عن انتقام الانجليز: «لَم يتركوا في البيت لا زيتًا ولا قمحًا إلاّ وخلطوه بالشّيد وطاردوا الدّجاج ومعسوا رؤوسه بالشّيد..»(ص 72).

لقد كانت علاقة أهل أمّ الزّينات مع جيرانهم اليهود في مجمّعاتهم المجاورة علاقة حسن جوار، وكان طريق القرية الشّارع السّالك والآمن والوحيد والرّبط بين الجنوب والشّمال وكانت تربط هذه المجمّعات مع مختار البلد، أيضًا، علاقة ودّيّة ودودة.

يقول الرّفيق إبراهيم: «يصقل الانتماء الطّبقي عقلَ الإنسان ويخلق عنده الوعي، لأنّ الوطنيّة عند البرجوازي الوطني تنبع من جيبه بينما عند الفلاحين تنبع من قلوبهم وأفئدتهم وشعورهم الإنساني، لقد أقمنا في قريتنا قبل سقوطها خليّة شبابيّة يجمعها الحسّ الوطني وتنشد إلى كيفيّة التّصدّي للاستعمار ودعم حركة المقاومة وكنّا جميعًا أبناء فلاحين فقراء حيث كان مسؤول الخليّة حرَّاثًا، وأتذكره حين هاجم بالمنساس (عصا يضرب بها دواب الحراثة كي يحثّها على متابعة السّير للحراثة، أبو وائل) جنديًّا مستعمِرًا نزل من سيّارته العسكريّة وأراد تصويره وهو يحرث الأرض ففرّ هاربًا إلى سيّارته، لقد اعتقد الحرّاث أنّه يريد تصوير بدائيّة العرب وتطوّر المستعمر».

يتذكّر أبو وائل مواقع كثيرة في قريته، وما كانت تروي له جدّته عن شجرة الزّير الواقعة في بلدتهم، في وادي الملح، قرب بئر النّاطف، وهي شجرة بلّوط حيث يُحكى عنها أنّ الزّير سالم شرب هناك حليب السّباع وبعدها قتل الأسد انتقامًا منه على افتراسه حماره، وكذلك بنى لنفسه بيتًا من جماجم السّباع

بعـد أن قتلهـم، وتروي رواية أخرى أن السّـبع افترس حمـار الزّير وانتقم منـه الزّيـر وربطه وعبّأ قربة مـاءٍ ووضعها على ظهر السّـبع وركبه ودخل أمّ الزّينـات وهو يُردّد: اللي بدو يوكل حمير العـرب بدّو يزازي تحت القِرب ودخل القرية معزّزًا على ظهر السّـبع، وكان لأهل البلد درسًـا في الشّـجاعة (سلمان ناطور، أم الزينات والرّمز الأخضر).

ويتذكّـر كذلـك خربة أمّ الـدّرج والهراميـس ووادي الملح وزينـة وأوديتها وينابيعهاعيـون الرّوحـة والصّفصافـة وبئر السّـباع وبـئر الهراميس وبئر النّاطف.. وجد الرّفيق إبراهيم فحماوي نفسـه، بعد أن سقطت بلدته، لاجِئًا كأهل بلدتِه،

يقول الرّفيق أبو وائل: «قبل سقوط أمّ الزّينات بيوم واحد دخل قريتنا الآمنة ثلاثة رجال من مسـتوطنة عين هعيمق يُحذِّروننا بأنّ قوات الهجناة تتحضّر لدخـول قريتنا حيث كان هدفهم إخافتنا لنهرب، ونـترك القرية، فمنهم من خاف وهرب ومنهم بقي وانتظر مصيره».

فقـد اتّبعت عصابات الهجناة نفس الخطط لتهجيـج النّاس في كلّ البلدات، الإرهاب والتّخويف والتّجويع والحصار والقتل، لقد قتلوا النّاس دون رحمة حتّى العُجَّز لَم يسلموا من رصاصهم، فقد قتلوا ثلاثة رجال تراوحت أعمارهم بين سـبعين سنة ومائة وسنتين وهم الحاج عبد الغني بشر واسماعيل عرف فحماوي ومحمّد سليم حردان وحتى الآن لم تجد عائلة حردان جثّة شهيدها، إذ كان رجلاً محترمًا وقديرًا من وجهاء القرية. لقد أحكموا إقفال المنطقة في منافذها الثّلاثـة وأبقوا منفذًا واحدًا إلى قرية داليـة الكرمل. ويروي الكاتب الفلسطيني سـلمان ناطور في أم الزينات والرّمز الأخضر عن علاقة الهجناة مـع مختار البلد الـذي كان مسـالِمًا، اللهمّ بلـدي:» كان الضابط يهودا من يكنعام «لطيفًا وإنسـانيًّا»، فلم يجبره على الخروج من الجهة الشّمالية، كان

لطيفًا لدرجة أنه ترك له حقّ الخيار «لأي جهة بدك تروح». واختار يوسف العيسى... خربة أم الدرج. «بعد دقائق سمعنا طلقات رصاص، عن مسافة كيلومتر..

كانت أمّ الزّينات تحت مجهرهم منذ العام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين «كان الهدف تفحّص القرية وجلب معلومات مثل أين يقطن المختار، وأين يقع الجامع، وأين يسكن أغنياء القرية، ومن كان نشيطًا في ثورة 1936. لم تكُن هذه مهمّة خطرة جدًّا لأنّ القائمين بها كانوا يعرفون أنّهم يستطيعون استغلال أصول الضّيافة العربيّة التّقليديّة. بل أنّهم حلّوا ضيوفًا في بيت المختار نفسه. وعندما لم ينجحوا خلال يوم واحد في جمع المعلومات التي كانوا يبحثون عنها، طلبوا استضافتهم مرّة أخرى. وكُلِّفوا أن يحصلوا في زيارتهم الثّانية على معلومات عن خصوبة الأراضي التي يبدو أنّ نوعيَّتها الجيِّدة أدهشتهم كثيرًا. وقد دُمِّرت أمّ الزّينات في عام 1948 وطُرد جميع سُكّانها، مع أنّه لم يصدر عنهم أي استفزاز» التّطهير العرقي في فلسطين، إيلان بابه (ص 30).

عمل رفيقنا أبو وائل في دالية الكرمل مدرِّسًا، وانتمى إلى صفوف الحزب الشّيوعي في أواخر عام النّكبة، بعد أن تعرّف هناك على زميلٍ يُعلِّم معه في المدرسة، على ما يعتقد أنّ اسمه سهيل، رفيق في الحزب الشيوعي انتقل بعد ذلك للعمل في يافة القدس وأصبح انتماؤه وميله للشّيوعيّين أكبر. يذكر أنّه كان مع أصدقائه يتمشون في شارع دالية الكرمل الرّئيسي و»إذ بشابٍّ يافع طويل القامة عريض المنكبين اسمر البشرة، لا أذكر اسمه، يسألني وين ساكن إبراهيم فحماوي فقلت له وما طلبك قال لي: أريده شخصيًّا وعندما عرّفته على نفسي أعطاني كيسًا ثخينًا قائلاً: هذه هديّة من الجماعة وعندما فتحته وجدتُ أعدادًا من صحيفة الاتّحاد، لقد كانت تُوزّع بشكلٍ سرّيٍّ، حتى

قراءة الصّحيفة كانت سرّيّة فكم بالحري توزيعها».
لكـنّ مواقف أبي وائل الوطنيّة ومعارضتـه للاحتلال ورفضه للظّلم اللاحق بأبناء شـعبه واضطهادهم حالت دون أن يسـتمرّ في عملـه حيث فُصِل من سـلك التّعليم وبدأ يعمل أينما وُجِدَ العمل وكان عليه إصدار تصريح كلّ يوم أو ثلاثة أيّام..
وهـذا يـدُلّ على مـدى تدخّل أجهـزة المخابـرات في سـلك التّربيـة والتّعليم مـن تلـك الأيّام وإلى يومنـا هذا، كما هـي الحال في باقي المجالات من سـلك التّدريـس والتَّعلُّـم والتّعليـم، إلى القبـول في الجامعات والمصانـع والمكاتب والدوائر الرّسـميّة وغيرهـا. كلّ شيء مُراقب وبدرجة عاليـة وفائقة الإحْكام مـن أجـل إرهـاب وترهيـب الجماهـير فارِضَـةً عليهم جـوّ الشّـكّ من كلّ شيء والتّشـكيك في كلّ شيء، لتكـون القناعـة عند جماهير شـعبنا أنّه حتّى الحيطـان لهـا آذان تسـمع وتنقـل ما تسـمع لمـن يهمّـه الأمر ليُحاسِـب. «إذا تكلّمـت في النّهـار فالتفـتْ، وإذا تكلّمـت في الليـل فاخفـتْ...» قائمـة المعلّمين الّذين طُرِدوا واعتُقِلوا وفُصِلوا من سـلك التّعليم طويلة جدًّا، وكان السّـبب أنّهم رفضـوا كلّ إغراءات المخابرات والـوزارة التّابعة لها من توظيـف وتعيين وتنصيب بمركز تعليميٍّ مرموق، لكن هيهات، لقد أرادوهم ختمًـا في يدهـم وخاتمًا في خنصرهـم، أرادوهـم ببغاوات، وطبـولاً جوفاء، أرادوهم كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا، أرادوهم أن يُعلّموا طلاّبهم «كيف جفّفنا مستنقعات الحولة وأقمنا المستوطنات» وأن يُنْشِدوا مع طُلاّبهم «عيد اسـتقلال بلادي» وأن يُدرِّسـوهم قصيدةً لإلقائها في احتفالات نكبة شعبهم عن الدّولة التي أقاموها على تراب وطنهم بعد أن طردوا شـعبهم «نورٌ تألّق في سـماء المشرِق» عن ظهر قلب وأرادوهـم معلّمين يُخَرِّجون طُلابًا حطّابين وسـقاة ماء ورعاة. لأنّهم يخافـون من الكلمة والدّراسـة والتّطوّر. فالكلمة

والقلم الّذي يكتبها والعلم الّذي ندرسه ونتعلّمه أقوى وأمتن سلاح. فقد جاء في الحديث الكريم: فضل العلم خير (أو أحبُّ إليَّ) من فضل العبادة، أطلب العلم ولو في الصين. فكم هو العلم مُهمّ في تطوّر الأمم.

انتقل رفيقنا أبو وائل بعدها إلى طمرة وهناك تعرّف على الأصدقاء علي عمر زيداني، وأنيس القاسم ولطفي سليم همّام وعلي عيّاشي ومحمود محي الدّين ومعهم تكوّنت أوّل خليّة شيوعيّة في طمرة. وبعدها انضمّ الشّباب الوطني الغيور لتُكوِّنَ أوّل خلية للشّبيبة الشّيوعيّة حيث ضمّت محمّد حسّان وحسين حسّان وعلي حسّان وعادل أبو الهيجاء ومروان أبو الهيجاء وآخرون. «وسكنتُ في حارة الحجازي وكنّا نجتمع عند الرّفيق أنيس القاسم حيث كانت تصله جريدة الاتّحاد للتّوزيع لأنّ بيته يقع قرب محطّة الباص، وكثيرًا ما اعتدوا علينا وقت التّوزيع وتصدّينا لهم بقوّة ونما الفرع وكبُرَ وتعدّدت خلايا الحزب والشّبيبة رغم أنف الغاصبين».

استلم الرّفيق ابراهيم فحماوي أمر الإقامة الجبريّة حيث مُنع من الخروج من طمرة وأن يُلازم بيته بعد مغيب الشّمس. فكتب منشورًا بالتّنسيق مع الحزب يدعو فيه إلى وقف هذه الإجراءات المُذِلّة حيث أعلن فيه عن إضرابه استنكارًا لاضطهاد الجهاز العنصري الحاقد والتّجويع ومنع العمل. يقول: «أخذت عائلتي، زوجتي وابْنِي وائل (الآن أصبح طبيبًا) وابنتي أحلام إلى مقر الحاكم العسكري في شفاعمرو ودخلته بالقوّة، وبدأ ولداي هناك باللعب والمشاغبة وإذ بسكرتير الحاكم، شكري، يدعوني إلى الجلوس فقلتُ له صارخًا وموبِّخًا أنّنا لم نأتِ هنا للجلوس أو الضّيافة أتينا معلنين الإضراب إلى أن أتحرّر من الإقامة الجبريّة وأحرّر عائلتي من الجوع وأضمن لهم لقمة العيش بشرف. فجاءتني أم خازن (من سخنين على ما أظنّ تعمل هي الأخرى هناك) وسألتني مالك على شكري فهو مسكين موظّف قلت لها أنه

ذنب لِهَذا الجسم وقطع الذّنب حلال.. وحين كان الوقت دوامًا كان حضور الجمهور غفيرًا حيث ظنّ الضّابط شويلي أنّهم أتوا للتّضامن معنا، وخوفًا من تطوّر الحوادث أعطاني تصريحًا ولشهر كامل».

سُجن الرّفيق إبراهيم فحماوي عدة مرّات منها الإداري لبضعة أشهر ومنها لسنوات عديدة كان أطولها اثنتي عشرة سنة، في سجن شطّة، «ظلمًا وافتراءً وخوفًا من الصّوت الحرّ».

أُقيمت في أوائل الخمسينات لجنة لثلاث عشرة قرية مُهجّرة، بعد أن اجتمعت في مقهى الدّلالين في مدينة عكّا، يطالبون من خلالها بالعودة إلى قراهم وبحقّهم في زراعة أراضيهم لكنّ جهاز المخابرات كان حاضرًا، على الأرجح، مع مندوب وزارة الزراعة حيث قرّروا إعطاء هذا الفلاح وحرمان ذاك الأمر الذي كاد يُدخل الفلاحين في خلاف شرسٍ، فوقف رفيقنا أبو وائل مخاطِبَهم بعد أن حاولوا منعه: «هذه مؤامرة لن ندعها تمرّ لأنّهم يريدون تفرقتنا لنتعارك مع بعض وننسى وحدتنا وحقّنا في وطننا، وما أن أنهيت كلمتي وإذا بعصا في يد كاهلٍ من قرية كابول كادت أن تهوي على رأس مندوب الوزارة فخافوا وفرّوا هاربين من الاجتماع، لكنّهم عادوا ليلاً كالخفافيش السّوداء لاعتقالي، وأتاني الضّابط حنّا حدّاد ليُخيِّرني إمّا أن تُعلن براءتك من الحزب الشّيوعي ونطلق سراحك في الحال أو تسجن إداريًّا! فاخترتُ شرفي وشرفَ حزبي».

حين وصل خبر الاعتقال إلى رفاق حيفا، طلب الرّفيق غسّان حبيب، سكرتير منطقة حيفا للحزب الشّيوعي، من والدي، إبراهيم تركي، الذّهاب إلى طمرة لإعلام أهله بالاعتقال وإحضار حاجيّاته، رغم أنّ أبا خالد كان عائدًا لِتَوِّهِ من عمله الشاقّ. فذهب إلى حانوت ستيراتي اليوناني واستأجر منه درّاجة هوائية منطلِقًا من هناك إلى قرية طمرة. حين وَصَلَ القرية أعلم عائلته بالاعتقال

وجَلَبَ معه حاجيّات أبي وائل، وكان قد أرخى الليل عباءته السّــوداء، وكانت الدرّاجة الهوائيّة المُسْــتأجرة دون أضــواء. فقد كان في حوزته فانوس يضيء بعد شحنه ببطاريّة، وكانت عملية إطفاء الفانوس وإشعاله متعاقبة وبوتيرة سريعــة واحدة حتّى يُرَى في العتمة، على الطّريق ما بين طمرة وحيفا، وحين وصــل مصنع تكرير البــترول «الرِّيفاينَري»، التقى صُدفةً بالرّفيق ميشــيل عــون يقود ســيّارته، فصاح بوالــدي أن يتوقّف ليقِلّه إلى حيفــا مع درّاجته بسيارته، مُوصِلاً إيّاه مقرّ الحزب، إلى قاعة «مؤتمر العُمّال العرب» الواقع في حيِّ وادي النِّسناس.

وفي اليــوم التّــالي ذهب الرّفاق إبراهيم تركي وعودة الأشــهب إلى أبي وائل في مُعتقله في سجن الدّامون، الواقع على سفوح جبل الكرمل قرب خربة الدّامون المُهجّرة. حيثُ استمرّ الرّفيق إبراهيم فحماوي رهن السّجن مُدّة عشر سنوات في ســجن شــطّة، تحرّر بعدها ليبقى شريفًا ومُخلِصًا وأمينًا لشعبه ولمبادِئ حزبــه إلى يومنا هــذا. وهنا يشرّفني أنشر صورة أبي وائل حامِلاً علم الحزب الشّــيوعيّ في مقدِّمة مظاهــرة الأوّل من أيّار بتاريــخ 30/4/1988 والّتي جابت شــوارع مدينة حيفا بِدءًا بوادي النِّسْــناس، وإلى جانبه رفاق الشّبيبة الشّــيوعية بأعلامها الحمراء والرِّفاق بطرس ســمعان ونظلــة عطيّة وإيتيل كلنغر.

يتذكّر الرّفيق إبراهيم أنّه كان يلتقي بأصدقائه لقاءات عفويّة وليليّة ويدور نقــاشٌ، يحتدّ تارةً وأخــرى يهدأ، لكنــه كان يتّفق دائمًا مع الرّفاق شــفيق خوريّــة من شــفاعمرو ومحمّد الحاج من كفر ياســيف وإبراهيم بولس من البعنــة في النِّقــاش، وذات مرّة زارهم رفاق من قيادة منطقة عكّا يذكر منهم جمال موسى ورمزي خوري وهكذا تحوّلت إلى خليّة من الشّــيوعيّين انضمّت بعدهــا إلى الشّــبيبة والحــزب «حيث أذكر أنّنــي تلقّيتُ منهمــا هديّة، رواية

لمكسيم غوركي، الأمّ، وقرأتها عدّة مرّات».

حين سُجن رفيقنا أبو وائل في سجن شطّة، بعد أن اتّهم تهمة نقل معلومات للجمهوريّة العربيّة المُتّحدة، لَم يكن السّجن غريبًا عنه. وهناك قاد إضرابًا تضامنيًّا مع الرّفيق القيادي في الحزب الشّيوعي الفلسطيني نعيم الأشهب، حين قام أحد الزّعران بالاعتداء عليه بضربة غدّارٍ على رأسه بصحن الأكل وجرحه، وكان الإضراب ناجحًا باشتراك خمسة وأربعين سجينًا، دام ستّة أيّام حيث أوقِف بعد تدخّل الرفيقة المحامية فليتسيا لانغر بقولها أنّ هدف الإضراب نجح وغايته وصلت إلى العالم» وكان هناك سجّانون من بني معروف وقلّة من اليهود أيضًا كانوا ينادونني ليلاً للاجتماع مع الرّفيق نعيم، نشرب القهوة ونتسامر، حتّى أن السّجّانين قالوا لنا مرّةً عيب علينا نحمل هاي المفاتيح ونسكّر عليكو وحين أخبروني، مرّة، بمعركة الكرامة حزنتُ فقال لي السّجّان أنا كمان زعلان بس ولا يهمّك صامدين.. ومرّات عديدة أوصلوا رسائلي، سِرًّا، إلى أهلي وإلى رفاقي..»

سافر الرّفيق إبراهيم فحماوي إلى موسكو لدراسة الفلسفة الماركسيّة والتّطوّر الاجتماعي في المعهد الدّراسي، في أوائل الثّمانينات، دامت ستّة أشهرٍ، وكان رئيس الوفد الرّفيق حنّا خشيبون. وهناك زاره الرّفيق نعيم الأشهب، أبو بشّار، حيث كان لقاؤهما مؤثِّرًا، فَتَحَ صفحات مشرِّفة من تاريخ الشّبيبة والحزب الشّيوعي الواحد والموحّد وكان لحديثهما شجون أعادت لهما ذكريات صعبة لكنّها دروس في الصّمود والوحدة والموقف المشترك..

تحرّر في العام ألفٍ وتسعِمائة وواحدٍ وسبعين حيث باشر نشاطه الحزبيّ، وحالاً غيّر مكان إقامته إلى مدينة حيفا بعد أن أخذ إخوانه أبناء عائلته ليسكنوا فيها. «ووصلني إلى طمرة إخطار لحضور مركز الشّرطة في مدينة عكّا، حيث أراد الضّابط «منحي» الإقامة الجبريّة، مرّة أخرى، فقلت له كيف

هذا وأنا أســكن مدينة حيفا وعندما أعطيْته هويتي شحبَ لون وجهه القاتم والحاقد وتفتّحت خلايا جسمي فرحًا وسكنتُ في حيفا».

يســكن الرّفيق أبو وائل في مدينة حيفا، حيّ الحلّيصة، وحين تسأل عنه أهل الحيّ يدلّونك على بيته وحانوته الصّغير ويقولون آه أبو وائل الشّيوعي..

إبراهيم محمّد إبراهيم فحماوي مناضل عنيد ولاجئ في وطنه ومعتقل ضمير حرٍّ وأســير لقضيَّةٍ عادلــةٍ، خضع لأوامر الإقامة جبريّــة والتّجويع والتّرحيل والطّــرد مــن العمل وكلّ هــذه الضُّغوطات لــم تنل من عزيمة هــذا المقاوم الشّيوعي قيد أنملة، بقي مقاومًا، شيوعيًّا، ثابتًا، شهمًا، حُرًّا، ذا مروءة، عزيزَ النّفــس وحريصًا على مبادئه مــن أجل عزّة الوطن ورفــاه أهله وعودة أهله إلى أمّ الزّينــات، ليشربــوا من مــاء آبارها كما يحلو لهــم ومتى يريدون ومن أيّ بئر أو ينبوع يختارون من عيون الرّوحة والصّفصافة وبئر السّــباع وبئر الهراميس أو بئر النّاطف ويعملون في أرضهم ما يشاؤون..

وليجدوا قيلولتهم تحت شجرة الزّير سالم متى طابت لهم..

هذا المناضل يُردِّدُ معنا ونُردّد معه:

مِنْ بَهَاءِ الطَّبِيعَةِ فِي قُرَانَا المَنِيعَةِ نَتَلَقَّنْ سِرَّ الجَمَالِ

مِنْ هَزِيمِ العَوَاصِفِ والرُّعُودِ القَوَاصِفِ نَسْتَمِدُّ فُنُونَ النِّضَالِ

الهَادِيَة

أعــود بعد انقطــاع قسريّ جميــل أتمنّاه لكلّ إنســان. فقــد تخرّجت ابنتي الوُسطى ميّ من كليّة التّمريض التّابعة للجامعة العبريّة، في القدس، بشهادة ممرّضــة مؤهّلة وبعد ذلك احتفلنا بزفافها، حيث تأهّلت لتكون مســتقلّة مع زوجهــا الياس الياس في بيتهما الهادئ والدّافئ في حيّ وادي الجمال، الواقع على شاطئ بحر حيفا.

لقد كان انشــغالي بالفرحتين عظيمًا وأخذ من وقتي حيِّزًا كبيرًا حتّى أنّي لم اســتطع خلال هذا الشّــهر الكريم والسّــعيد كتابة شيءٍ أو حتّى إتمام قراءة «الملهــاة الفلســطينيّة» رائعة الكاتب الفلســطيني إبراهيم نــصر الله «زمن الخيول البيضاء»، حيث كنتُ قد بدأتُ قراءتها قبل هذا الشّهر، وكانت قراءتي كرًّا وفرًّا ولكن بشوقٍ ومثابرة ترجعكَ حالاً إلى الأحداث، حيث تتحدّث الملهاة عن الحبّ والإخــلاص والتّفاني في النّضال والبطولة ضدّ الحكم العثماني ثمّ المســتعمر البريطاني حتّى الصّهيونــي وعصاباته والتَّصدِّي له ولعملائه من بني جلدتنا الذين ارتَدُوا وتقنَّعوا بزيّ «الوطنيّة» الذي سرعان ما أُسْــفِر عن هــذا القناع وبانت الوجوه ســافرةً والرّؤوس حــاسرةً للجميع على حقيقتها أو للأســف ظلّــت مدفونة في قناعها وفي زيّها تتبخــتر في غيّها أو حتّى تزاود متآمِرةً على الذين نذروا حياتهم في ســبيل عزّة شــعبهم ووطنهم أو استغلّت علاقتها بالوطنيّين لتكون غطاءً لعمالتها..

لكنّ الجملة التي قالهــا المناضل وبطل الملهاة خالد الحاج محمود، ابن قرية

الهاديــة، بقيت عالقة في ذهني لتكشــف لنا وللآخرين مــدى صدق طريقنا، بقوله لرفيقَيْ دربه نوح وإيليّا على أن يُبلِّغا قوله لأهل قريتهم «الهادية»:»كان والــدي رحمــه الله يردّد دائمًــا: لا يُمكن لأحد أن يبقى منتــصِرًا إلى الأبد، لَم يحــدث أن ظلّــت أمّة منتصرةً إلى الأبــد. ودائمًا كنتُ أفكّر فيمــا قاله، لكنّني اليــوم أحسّ بانّ شــيئًا آخر يُمكن أن يُقال أيضًا وهو أنّني لســتُ خائفًا من أن ينتــصروا مرّة وننهزم مرّة أو ننتصر مرّة وينهزموا مرّة، أنا أخاف شــيئًا واحــدًا أن ننكسر إلى الأبــد، لأنّ الذي ينكسرُ للأبد لا يمكــن أن ينهض ثانيةً، قُل لهم احرصــوا على ألاّ تُهزموا إلى الأبد..»وتابع قوله لهما:»لا أريد أن أقول لهــم أكثر من هذا لســتُ هنا لأنتــصر، أنا هنا لأحمي حقّــي» («زمن الخيول البيضاء» ص 372).

وحين نزل الرّفيق أحمد إبراهيم عبد الرّحمان شــحادة، أبو رمزي، بناءً على طلب الرّفيق توفيق طوبي بعد أن أرســل له منشــور عصبة التّحرّر الوطني في عــام النّكبة ليوزّعه في قريته كفر ياســيف ليلاً، حفاظًــا على سرِّيَّة العمل وإيصال كلمة العصبة لكلّ أهل القرية، ذلك المنشور الذي دعا أهل البلاد إلى البقــاء في الوطــن وعدم تركه ليناضلوا من أجل حقوقهــم في بلادهم، ومنبِّهًا جماهير شــعبنا من تلك الهزيمة وخطر النّزوح واللجوء، حيث لَم يكن هدف رفــاق العصبة الانتصار بل بقاء أهلنا في قراهم ومدنهم والمحافظة على حقِّنا في وطننــا، وذلك بفضل معرفتهم ورؤيتهــم الواضحة لضخامة المؤامرة على جميع الجبهات المحليّة والقطريّة والعربيّة الرّجعيّة والامبرياليّة ضدّ شعبنا، وقد جاء في منشور العصبة الصّادر في الثّاني من أيّار عام النّكبة، حيث نصّه الرّفيــق توفيق طوبي وخطّه الرّفيق عصام العبّاسي:»إنّ مصلحة عرب حيفا وعرب فلسطين تحتّم على سكّان حيفا العرب الرّجوع إلى مدينتهم، إلى أعمالهم ومصالحهم، إنّ مصلحة العمّال العرب تقضي أن يعودوا ليحتلّوا المراكز التي

كانوا يعملون فيها ويرتزقون منها فلا يفسحون المجال للمنظّمات اليهوديّة المتطرِّفــة لتنفيذ سياســة احتلال العمل والأرض. إنّنــا نُهيب بمن نزحوا عن حيفــا وقضائها مــن العرب الرّجوع ليســتمرّوا في نضالهم في ســبيل وحدة فلسطين واستقلالها».

ويُتابع:»لَــن يخدم فلســطين خدّام الاســتعمار وعملاؤه بل نضال ســكّانها المباشِر في ســبيل تحطيم قوى الاستعمار لأجل الحرِّيَّة والاستقلال والجلاء».

وجاء في خاتمة المنشــور: «فلنقف أمام الاستعمار ومؤامراته وأعوانه ولنوجِّه ضربتنــا إلى صميم المســتعمر البريطاني لأجل حُرِّيَّة فلســطين واســتقلالها ووحدتها».

حيث بيَّن هذا بالتّفصيل منشــور الأحزاب الشّيوعيّة في الوطن العربي والذي صــدر في عام النّكبــة داعيًا الشّــعوب العربيّة لتكون يقظــة لحجم المؤامرة حيث كانت خاتمة المنشــور «وليرتعش المســتعمرون وعملاؤهــم الرّجعيُّون أمام يقظة الجماهير العربيّة وتضامنها في النِّضال العظيم لأجل الاســتقلال والكرامة والشّرف». كانت رؤيتهم واضحة وحجم المؤامرة كان ظاهرًا، ورأوا في البقاء في الوطن عين الصّواب وبؤبؤ النّصر.

وهكذا عمل حزبنا بما أوتيَ من قوّة وإباء على بقاء شعبنا في وطنه، في وطننا الذي لا وطن له/ لنا ســواه ولن يكون لنا وطن آخر، ولو كان حزبنا في تلك الفترة أوسع جماهيريًّا وأكبر عددًا لكان لتاريخ شعوب منطقتنا وجه مشرق آخر..

لكن بفضل عمل حزبنا ورفاقنا ومثابرتهم على النّضال بين الجماهير في أحلك الليالي وأشــدَّها ظُلمةً وظُلمًا وأقساها عناءً وشــقاءً وأعتى الظّروف بقيْنا في وطننا وعلى ترابنا حيث علّمنا أنّ الكفّ تلاطم المخرز وأن اليد الواحدة تُصفِّقُ وحدهــا ويدوّي تصفيقها عاليًا وذلك بعد أن أنار رفاق الحزب الشّــيوعي في

بلادنا طريق شعبهم بكدٍّ وتحدٍّ وحثٍّ على أن يثابروا على الصّمود في الوطن، الأمّ، والدّفاع عنه وأن ينهضوا لحمايته وحماية ترابه الغالي وشعبه الأصيل والذّود عنه ليحموا حقّهم في العيش الكريم والشّريف في ربوعه.

وُلِدَ الرّفيق أبو رمزي في قرية كفر ياسيف، في الثّاني عشر من أيّار من العام ألفٍ وتسعمائةٍ وسبعة وعشرين. وسكن مدينة عكّا حتّى عام النّكبة حيث كان يعمل والده هناك، وخلال سكناه المدينة تعرّف على مجموعة من الشّباب الوطنيّين بعد أن كان يتردّد لحضور النّدوات الثّقافيّة والسّياسيّة، مع أخيه الأكبر خليل، والتي كانت تنظّمها «رابطة المثقّفين العرب» وقد كان مركّز المحاضرات الرّفيق رمزي خوري حيث كان يقوم بإلقاء محاضرات تثقيفيّة فلسفيّة، الأمر الذي دفعه ليكون عضوًا نشيطًا وفعّالاً في «عصبة التّحرّر الوطني» حيث شغلَ عضوًا في لجنتها المحليّة وبعد احتلال مدينة عكّا رجع مع عائلته إلى قريته كفر ياسيف.

يقول الرّفيق أبو رمزي:»إنّ الانتساب للحزب الشّيوعي هو بمثابة الانتساب لحركة النّضال والكفاح والصّمود والتّضحيات الجسام لمصلحة الشّعب وعندما كانت تعصف الرّياح العاتية على الحزب كنتَ ترى تماسك الرّفاق ولُحمتهم أقوى وأعند وإيمانهم بطريقهم القويم عميقًا عُمق جذور السِّنديان في التّراب».

فمن شِيَم الأبرار حمل النُّفوس على الإيثار..(الخليفة علي بن أبي طالب).

أرسلت الحكومة في العام ألفٍ وتسعمائة وخمسين إخطارات لأصحاب الهويّات الحمراء، تهدّد فيها خمسين عائلة وتُعلِمهم بها بحنوّ موعد ترحيلهم خارج البلاد، فقام حزبنا الشّيوعي بتنظيم المظاهرات والمسيرات وجمع التّواقيع، وفي قرية كفر ياسيف قامت مظاهرة جبّارة شاركت فيها جماهير شعبنا من القرى المجاورة أيضًا فضلاً عن أهل القرية، وقد كان مركز المظاهرة في

دار السِّتَّات في ساحة المراح مقابل مكاتب الحاكم العسكري ويذكر رفيقنا أحمد شحادة:»كانت هتافات الجماهير تعلو مناطحة السّحاب وتنادي بسقوط الحكم العسكري، وإلغاء إخطارات التّرحيل لأصحاب الهويّات الحمراء، وكان تجنيد الجماهير ناجحًا ووجدَتْ دعوة رفاقنا للجماهير آذانًا صاغية، على قدر تهديد السّلطات لبقائنا في الوطن وحين خرج مساعد الحاكم العسكري للقاء وفد المتظاهرين، قمتُ بإبلاغه بأنّ المتظاهرين سيقفون سدًّا منيعًا بأجسادهم وأرواحهم في وجه ترحيل أهلهم حتى لو كلّفهم ذلك حياتهم أو رمي أنفسهم تحت عجلات الحافلات، وذهب المساعد إلى الحاكم يبلغه بالمطالب بينما حاول البعض في الوفد، بعد أن اتّهموني بأنّي أغضبتُ الحاكم، أن يطلب من الحاكم بأن يتلطّف بقراره على المهدَّدين بالطّرد ويسمح لهم بالبقاء، وفي المقابل قام باعتقال رئيس وأعضاء المجلس البلدي الأمر الذي ألهب مشاعر الجماهير غضبًا واستنكارًا وحين رأى الحاكم صمود المتظاهرين وعنادهم ووقوفهم على مطالبهم بوحدة وطنيّة رائعة، قام بتحرير المعتقلين حيث انسحبت سيارات الجيش الإسرائيلي من ضواحي القرية عائدة إلى مدينتي عكّا ونهاريا، وذهبنا إلى بيوتنا لكنّنا بقينا على أهبة الاستعداد لكلّ جديد طارئ».

قبل الأوّل من أيّار من العام ألفٍ وتسعمائةٍ وثمانيةٍ وخمسين قامت السّلطات باعتقال عضوي المجلس البلدي، الرّفيقين، يوسف شحادة ومنعم جريس والرّفيق أحمد شحادة، أبو رمزي، الذي كان يعمل سكرتيرًا للمجلس المحلّي، وسُجِنوا في سجن الجلمة حيث نفتهم لاحقًا مع عدد كبيرٍ من الرّفاق، تجاوز عددهم ستة عشر رفيقًا أو يزيد إلى مدينة صفد، وكانت حجّتهم واهية إذ اتّهموا رفاقنا بتلطيخ علم الدّولة المرفوع فوق مبنى صندوق المرضى في القرية، وذلك بعد أن قاطع أعضاء المجلس المحلّي للقرية احتفالات الدّولة

بمناسبة عشرة أعوام على قيام الدّولة، وقد دام النّفي في صفد مدّة ثلاثة أشهر.

وهناك في المنفى التقى المنفيّون بغيرهم من الرّفاق المنفيّين الآخرين من عدّة مناطق أخرى في الوطن، الذين اعتقلوا لأسباب هي الأخرى تافهة وذلك للانتقام من الحزب الشّيوعي بعد أن أعلن عن مبادرته لتأسيس «الجبهة العربيّة» التي دُعيت لاحقًا باسم «الجبهة الشّعبيّة» وذلك بهدف «تخفيف الكلمة» على آذان المواطنين اليهود لكسب تأييدهم، والتي حظيت بتأييد جماهيريّ واسع خاصّة بعد انضمام عددٍ لا بأس به من الشّخصيّات الوطنيّة المعروفة وعلى رأسهم رئيس مجلس كفر ياسيف المحلي، ينّي ينّي وطاهر الفاهوم من النّاصرة ورئيس بلديّة شفاعمرو جبّور جبّور.

لقد بادر الحزب الشّيوعي إلى إقامة هذه الجبهة بعد الاعتداءات الغاشمة والحاقدة على جماهير شعبنا خاصّة في أيّار عام ألفٍ وتسعمائة وثمانيةٍ وخمسين حين قامت الدّولة بمرور عشرة أعوام على تأسيسها، طرد أهلنا من وطنهم، حيث وصل عدد المعتقلين في مظاهرات الأوّل من أيّار ما يزيد عن ثلاثمائة وخمسين مواطنًا عربيًّا، بينهم عدد من قادة الحزب الشّيوعي العرب، بعد أن حوّل الجيش المدن والقرى العربيّة إلى ساحة قتال لكنّ استبسال الجماهير العربيّة والتفافها حول قيادتها، هذا الأمر عزّز وسرّع من تنفيذ المبادرة لإقامة الجبهة خاصّةً بعد إعلان الاتّفاق بين قادة مصر وسوريا لتوحيد القطرين العربيّين في إطار الجمهوريّة العربيّة المتّحدة الذي كان بمثابة قفزة نوعيّة ووحدويّة رغم تحفّظ الأحزاب الشّيوعيّة العربيّة من هذه الوحدة وذلك لعدم نضوج الظّروف في القطريْن.

وقد جاء في البيان التّأسيسي للجبهة:»..حركة تنظر كيف يجب أن يعيش المواطن العربي في إسرائيل حرًّا شريفًا. وتقرّ الطّريق الذي يجب أن يسلكه

للدِّفاع عن مصالحه وعن حرِّيَّته وكرامته..توحّدوا ورصّوا الصّفوف لتعيشوا كرامًا أحرارًا في بلادكم..وكان يخالجنا شعور بأنّه قد تتغيَّر سياسة الحاكمين وتتبـدّل أوضاعنا، إلاّ أنّ ما قامت به السّـلطات في يوم الأوّل من أيّار العابر، ومـا قبله وما بعده، كان القابلة، والقابلة القانونيّة التي تنفَّسـت على أيديها هذه الحركة ..».

ويكتب الرّفيق إميل توما في كتاب «حنّا نقّارة محامي الأرض والشّـعب» ص 285:

«وبذلت السّـلطات أقـصى جهودها لإحباط عقد المؤتمر واسـتخدمت الحكم العسكري في إصدار أوامر الإقامة الجبريّة على أولئك الرِّجالات الذين يسكنون في مناطق الحكم العسكري أمثال ينّي ينّي رئيس مجلس كفر ياسيف المحلّي وطاهر الفاهوم من النّاصرة لمنعهم من المشاركة في المؤتمر».

ولذلك فقد تأسّسـت الجبهة العربيّة في مؤتمرين تأسيسـيّين في مدينتي عكّا والنّاصرة رغم أنف العسكريّين..

يحدّثنـا الرّفيق أبو رمزي عن المنفى في صفد:»لقد كان مفروضًا علينا أوامر إثبـات وجود مرّتين يوميًّا في مركـز الشّرطة في مدينة صفد، وحظينا بعطف وتضامن مجموعة من الفنّانين والرّسّـامين الذين يعيشون في المدينة وعندما كانت النّساء تأتين لزيارتنا كنّ يبتن في بيوت المتضامنين معنا من أهل صفد اليهود الدّيمقراطيّين وذلك بسبب بُعد المسافة وقلّة حركة المواصلات».

وألقـيَ على عاتق الرّفاق والرّفيقات الذين بقـوا في القرية دون اعتقال مهمّة العمـل السّرّي مـن توزيع بيانات ومنشـورات وإيصـال «الاتّحاد» صحيفة الحزب لجمهور القرّاء في البلدة حيث كانت النّساء تُخبِّئنَ في أعبابهِنَّ أدبيّات الحـزب حين يخرجن للتّوزيع بعد أن تَـوَزَّعَ الرّفاق إلى خلايا صغيرة، حيث تكوّنت الخليّة من ثلاثة رفاق، وتذكر الرّفيقة ميسّر شحادة، أم رمزي، والتي

كانت مع الرّفيقيْن جميل شــحادة وحبيب باســيلا توزّع المناشير والأدبيّات الحزبيّــة ليــلاً وبسريّة تامّة حيث كانــوا ينتقلون من منطقــة إلى أخرى من على أســطح البيوت، بعيدًا عن عيون الوشاة والعملاء، كذلك كانوا يستقبلون الوفود المتضامنة مع أهالي المعتقلين..

وأخــذ الرّفيق نمــر مرقص، أبو نرجس، بتنظيم وفود مــن عائلات المعتقلين وأقربائهم وأصدقائهم للقاء الحاكم العســكري في مقرّه في القرية كي يُعبِّروا عن ســخطهم واحتجاجهم وتنديدهم واستنكارهم لهذه الإجراءات التّعسّفيّة بحقّ المعتقلين حيث كانوا يذهبون إليه يوميًّا لمطالبته بإطلاق سراح المعتقلين وقد تُوِّجَ هذا النّضال بإضراب نوم أمام مكتب الحاكم العسكري حيث أحضر المحتجّــون فراشــهم إلى المكتب الأمر الذي دفعــه إلى الهروب من المكتب حال حضورهم وقاموا بعد ذلك بإطلاق سراح المعتقلين..

وتقــول الرّفيقة أم رمزي:»عندما لاحق رجــال الشّرطة الرّفيق جميل توفيق شــحادة لاعتقاله جلســتُ مع الرّفيقات في ســاحة المراح في ورديّات لحراسة المنطقــة لتنبيهه بقدوم الشّرطة حيث كان إبريق الشّــاي على النّار على مدار السّاعة وكنّا نتحايل على رجال الشّرطة فعندما كانت تحضر الدوريّة لاعتقاله كنّا نُســقيه فنجان شــاي ســاخن مع الفلفل الحرّاق الذي كان يرفع للرّفيق جميل درجة حرارة جســمه الأمر الذي يحــول دون اعتقاله وكنّا نعاود هذه الكرّة كلّما حضروا..»

رفاق إذا ائتمنوا أخلصوا وحفظوا، وإذا وعدوا وفوا، وإذا حدّثوا صدقوا..

لقد كان الرّفاق منذ انتســابهم لحزبهم ســيف الكرامة والشــهامة المُشهر في وجــه الحركــة الصّهيونيّة والرّجعيّــة العربيّة منذ أن ظهــرت وكانوا الدّرع الواقي والحصين للشعب العربي الفلسطيني..

الرّفيق أحمد إبراهيم عبد الرّحمان شحادة ابن الثّانية والثّمانين من عمره ما

زال عقله وروحه وجسده ينبض حماسًا شبابيًّا وشوقًا لتلك الأيّام..
ولرفيقينــا أحمد شــحادة وزوجته ميسّر وأبناء هذه العائلــة الكريمة أتمنى العمر المديد والرّأي السّــديد وأبدًا على هذا الدرب الذي نشــأنا عليه وليس لنا طريق سواه..
وستبقى سنديانتنا الحمراء حمراء.
وستبقى زيتونتنا الخضراء خضراء.
لأنّ تاريخنا مشرق وعزيز وأقوى من النِّسيان.

أَوْلادِي وَأَحْفَادِي عَلَى هَذَا الطَّرِيق

يعتزُّ المرء في نهاية كلّ سـنة دراسـيّة برؤية شـهادة امتياز أبنائه وتفوّقهم بتحصيلهـم العلميّ ونتاج جهدهم وكذلك يعتزُّ الأبناء برؤية شـهادة امتياز والديهـم في صنع تاريـخ الصّمود والبقاء والتّضحية في صنع مجد شـعبهم وحزبهـم، هؤلاء الذين سـطّروا بأحـرف من من دمٍ ونـارٍ ومعاناةٍ وحرمانٍ ونفيٍ وإبعادٍ وفصلٍ من العمل على أنواعه وما بدّلوا وما غيّروا وما تحوّلوا عن دربهـم قيْد أنملة بل وبقُوا صامدين مرابطين لا يهابون العِدى ولا العسـس ولا أذنابهم أو مخابراتهم الرّسـميّة، بل بقَوا ينظرون بثبات وإيمان إلى أمام وباسـتقامة تامّة لبناء غدٍ مشرقٍ عزيزٍ وآمنٍ. رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ، رفيقات ورفـاقٌ وأبناءُ كادحين، يسـتلمون الرّاية الحمراء من سـلفهم ويُسـلِّمونها، باعتزاز وكبرياء وفخار، لأجيالهم الصّاعدة فلذات أكبادهم، لخلفهم، ليكونوا عـلى العهد وصامدون على الوعد، حيث رسـموا طريقة أخـرى مغايرة للتي نراها ونسـمع عنها، حيث أقسـموا قسـمًا ثابتًا يعطي جوابًـا قاطعًا ومتينًا لجميع الذين يقولون لنا أنتم شـواذ وتناطحـون صخر الصّوان، نردّ عليهم ونقول لهم نشيد "نحن الشّباب":

نَحْنُ بُنَاةٌ لِلسَّلام نَحْنُ حُمَاةٌ لِلوِئَام
نَمْضي وَلا نَخْشَى الحِمَمَ إِلَى الأَمَام إِلَى الأَمَام
نَبْنِي وَلا نَتَّكِلُ نَمْضي وَلا نَنْخَذِلُ
لَنَا يَدٌ وَالعَمَلُ لَنَا غَدٌ وَالأَمَلُ

فقـد كان رفاقنـا مثلاً ورمـزًا في الكفاح ومثـالاً فريدًا لا توأم لـه في التّفاني

والعمل والتّضحية وذلك بفضل رؤيتهم الواضحة على هُدى سـبيلهم في المبدأ الوطنـيّ والأمميّ الموجود في جيناتهم وينتقل بالوراثة حيث يرضعونه حليبًا صافيًا ونقيًّا من الشّـوائب من أثـداء أمّهاتهم ويشربونه ماءً عذبًا صافيًا من ينابيـع رؤوس بلادنا الشّـمّاء، جيلاً ثائرًا وراء جيل، ورفيقنا أبو سـليم هو عيّنة من تلك العيّنات التي نفتخر بها ونضعهم أوسـمة على صدورنا وكنت قد حدّثتكم عنها في الحلقات السّابقة.

وُلِد الرّفيق حبيب سليم حاج، أبو سليم، في قرية إعبلّين، في الثّالث والعشرين من شـهر شباط من العام ألف وتسعمائة وثلاثين. وقد توفّى والده حين كان عمره أربعة أعوام وتولّت والدته تربيته وأخته.

أنهى الصّفّ الخامس في مدرسة القرية، وحَرد وانقطع عن الدّراسة ولَم يُتمَّ دراسته الابتدائيّة وذلك كردّ فعل لمعاملة مدير المدرسة القاسية والشّرسة له، فقد كان "حَاطِط حْطَاطُو، إلك الله وإلو الله" إذ كان يضربه يوميًّا دون أدنى سـبب وكأنّه الطّالب الوحيد في تلك المدرسـة، مع أنّه لَم يكن مشاغِبًا قطّ، بل واظب على الحضـور اليوميّ، وحين كان التّلاميذ يراجعون وظائفهم البيتيّة لبعضهم البعض في ساحة المدرسة أو في البيتِ كان يجيدها على أحسن وجه، لكنّه كان مربوط اللسّـان ومُقفِل الفَكَّين أمام ذلك المدير لظلمه واسـتهتاره بالطّالـب حبيب، حيث لَم يُخرج كلمةً واحدةً من فيه حين يُسـأل، لذلك ترك المدرسـة وفي قلبه حسرة وفي أحشائه جمرة تنغِّص حياته إلى يومنا هذا، فبدأ يعمـل مسـاعدًا للحرّاثين في حقـول القرية وحدّادًا في منطقـة الكرداني بين مدينتي حيفا وعكّا، لاحقًا..

رُحِّلت عائلته، في عام النّكبة، مع باقي أهل القرية والتجأوا إلى قرية الضميدة لبضعة أيّام عادوا بعدها إلى قريتهم بعد أن أرسلوا بعض الأشخاص من أهل اعبلّـين إلى أحراش منطقة صفّورية، حيث كان مقـرّ قيادة جيش الاحتلال،

رافعــين الأعلام البيضاء ليســمحوا لهــم بعدها بالعــودة إلى أرضهم وبيتهم ورزقهم وحلالهم في قرية إعبلّين، وعادوا.

يقول رفيقنا حبيب: "لَم أفهم شــيئًا في السّياســة" وعندما تعرّف على الرّفيق وديع توفيق الخوري، أبو عايد، أوّل شيوعي يراه في حياته، حيث بدأ يزورهم في بيتهم طالبًا يدَ أخته مريم، أم عايد، فقد كان يحدّثهم عن الشّيوعيّة والنِّضال مــن أجل حــقّ العمّال والفلاحــين في العيش الشّريف والكريــم. أعجبت هذه الفكــرة الرّفيق حبيب واقتنع بها واعتنق مبدأ العدالة الاجتماعيّة والمســاواة والكفاح ضدّ الظّلم والاضطهاد والاحتلال. وانغمس أبو سليم منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا في العمل الوطني والشّــعبي والأممي حيث انتســب إلى صفوف الشّــبيبة الشّــيوعيّة بعد النّكبة مباشرةً وتســلّم قيادة فرع الشّــبيبة ليكون ســكرتير فرع قريته، حيث كان الفرع تابعًا لمنطقة حيفا، ويذكر رفيقنا أبو سليم بعضًا من أوائل المنتسبين إلى فرع الشّبيبة في القرية وهم الرّفاق: كامل الطّلب نجمي وتوفيق حســني نجمي وحســن سروة الشّيخ أحمد وعطا الله العزيز وموسى حسين أسعد وفوّاز اسكندر وبديع عويّد وآخرين..

وحــين عُقِد في العام تســعة وأربعين مؤتمر الشّــبيبة في حيفا ســافر المدينة لحضــوره حيــث تعرّف هنــاك على بعض من رفــاق حيفا، إذ يذكر أســماء بعضهــم: بنيامين غونين وجــورج طوبــي وإبراهيم تركي وكالمــان ألتمان وأهارون وكذلك كان رفاق حيفا يأتون القرية لعقد اجتماعات حزبيّة، نظريّة وتنظيميّــة، حيث كانوا يبيتون في بيوت الرّفاق في القرية وكانوا يجدون فيها قســطًا كبيرًا ووافرًا مــن الرّاحة، وكأنّهم في بيوتهــم ليُتابعوا عملهم في اليوم التّالي..

لقد كان الرّفيق حبيب ســليم حاج شــمّاس الكنيســة في القرية، لكنّه اعتزل التّرتيل والتّشــميس في الكنيســة بعد أن وافق خوري القرية مع بعض رجال

ديــن آخرين بعد احتلال القريــة، أو حتّى بإيعاز منهم كما يكتب رفيقنا أبو أنطون، نصري المرّ في مذكّراته في كتاب "جذور من الشّجرة دائمة الخضرة" لرفيقنا د. أحمد ســعد عــلى اعتقال نحو ثمانين من أهــل إعبلّين، وزجّهم في ســجن عكّا، إذ كيف يســتوي لرجال الدّين الذين يمثّلون أهــل القرية، بكلّ طوائفها، باعتقال أبنائهم ظلمًا وافتراءً.

يقــول رفيقنا أبو ســليم:"عندما كنّا نطلب تصريحًا من الحاكم العســكري للسّــفر أو التّنقّل كان يحدّد لنا المســار الذي يجب علينا سلوكه، بحيث كانوا يســجّلون أسماء الشّــوارع التي يُمكننا المرور بها في هذه المدينة أو تلك وإن وجدونــا في مكان غير الذي حُــدِّد لنا كنّا ندفع غرامة ماليّــة، وحدث مرّة أن طلبتُ تصريحًا للسّــفر إلى مدينــة حيفا لحضــور دورة تثقيفيّة فيها، حتّى نتهيّــأ نظريًّا لحضور مؤتمر "الشّــباب الديمقراطي العالمي" في مدينة فيينّا حيث كان عليّ إحضار موافقة خطيّة من المختار عرسان، وكيف لي أن أذهب إليــه بعد أن كنت قد صفعته على وجهه قبل أســبوع، حيــث طار عقاله من على رأســه وهوى على الأرض، حيث نعلم ما معنــى إيقاع العقال عن الرأس وبالأخصّ رأس المختار، حين شــتم أهل الحارة لتعاضُدهم مع الشّــيوعيّين، لكنّه، ربّك الحميد، وقّع دون كلام ناسيًا حادثة الأمس".

ذهب، بعدها، إلى الحاكم العسكري في مدينة شفاعمرو لإصدار تأشيرة سفر إلى فيينّــا وحين أعلــم موظّف الحاكم، شــكري مباريكي، برغبته في السّــفر لحضور مؤتمر الشّــباب رفــض إعطاءه التّأشــيرة تلك، بحجّــة أنّه لا يملك صلاحيّة إصدارها فأرسله تباعًا إلى غرفة الحاكم العسكري إذ كان حاضرًا في غرفته أربعة من عملاء قريته، إعبلّين، حيث اســتغربوا من شجاعة أبي سليم الفتــى الفتيّ، إذ كيــف يجرؤ على هذا الطّلب ويعلن شــيوعيّته أمام الحاكم العســكري ويطلب بجرأة تأشيرة ســفر لحضور مهرجان الشّبيبة في خارج

البلاد، لكنّ الحاكم منح رفيقنا تصريح سـفرٍ وعيون العسس الحاقدة تنظر بعضها ببعض باسـتهجان واستغراب، لكنّه لَم يُسـافر إلى المؤتمر لظروف عائليّة خارجة عن إرادته.

عمل أيضًا في مزارع الخنازير في القرية، وكان عضوًا نشيطًا في لجنة العمّال، ونتيجـة مثابرته وتصميمه على توفير ظروف عمل أفضل لعمّال هذه المزارع قـاد كفاحًا مريـرًا وناجحًا مـن أجل تحصيـل تأمين خـاصّ للعمّال حيث اسـتطاع أن يُجنّد لهذا النّضال نحو سبعين عاملاً، واستفاد من هذا المكسب عمّال جميع مزارع البلاد.

يذكـر أهل القرية حادثة، كما يذكرها الكاتب العـبريّ هيلل كوهين في كتابه "عـرب جيِّـدون" ص 65، أنّه تـمّ عرض صحيفـة الاتّحاد النّاطقة باسـم الحزب الشّـيوعي عـلى المطران حكيم حين كان يزور قريـة إعبلّين، وذلك في شـهر تشرين الأوّل من العام ألفٍ وتسعمائة وتسعة وأربعين، بعد أن خطب شاكرًا الحكومة والجيش والبوليس الإسرائيلي على مساعدتهم له، فقام رجال الشّرطـة بإبعاد موزّعي الصّحيفة عن المكان الأمر الذي أدّى إلى مشـاحنات كلاميّة وجسديّة حيث أبعدوهم عن السّاحة واعتقلوهم، وفي كتاب «جذور من الشّـجرة دائمة الخضرة» لرفيقنا د. أحمد سـعد ص 200، يذكر رفيقنا أبو أنطون، نصري المرّ في مذكّراته الحادثة نفسـها بأنّه بعد أن عرض الرّفيقان راشد سـليم وحبيب توفيق الخوري على المطران الصّحيفة حاولوا تحريض أهل القرية على رفاقنا بقولهم:» أنّ الشّيوعيّين ضربوا المطران في دار الخطيب الـذي احـترق عائليًّا» (إذ كيف يجرؤ أحد بالاعتداء على رجل دين مسـيحيّ في بيت مسـلمٍ حيث أن الاهانة الكبرى أنّهـم لا يقدرون على حماية ضيوفهم في بيوتهم خ.تٍ.)، وكان من بين المعتقلين الرّفاق: راشـد سليم وراشد حبيب وعـلي أحمد عثمان وعودة عبد عودة وحبيب توفيق الخوري وآخرين، زد على

ذلك أنّهم وجدوا سـببًا في اعتقال كلّ من آزر الشـيوعيّين ووقف إلى جانبهم حيث وصل عدد المعتقلين إلى ثلاثة وعشرين معتقلاً..

ويصف الكاتب هيلل كوهين في كتابه «عرب جيِّدون» ص 239 كيف يتدخّل جهـاز الشّـاباك في كلّ شـاردة وواردة، للحيلولـة دون وصول الشّـيوعيّين إلى منصـب أو وظيفـة أو حتّى تشـكيل أيّ ائتلاف بلديّ معهـم، ففي قرية إعبلّـين كان يـترأس المجلس البلدي عربيّ جيّد، حسـب تعريـف المخابرات، عرسان سليمان، وكان المجلس يتألّف من أحد عشر عضوًا، ثلاثة أعضاء من الشّـيوعيّين واثنان من كتلة عائليّة محسوبة على حزب «المبّام» حيث نجحت القائمتان بتجنيد عضوٍ سـادسٍ لتشـكيل أكثريّة يكون باستطاعتها تنحية رئيس المجلس، العربي الجيّد، من منصبه وتعيين رئيس مجلس جديد وطني وشريف ومخلص، الأمر الذي لم يرُق لرجال المخابرات حيث بدأوا وبطرقهم الخاصّة الضّغط على ذلك العضو السّادس ليكون عثرة أمام تشكيل الائتلاف الوطني، وفعلاً أفشـلوا التّغيير، لكنّ رفاقنا لَم يكلّـوا بل عاودوا الكرّة ثانيةً ممّـا أحرج رجال الشّـاباك الذين حاولـوا جاهدين منع رفاقنا من تشـكيل الائتلاف، وحـين رأوا أنّه لا بديل عن التّبدل قاموا بتنحية عربي جيّد وتعيين عربـيّ آخر أجود، أي تغيير عبّاس بدرباس، مـن العبّ إلى الجبّ، المهم أن لا يكون الشّيوعيّون في الائتلاف أو في أيّ مركز تمثيليّ..

يقول رفيقنا حبيب سـليم حاج، أبو سـليم:»أنا شـيوعي وإذا بموت، بموت مرتاح، لأنّ أولادي وأحفادي على هذا الطّريق».

ونُردّد أبياتًا من قصيدة رفيقنا الشّاعر عضو عصبة التّحرّر الوطني والمتوفّى في الأردن زكـي عـلي نفيسـة، وكان رفيقنا الشّـيوعيّ المخـضرم صالح عبد الرحمان المصري، أبو السّـعيد، قد علّمني إيّاها هذا الأسـبوع بعد لقاءٍ وديٍّ وحميمـيٍّ يُشـعرك بفخر انتمائـك ودربك، يمكنه إعطـاء دروس عن تاريخ

الحزب وإن جالسته تشعر أنّك جالس أمام موسوعة بشريّة:

أَنَا العَامِلُ، أَنَا البَانِي
رَمَانِي القَاصي والدَّانِي
أَنَا البَانِي قُصُورِهُمُ
وَكُوخِي سَقْفُهُ شَجَرِي
أَنَا الخَالِقُ نَعِيمِهُمُ
وَهُم لِي مَبْعَثُ ضَرَرِي

كُلُّنَا طَائِفَةٌ وَاحِدَةٌ

تقع قرية المغار على منحدرات جبال الجليل الشّرقي، على سـفح جبل حزّور، وتطـلُّ على بحيْرة طبريّا التي تغنّى بها الشّـاعر المتنبِّي بزئير الأسـد الهدّار الوارد إلى البحيْرة طلبًا للشُّرب حين قال:

وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحَيْرَةَ شَارِبًا وَرَدَ الفُرَاتَ زَئِيرُهُ والنِّيلا

وتُطِلُّ كذلك على سـهل حطّين الذي أخضبت دماءُ جند النّاصر صلاح الدّين الأيّوبـي ترابه بعد أن أنتصر على الفرنجـة، في القرن الثّاني عشر، في معركة فاصلة سُـمِّيَت على اسـم القرية وسـهلها بمعركة حطّين حيث كان السّـهل شـاهدًا على دحر جنود الفرنجة، فكتب النّـاصر في وصيّته أن يُدفن في القبر مع سيفهِ الذي جاهد به ليكون خير شاهد وشفيع أمام ربّه يوم تقوم السّاعة ويُحاسب..

تُعْـرَف قريـة المغـار الجليليّة بقريـة مغار حـزّور، حتى نُميِّزهـا عن بقيّة أخواتهـا من قُرى فلسـطين اللواتي يحملنَ نفس الاسـم كقرية مغار الرّملة ومغار غزّة..

تتبع قرية المغار لقضاء طبريّا، وتقع شمال غرب مدينة طبريّا حيث تبعد عنها حوالي إثني عشر كم وتحيطها القُرى التّالية: الرّامة، كفر عنان، فرّاضية، دير حنّا، ياقوق، عيلبون والشّـونة. كذلك تحيطها مـدن كبرى كالنّاصرة وصفد وعـكّا ويمرّ في جنوبها وادي التُّفَّـاح متَّجِهًا إلى الشّرق ليصُبَّ في نهر الأردن، لكنّ مياه النّهر نضبت بعد أن بدأوا بضخّ مياهه إلى النّقب لإحياء مشروعهم

الصّهيوني في توطين الصَّحراء، حيث تشــتهر القرية بإنتاج الزّيتون والزّيت والتي تُضاهي عدّة قرى بجودة زيتونها ونقاوة زيتها..

يقول الشّاعر:

رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ يَلِدْهُ أَبُوكَ
وَأَخٍ أَبُوهُ أَبُوكَ قَدْ يَجْفُوكَ

ويقولُ آخر:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لا أَخَا لَهُ
كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَا دُونَ سِلاحِ
وَابْنُ عَمِّ المَرْءِ فَاعْلَمْ جَنَاحَهُ
وَهَلْ يَنْهَضُ البَازِي دُونَ جَنَاحِ

سأُحدِّثكم عن صديق ظننته دائمًا أنّه عضوٌ في الحزب الشّيوعي منذ أن تأسّس في قريــة المغار، وقد زاد من قناعتــي بعضويَّته تكريم حزبنا لرفاقه القُدامى قبل سنوات خلت في مدينة النّاصرة، وحين قابلته للحديث معه وجدته صديقًا حميمًــا وأخًا شــقيقًا وابنَ عمّ لحزبنا منذ أن قرأ أوّل مــرّة صحيفة الاتّحاد، فكلمات هذه الصّحيفة ودرب حزبها تجري في عروقه وترهف أحاسيسه، إنّه الصّديق / الرّفيق حنّا حبيب شــحادة، أبو ناجي، حيث يعتبر نفســه ملازمًا وملتزمًــا في كلّ خطوة يخطوها الحزب، وأنّه مع هذا الخطّ وعلى هذا الطّريق إلى أن يأخذ الله وديعته.

وُلِدَ رفيقنا أبو ناجي، في قرية المغار عام ألفٍ وتسعِمائةٍ وثلاثين، حيث أنهى دراســته الابتدائيّــة فيها، وحاول مــن بعدها الهجرة إلى المدينــة طلبًا للعمل في مصنع مصــافي البترول في حيفا، الرِّفاينري، فقد قــدّم امتحانات الدّخول باللغــة الانجليزيّة بنجاح بارز، لكنّ حاجة والده له في زراعة وفلاحة الأرض حالت دون هجرته إلى المدينة.

كانت القرية الوادعة تعيش حياة هادئة بانسجام وتجانس تامّ بمسلميها ومسيحيّيها ودروزها، حيث كان المسلمون والمسيحيّون يسكنون في حارة واحدةٍ والدّروز في حارتين، الغربيّة والشّرقيّة، وكان أهل القرية يتزاورون دائمًا في الأفراح والأتراح وخصوصًا في الأعياد، حيث كان التّعصُّب الطّائفي والدّيني غريبًا ومنبوذًا من قبل أهل البلد، وكانت صفة الخلافات عائليّة أو حمائليّة وكان يجري حلّها بعقد معاهدات صلح عشائريّة. وحين كانت تضيع بقرة أو حصان من راعي القرية تجد أهل البلد يهبّون هبّة الرّجل الواحد للعثور على المفقود وكذلك المساعدات المتبادلة كصبّة باطون السّقف وغيره..

كانت بيوت القرية مبنيّة من الطّين حيث كانوا يجدّدون تطيين السّقف كلّ سنة منعًا ووقاية من تسرّب مياه الأمطار إلى البيوت وكنتَ تجد أعشاب البابونج تنبت على سقوف البيوت بغزارة، لقد كان البيت في القرية مقسّمًا لثلاث مصاطب حيث استُعملت الأولى لإيواء الحيوانات ولخزن المنتوج الزّراعي، بينما استُعملت الثّانية للطّبخ والطّهي ومصطبة ثالثة للنّوم واستقبال الضّيوف، وكانت جدران البيوت مشتركة للجميع لدرجة أنّه كان بإمكان الشّخص أن ينتقل من أوّل الحارة لآخرها من على سطوح البيوت، وكانت ليالي السّمر بين الجيران على أسطح منازلهم، وكانت النّسوة تُحضِرن الماء من النّبع لأيّام عدّة حيث ينقلنها على الدّواب إلى البيت بعد أن يقمن باكرًا لإحضار الماء خوفًا من الوقوف المطوّل بين جمعِ النّساء المنتظرات دورهن، وكان توقيت أهل البلدة حسب سقوط أشعّة الشّمس ومغيبها وحسب ظهور الهلال واكتماله..

يذكر الرّفيق حنّا حادثة جرت لفرقة من ثوّار السِّتّة وثلاثين حين نصبوا كمينًا للجيش الانكليزي في منطقة قرية فرّاضية، نجحوا في اصطياد الجنود

البريطانيّين لكنّ الثُّوّار عادوا مع جريحين، الأوّل تداوى وتعافى والجريح الثّاني من قرية سخنين لا يذكر اسمه، حيث كانت جراحه بالغة، وقد قرّرت قيادة فصيل الثّوّار إرساله إلى الشّام للعلاج، لكنّ الثّائر استشهد في الطّريق نتيجة جراحه البالغة ودُفن مكان استشهاده شرقيَّ القرية.

لَم تكن في القرية فصائل من أهل البلدة بل كان المقاومون يمُرُّون بالقرية، وكان المُختار عبده العايدي مؤازرًا شجاعًا وعنيدًا للثّوّار حيث كان بيته محطّة استراحة يأوي فيه رجال المقاومة ويهتم بتدبير كلّ احتياجاتهم لمتابعة سيرهم ويقول رفيقنا أبو ناجي: «كنّا نحن الصّغار، ندلّهم على الطّريق ونزوِّدهم بحاجيّاتهم، والتقينا، مرّةً، ثائرًا من حطّين كان قد وقع في حفرة مليئة بأشواك الصّبر، أخذناه وآويْناه وخدمناه وألبسناه وأخذتُ بندقيّته وأخبأتها في التّبّان وبدأ يشعر بتحسُّنٍ في وضعه بعد ثلاث ليالٍ حيث استرجع سلاحه وتابع مسيرته..».

لقد أجبرت قوّات جيش الإنقاذ أهل القرية شراء أسلحة واستعمالها داخل القرية فقط إن كانت هناك حاجةٌ له لأنّ جيش الإنقاذ مسؤول عن الدّفاع عن القرية من الخارج، كذلك أجبروا السُّكّان على حفر الاستحكامات داخل البلدة بعد أن كانوا يرجعونهم من حقولهم مُكرهين وحظر عليهم الاشتراك في الحرب وقد مُنعوا من حمل السِّلاح خارج القرية ويكتب الأستاذ جريس طنّوس ما قاله والده في كتابه ذاكرة الأيّام ص 209: الفلاحون فقراء لا يملكون ثمن بندقيّة، وفي كلّ البلد لا يوجد سوى بنادق معدودة، والعدو يمتلك المدرعّات والطّيّارات والمدافع الرّشّاشة. وفي ص 214 يكتب الأستاذ جريس طنّوس ما طلب جيش الإنقاذ من أهل القرية: على كلّ فلاح أن يشتري بندقية وذخيرة حتّى لو باع أرضه.

لقد كانت الطّائرات تحلّق فوق سماء القرية وبارتفاع منخفض لدرجة أنّه

كان بمقـدور أيِّ قنّاصٍ إصابتها وإسـقاطها، وكانوا يرمون براميل البارود ومواد حارقة من الطّائرات على بيوت النّاس العُزّل، وقد رأى الأستاذ جريس طنّـوس في ذاكـرة الأيّام ص 246: شـاهدْتُ قرب الجثـث امرأتين تنحنيان عليها وأيديهما في شـعريهما والصّرخة تُدوِّي. كلّ منهما تدّعي أنّه ابنها. كلّ أمّ تنـادي وتندب ابنهـا. نظرتُ جيّدًا وإذ بالامرأتين همـا أمّ صديقي وأمّي. أردتُ أن أصرخ وأن أبلّـغ أمّـي أنّنـي حيّ ولم أمت ولـم أتمكّن من الصّراخ بسبب الرّعب الذي شلّ صوتي، كيف لا وإثنان من أبناء حارتي ممدّدان على الإسفلت ودماؤهما تسيل..

وجد أهل القرية جثّةً مدفونة في أرض على حدود القرية لشخص لَم يتعرّفوا على ملامحه وفي جعبته علبة سـجائر مكتوب عليها اسـم شخص من القرية وحين ظنّوا أنّه اسم القتيل ذهبوا لإعلام أهله بخبر الاستشهاد فوجدوا صاحب الاسم جالسًا في بيته فقصّوا عليه أنّ اسمه على علبة سجائر ذلك القتيل، تذكّر أنّه أعطاها لأبن قريته عاهد العايدي فتوجّهوا إلى دار أهل الشّـهيد لإخبارهم بهذا النّبأ المُفجع..

ويتابـع ذكرياته:»كان الرّفيق داود تركي يأتي إلى القرية من حيفا في أواخر سـنوات الثّلاثين وكان يُجمّع أترابه في الحقل بين أشـجار الزّيتون ويعلّمهم الأناشـيد الوطنيّة ويُلقـي عليهم محاضرات عن الوطنيّـة وحبّ الوطن، لقد كان ابـن المدينة أوعى وأفطن بكثير من ابن القرية، حيث وجدنا فيه إنسـانًا يعـرف الكثير بينما كنّا نحـن في القرية نجهل الكثير وقد كان أبو عايدة أوّل شيوعيٍّ أراه ويعود له الفضل الكبير في تأسيس الفرع في قريتنا».

حين حضرت قوّات الهجناة القرية لاحتلالها نادوا على أهلها، خاصّةً الرّجال، بترك بيوتهم والتّجمهر في سـاحة المدرسـة، وجلس الرّجال في أرض سـاحة المدرسة كتلة واحدة متجانسة، لا تستطيع أن تفرّق بينهم، من أيّ حارة هذا

وأيّ ديانــة ذاك، وحين صاح القائد العســكري بالرّجال أن يتفرّقوا بحســب انتمائهــم الطّائفيّ بعد أن أراد إرســال عددٍ منهم لجلــب المياه، لينصب لهم كمينًــا لقتلهم، لإرهاب أهل القرية، وإذ بشــاب يافع أســمر البشرة، مرفوع الهامة واسمه حسين وحش عرايدي، من حارة الدّروز، يتصدّى للقائد المحتلّ بقوله:»لا توجــد في قريتنا طوائف، نحن جميعنا طائفة واحدة، إمّا أن نبقى جميعًــا وإمّا أن نرحل جميعنا» وصمت القائد الصّهيوني وعاد المعتقلون إلى بيوتهــم. ورأى قتل رجل وزوجته من الحارة الشّرقيّة، برصاص الغدر، كانا يطُلان من النافذة لرؤية ما يجري في القرية.

يُقال مع التأكيد أن والد حسين عرايدي، واسمه وحش، كان من رجال القرية وزعامتها وقد آوى مرّةً ســيّدًا من لبنان واســمه فؤاد علامة، الملقّب بالشَّقيِّ الشَّريــف، قاطع طرق أشــبه بفصيلــة القرامطة،حيــث كان مطلوبًا للدّرك الانجليزي بســبب ضلوعه في بعض التّجــاوزات حيث كان يأخذ المال والمأكل والمشرب من الأغنياء ويُعطيه للفقراء، وكان يحترم حرمة النّساء ولا يقربهن أو يأخذ ممّا يملكن حتّى لو كان معهن مال سرســق، وقد لقّبته مســافرة إلى بيروت من آل الخيّاط بهذا اللقب الشّقيّ الشّريف. وعندما حضر الانجليز بيت السّــيّد وحش، بعد وصولهم إخبارية عن مخبأ هذا الشّــقيّ عنده، استقبلهم وأحسن وفادتهم وحين سألوه عن فؤاد علامة أقرّ بوجوده عنده وطلب منهم تهريبــه على أن يعــود للبنان للحؤول دون اعتقاله، فــكان له ما أراد بعد أن خجلت العين من أكل الفم..

قبل أن يتعرّف سكّان قرية المغار على صحيفة الاتحاد تعرّفوا على الشّيوعيّين من خلال منشورين وُزّعا في فترة النّكبة كان الأوّل بيان الشّيوعيّين العرب، في الأقطــار العربيّة الذي يفضح تآمر الحكّام العرب وتواطُؤَهم مع الصّهيونيّة ومــع الانكليز للحول دون قيام الشّــعب الفلســطيني بتقرير مصيره، حيث

وُزّع في جميع الأقطار العربيّة وبتوقيت واحد، وكذلك وزّع منشـور أصدره شيوعيّو فلسطين، كان قد كتبه الرّفاق في مدينة حيفا، توفيق طوبي وعصام العبّاسي ويوسف عبده، يدعو إلى عدم الرّحيل من الوطن ويحثّهم على البقاء في أرض الآباء والأجداد وعدم استبدال الوطن بآخر..

بـدأ الرّفيق أبـو ناجي قراءة صحيفـة الحزب، الاتّحاد، منذ أن سـطع نجم الحزب في سماء جبل حزّور يبشّر أهل قريته، مغاره، بأنّ الأمل كبير بالتّحرّر وعودة اللاجئين وذلك بالعمل المثابر والوحدة الوطنيّة، قرأها منذ أن تأسّـس الحـزب في القرية، حين كان يوزّعهـا الرّفاق سرًّا وما زال إلى يومنا هذا قارئًا مثابرًا للاتّحاد وقد أصبحت الجريدة توزّع بالعلن وعلى الملأ شـاهرةً سـيف الحقّ والحريّة والعدالة الاجتماعيّة..

يقول الرّفيق حنّا:»كنتُ وحيد الوالدين لذلك كان والداي يخافان عليّ حتّى من نسيم الهواء العليل والشّافي، لذلك حين أحضرت صحيفة الاتّحاد لأوّل مرّة إلى البيـت لم يهدأ بال والدي لخوفه على ابنه الوحيد، الأمر الذي أرعبه وحذّرني من مغبّة هذا الطّريق، لكنّ هذا لم يثنني بل تابعت دربي بمؤازرة الشّيوعيّين إلى يومنـا هذا، وحتّى أصبح والـدي يناديني لأقرأ له صحيفة الحزب بعد أن نُقفل الأبواب والشّـبابيك» لقـد فعلوا هذا كي يصمّـوا آذان الحيطان وآذان العملاء.. فقد كان العملاء يسيرون ليلاً مثل الخفافيش يسترقون الكلام أحيانًا وأخرى كانوا يرمون بيوت الشّيوعيّين بالحجارة ويهربون، كي يتراجعوا عن طريقهـم، لكنّ الخوف والوجل لم يجد طريقه إلى الرّفاق، ويقول رفيقنا أبو ناجي:»لأنّهم شجعان وجدعان ومثالٌ في المروءة وعزّة النّفس والتّضحية».

«لقد كان عملاء القرية يصوِّرون الشّيوعي بصورة شيطان على الأرض بغية التّحريض عليه وإبعاد النّـاس عنه وتخويفهم منه» هنا نرى نفس الصّورة التي يحاولون فيها، بائسـين وفاشلين تصوير الشّـيوعيّين وكأنّهم وحوش،

كفـرة، شـياطين، عديمو الأخـلاق لا يفرّقون بـين الحلال والمحـرّم، والأمر الصّحيـح هو أنّ الشّـيوعيّين مجبولون مـن طينة أخرى، طينـة من أعماق الأرض إن لم تكن من نواتها، مرطّبة ومعطَّرة من مياه ينابيع الكرامة والعزّة والقوّة والتّضحية والصّمود..

يذكـر مرّة أنّه خلال اجتماع جماهيريٍّ خطابـيّ، للرّفاق توفيق طوبي وحنّا نقّارة قام نفرٌ من عملاء السّـلطة بالهجوم على هذا الاجتماع بهدف إفشـاله حيث عمل الرّفاق على إنجاح الاجتماع وسـحبوا الخطباء من سـاحة الاعتداء إلى مخبـئ حتّى يرتّب الرّفاق أمور اسـتمرار الاجتماع لكـن رجال الشّرطة كانـوا في انتظار هذه اللحظة حيث اعتقلـوا الرّفاق وتركوا المعتدين يذهبون أدراجهم بعد أن أنهوا مهمّتهم..

«لَم أحصل قطّ على تصريح للعمل وذلك لانتمائي للحركة الوطنيّة ومعرفتهم بدعمـي للحـزب الشّـيوعي لكنّي اشـتغلت بعـدّة أماكـن بمـا فيها شركة «مكـوروت» و«سـوليل بونيه» بدون تصريح ولم يتوقّـع أحد منّي أن أكون بدون تصريح»..

كان رفيقنا أبو ناجي وغالبية رفاق فرع المغار من معتقلي يوم الأرض الأوّل وعندما أرادوا توقيعه على رسـالة تعهّد بعدم القيام بأعمال «شـغب» رفض التّوقيع والتّهمة وأنكر تهمة التّحريض على الإضراب والتّجنّد لإنجاحه، حيث التجـأ إلى ذريعة ناجحـة أوجدها مقنِعًا المحقِّقـين بصدقه وبصدفة تواجده هناك، الأمر الذي حرّره من المعتقل وبدون أيّ إجراء قضائي..

«علاقتي بـالأرض كعلاقة رئتيَّ بالهواء، إذا لم أفلح أرضي أو أسـقي زرعي أو لا أكون فيها يومًا أشـعر أنّ شـيئًا ينقصني وكذلك أشعر بتعب وإرهاق، وحين يُفتِّش أهلي أو أولادي عنّي يجدونني في الأرض» بهذه الكلمات يُلخِّص أبو ناجي علاقته بأرضه..

لقد أرادت السُّلطة الاستيلاء على الأرض والإنسان فقد قامت بمصادرة الأراضي لتهويدهـا واعتقـال كلّ من يمكن أن تعتقله للسّـيطرة عـلى فكره ومبدئه.. كيف يمكن لرجال السّـلطة أن ينجحـوا في خطّتهم حين يكون رفاق الحزب الشّيوعي الواجهة المركزيّة في الدّفاع عن الجماهير والتّصدِّي للمؤامرات..

الرّفيـق حنّـا حبيب شـحادة، أبـو ناجي، مـن أصدقاء الحـزب ومناصريه ومسـانديه منذ أن تأسّـس في قرية المغار وما بدّل طريقه وما حاد عن دربه، فلاحٌ مثقّفٌ وثوريٌّ منذ أن رأت عيناه نور دربنا القويم والمسـتقيم، معاضدٌ للحزب الشّيوعي وجبهته الدّيمقراطيّة إلى آخر ثانية في حياته.

لقـد قامت قيـادة الحزب، قبل عدّة سـنوات، بتكريمه مـع كوكبة كبيرة من الرّفـاق من جميع مناطق الوطن وفروعه، هـذه الكوكبة التي زرعت لنجني وجنَيْنَـا ونتابع نحن بمـشروع الحياة هذا فنزرع لتجنـي أجيالنا الصّاعدة ثمـار الحريّة والتّحرّر والعدالة الاجتماعيّة، ولأبي ناجي وجميع أفراد عائلته الكريمـة ألـف وألف تحيّة معطّـرة بماء أزهار الجليل مـع خالص الأمنيات بالصِّحَّة والعافية والعقل السّليم والعطاء الذي لا ينضب..

عَادَ إِلَى يَافَا رَغْمَ أَنْفِ الغَاصِبِين

اجتمع بعد اليوم الثّامن من شــهر آذار، هذه السّــنة، رفــاقٌ من أتراب عمّي داود، أبــو عايــدة، الذيــن رافقوه مســيرته في الحزب الشّــيوعي منذ أن رأت عيونهــم نور النّجم الأحمر السّــاطع مع رفاقه مــن الأسرى المحرّرين، الذين كانوا معه في السّــجن، في بيته في حيّ وادي النّســناس وذلك لترتيب مســيرة الوداع الأخير لهذا المناضل العنيد، حيث تداولوا في اللقاء ذكرياتهم المشــتركة معه وبطولاته/هم وكفاحه/هم في ساحات النّضال، داخل السّجن وخارجه وقــد كان من بين الذين ذُكِروا في تلك الجلســة الفريدة من نوعها، رفيق يافيّ لم يرونه منذ عقود، وتابعوا الحديث عن ذكرياتهم المليئة بالحيويّة والنّشاط والتّضحية والبطولة وكأنّهم من عالمٍ آخر ومن كوكبٍ غير كوكبنا ومن طينة غــير طينتنا، فبعد أن ذُكِــرَ هذا الرّفيق في ذلك اليوم من شــهر آذار من هذه السّــنة، وإذ بشــخص يدخل دار عمّــي أبو عايدة معــروف الملامح، مألوف الوجه والسّــماه، مجهــولَ الهويّة أو منسيَّ الاســم بعد أن مــرّت عقود وراء عقــود دون أن يلتقي الرّفيقُ برفيقِهِ ودون أن يســمع أخبــاره بعد أن كانوا يرتعون في ذلك «القصر الشّــتوي»، في بوّابة الدّير، وينهلون ســويّة من نبع الشّــعر والأدب والسّياســة ومبدأ العدالة الاجتماعيّة، لكنّ ظروف وشــظف الحياة فرّقتهم جســديًّا، وهذا الأمر طبيعيّ، وبدأت أَعْيُنُ الحضور تنتقل بين الرّفاق بتســاؤل شرعيّ، من هو هذا الدّاخل المُعزِّي؟ وبعد أن طرح السّــلام عــلى أهل البيت والحضور وإذ بأحد الرّفــاق يصيح:»يا رفاق هذا هو صالح

عبـد الرّحمان الذي كنّا نتحـدَّث عنه» وبدأت الذّكريات تفرض نفسـها على ألسـن جميع المعزّين الحضور وكلّ يحدّث بإسهاب عن هاتيك الأيام وشوقه إليها، حيث سحبت هذه الذّكريات ألسن الحضور وأفلتت لها العنان، وكلّ له حكاية وكلّ له رواية وكلّ يحدّث نفسه، ليت الشّباب يعود يومًا..

وُلِدَ الرّفيق صالح عبد الرّحمان المصري، أبو السّـعيد، في السّابع والعشرين من شـهر آب من العام ألفٍ وتسـعمائة وسـبعة وعشريـن، في بيتهم الثّاني الواقع في مقام النّبي شـمعون، لعائلة يافيَّة كانـت تزور المقام في عيد النّبي شـمعون قادمـةً من مدينة يافا عاصمة فلسـطين الثّقافيّـة ومحطّ الحجّاج الوافديـن لزيارة القدس بحـرًا من جميع أركان العالـم بطوائفها وديانـاتها المختلفـة، فقد كانوا يطلقون عليها أيضًا اسـم يافة القدس لأنّها كانت منفذ ومتنفّس بيت المقدس البحري الوحيد.

سـكن وأخويْه عيسى وعـلي وأمّه مريم على حدود حيِّه المنشـيّة مع حيّ كرم اليمـن بعد أن توفّى والـده عبد الرّحمان وهو مـا زال يحبو على أربعته، فلا يذكر عن أبيه شيئًا غير الذي كانت تحدّثه والدته عنه وأحاديث من ذكريات معارف والده الذي دُفِن في المقبرة الإسـلاميّة المدنّسـة على أيدي غرباء البلاد بعد أن أقاموا عليها حديقة «الاسـتقلال» للتّنزُّه والاسـتجمام وفندق هلتون للسّياحة.

لقد بنوا على قبور أهلنا سـياحتهم بعد أن نبشـوا أضرحتهـم وتركوا عظام الموتى مكشـوفة لهبِّ الرِّيح وأقاموا بيوتهم بعد أن هدموا بيوت عرب البلاد أو حتّى بنوها من حجارة أنقاض بيوت الذين شرّدوهم أو سكنوا بيوتًا عامرة بأثاثها وأدواتها المنزليّة بعد أن طردوا أهلها منها واسـتثمروا أراضيهم بعد مصادرتهـا وفقَ قوانين أصدرُوها هُم لخدمتهـم، إذ وظّفوا القانون لتحقيق مآربهم، حتى تسـير أمور الدّولة بالقانون والشّرعيّة التي رسموها لأنفسهم

على أراضي أهل البلاد الأصليّين حتّى أنّ ثمار أشــجار الجميز الزكيّة الحمراء الموجودة إلى يومنا هذا وسط طريق الملك جورج تشهد على بشاعة المأساة..

بعــد وفاة والده عبد الرّحمان تولّت أمّه مريم شــؤون وهمّ البيت، إذ حُرِموا من أملاك والده بســبب ظُلم ذوي القُربى، وعندما اشــتدّ ساعده ونضج بدأ يعمل مساعدًا لفرّان المدينة حيث كانت أجرته آخر كلّ نَهارٍ كاوٍ رغيف خبز يأخذه منتشــيًا بأجره إلى البيت ليكون لهم مــا يأكلونه في ذلك اليوم، بعدها عمل حجّارًا وبعدها قصّابًا في المدينة.

تعرّف على الشّــبيبة الشّيوعيّة في العام ألفٍ وتســعمائة وسبعة وثلاثين بعد أن أخذه إلى النّادي جاره بنتسيون حيث كان عمره حينها عشرة أعوام. لكنّ صديقــه طُرِد من البيت والتجأ إلى بيت رفيقه صالح بعد أن عرف والده عن ابنــه أنّه يتردّد إلى نادي الشّــبيبة، فقد ســكن في دارهم ما يُقــاربُ العامَيْن.

حــين وجد والد بنتســيون أنّ ابنه مســتمرّ في طريقه حــضر إلى بيت صالح محذّرًا والدته من مغبة تبنّي الشّــاب، إبنه، فكان جواب والدته إذا حصل أيّ مكروه لولدها أو لصديقه فإنّها لن تُجدّد عقد الإيجار، وبقي الرّفيقان صالح وبنتســيون عضوين في الشّــبيبة الشّــيوعيّة ومن بعدها في الحزب الشّيوعي دون أيِّ تغيير في المسار.

ويقــول رفيقنا صالح:»رأيــتُ ولأوّل مرّة في حياتي الرّفيــق فؤاد نصّار، أبو خالــد، في يافا في جادة جمال باشــا (شــدروت يروشــلايم) بعــد أن عاد من العــراق، حيث لجــأ إليها بعد أن حكمــت عليه محكمة الانتــداب البريطاني بالإعــدام، وعندمــا أعلن البريطانيّون العفــوَ العامّ في العام ألف وتســعمائة وســبعة وأربعين عن جميع الفارّين والمعتقلــين والمنفيّين والأسرى، أتى يافا ليقــول كلمته الشّــجاعة لا لنهج الحاج أمين الحســيني نعــم لنهج المجاهد والمقاوم عبد القادر الحســيني في الاجتماع الشّــعبيّ الحاشــد في مدينة يافا،

كذلــك رأى رفيقُنــا صالح الرّفيــقَ فؤاد نصّار أبو خالد حــين انتزع من على منصّة الخطباء قميصه، أثناء مزاودة بعض المنتفعين الحاقدين،كي يكشــف عــن صدره المنتصب والمليء بندب جلديّة من رصــاص الجنود الانجليز وهو يناضل في أحراش الخليل ضدّ المســتعمر الغاصب بعد أن تسلّم قيادة فصيل المقاوِم عبد القادر الحســيني الذي تــرك المعركة عندما أُصيب بجراح صعبة وبالغة في إحدى معارك الشّرف والبطولة هناك، لقد كشــف عن صدره حين زاود على وطنيّة الشّيوعيّين خطيبٌ خلال ذلك الاجتماع الشّعبيٍّ في يافا، حيث كان الرّفيق فؤاد نصّار أحد خطبائه.

عمل رفيقنا صالح في مطابع الاتّحاد منذ أن صدر أوّل عدد من الصّحيفة في يافا، لفترة لا يذكر مدّتها، وذلك في أيّار عام ألفٍ وتســعمائة وأربعة وأربعين حيث كان يتناوب ورفاقه كلّ عشر دقائق على تشــغيل دولاب المطبعة الكبير لعدم وصــول التَّيَّار الكهربائــي بعد إلى المدينة وكأنّي ســمعته يقول خلال لقائنا في حيفا هذا الشّــهر، بقدر ما كان العمل في طبع صحيفة الحزب شاقًّا بقدر ما كان العمل شــيِّقًا، خاصّةً عندما كان إقبال جمهور القرّاء كبيرًا على الصّحيفــة كي يقرأوا شــيئًا مغايرًا يدافع عنهم، عن المســحوقين والمغلوبين والمضطَّهَدين.

يقــول رفيقنا عبد الرحمان المصري، أبو السّــعيد، في حديثه المشــوِّق أنّه مع صدور قرار التّقســيم أخذت الأعمال الإرهابيّة طابعًا أكثر عنفًا وأشدّ شراسةً وحقــدًا، فقد أقدمــت عصابات آل صهيــون بحرق منــازل المواطنين العرب الخشــبيّة في المدينة وطرد أهلها مــن بيوتهم لإرهابهم وإجبارهم على النُّزوح حيث وجدوا أنّ طريقهم مفتوح إلى وســط يافا، إلى الميناء، حيث كانت سفن «الأشــقّاء» والغرباء تنتظرهم هناك لترحيلهــم، وكأنّ الأمور كانت مخطّطة ومُدبَّرة مســبقًا، فقد مخرت السُّــفن بهم إلى شــواطئ غــزّة، وهناك رمتهم

عاصفة بحريّــة عاتية بين أحضان أمواجها وقذفتهــم عميقًا في قلب لُجَجها الشّاهقة وكأنّ الطبيعة، هي الأخرى تآمرت على النّازحين، لكنّ مرور سفينة الأميرة فوزيّة قربهم أنقذتهم من الغرق، وكأنّها على موعد مع النّازحين حيث سكنوا في بور سعيد ومن ثمّ في القنطرة.

يذكر رفيقنا أنّه عندما كان في ســوق غزّة يشــتري بعــض الحاجات المنزليّة وإذ به يســمع صوتًا يُنادي على الفلســطينيّين اللاجئين، أنّه من يريد العودة إلى بلاده يجب عليه أن يتطوَّع في الجيش المصري فذهب رفيقنا مع خمســين شابًّا إلى المعسكر، يأكلهم الحماس للدّفاع عن الوطن والعودة إليه منتصرين، حيث ألبســوهم هناك الزِّيَّ العسكري، دون أن يستلموا السّلاح، فقد اشترى أشرطة من بائع الأقمشــة في السّــوق ووضع ثلاثة شرائط من كلّ جهة، على كتفيْه وعندما سُئل عن رتبته قال لهم: «شاويش»، حيث دفعوا له أجرًا حسب رتبته هذه، وقد كان أجره أربع ليرات مصريّة شهريًّا، تقريبًا..

ومنذ أن تجنَّد في الجيش المصري لم يرَ والدته وأخويْه علي وعيسى..

انتقل بعدها إلى بيت جالا ثم بيت لحم لتدريب السُّكَّان على استعمال الأسلحة دون أن تلمــس أيديهم الأســلحة! وكانــت مهمّته تدريب سُــكّان قرية علار البصــل على السّــلاح، فكيف يُدرّبهم وهو لا يملك فشــكةً ولا فــردًا ولَم يكن مؤهّــلاً ولا كفــوًا لتدريب النّاس، الأمر الذي دفعــه إلى العودة إلى مدينته يافا ولو على قطع رأسه حيث سار على الأقدام ثلاثة أيّام بلياليها دون طعام ومع قليــلٍ من الماء، حامــلاً روحه على كفّه بعد أن كانــت مرهونة بكفِّ العفريت الذي أرســل لــه ثلاثة من رجــال الشّرطــة المصريّين (على الأغلــب من أصل ســوداني) وحين سألوه عن الرّفيق فؤاد نصّار أجابهم:»إنّه أحد عِظَام قيادة زمانِنا» فتشــنّجت سِحنة المحقّق صارخًا في وجه أبي السّــعيد ومتوعِّدًا إيّاه بعدم إخراجه من السّــجن حيًّا، فقد زُجّ في زنزانة في ســجن أبو عجيلة، قرب

العريش، حيث وضعوه في قفص الأُسُود مع الرّفاق الأُسُود علي عاشور وسعد معدّي ومحمّد حسن وحسن أبو عيشة وأسعد مكّي ومحمّد خاصّ وحسن أبو حلاوة وحسن شاهين وعودة الأشهب ومحمّد علي العشّ وآخرين وكان لقاءً حميمًا ودودًا، الأمر أنسى المعتقلين همومهم وأكّد لهم صدق طريقهم، ممّا أثار عصبيّة السّجّان الحقود الذي لَم يقوَ على إخفاء ضغينته فقد بدأ يشتم المعتقلين. وما نفع العواء على قافلة كُتب عليها أن تسير إلى أمام الأمام، في طليعة كلّ تحرّك وطنيّ..

احتلّت القوّات الإسرائيليّة، بقيادة الضّابط يتسحاق ساديه، السّجن في شهر كانون أوّل من عام النّكبة لبضعة أسابيع حيث هدّدوا رفاقنا بالقتل إذا فكّروا بالعودة إلى بلادهم لأنّ إسرائيل، حسب قولهم، ستطرد كلّ العرب من البلاد وستقتل كلّ من يبقى فيها، فكان جواب رفيقنا صالح عبد الرّحمان نيابةً عن باقي المعتقلين لأنّه الوحيد الذي كان يتكلّم العبريّة ويُجيدها:»سنخاطر بحياتنا وسنعود بكلّ ثمن» وعندما انسحب جيش الاحتلال من منطقة العريش أسر المعتقلين مع الجنود المصريّين. يقول رفيقنا صالح: «كان سجننا جامع بئر السّبع، حيث مَكَثْنَا فيه ثلاثة أسابيع وبعدها فرضوا علينا إقامة جبريّة في بيت غريب في مدينة بئر السّبع دون حراسة شريطة ألا نغادر المكان».

سَكَنَ مدينة النّاصرة منفيًّا لمدّة سنة كاملة في بيت السَّيِّد صالح الخوري في منطقة الحيّ النّمساوي وبعدها سَكَنَ في مدينة حيفا في «القصر الشّتوي» عند بوّابة الدّير، وكان هذا «القصر» عبارة عن «برّاكيّة» كانت فيها مضخّة أو بابور لضخّ المياه، ويذكر رفيقنا موسى ناصيف هذا «القصر» بقوله: وقد كان من روّاده الرّفاق: أسعد مكّي وعلي عاشور وعصام العبّاسي ومحمّد الشريدي وحنّا أبو حنّا وعودة الأشهب ومحمّد خاصّ وأحمد قوّاس وشفيق

طوبي وديب عابـدي والياس جمّال ووجيه عرابي وعـلي خمرة وجبرا نقولا وإبراهيـم تركي وصالح عبد الرحمان وتوفيق عمر ونسـيب قبطي ومدحت الشَّـعّار ومحمّـد العـشّ وعبّاس زيـن الدّيـن وداود تركي وأذكـر أنّ داود تركي كان أشـطر واحد فيهم ويغلب الجميع في المبارزة الشّـعريّة حيث كان يتمتّـع بذاكرة غريبـة ومتفوِّقة على غيره، وكذلك أطلقنا على «القصر» اسـم «الكومونة» حيث كان سـكّانه يعملون دون كلل كخليَّة نحل دائمة النَّشـاط والحركـة وقد أخذ هـؤلاء الرّفاق على عاتقهم القيـام بأكثريّة العمل الحزبيّ والنّشـاطات الجماهيريّة والشّـعبيّة وتوزيع أدبيّات الحزب على سكّان حيفا العرب وقراها المجاورة».

يسـكن منذ العام ألفٍ وتسـعمائة وواحد وسـتّين مدينة يافا، مسقط رأسه، حيث يمكنني أن أقول عنه أنّه عاد إلى يافا رغم أنف الغاصبين..

يقـول لي رفيقنا صالح عبـد الرّحمان (رفاق حيفا لا يعرفونه باسـم صالح المـصري): «حقّ العـودة جالسٌ أمامـك، أنا عـدْتُ، وعلينـا أن نعمل بثبات ومثابـرة من أجل عودة بقيّة اللاجئين، ومن حـقّ صاحب البيت أن يعود إلى بيتـه وسـيعود إليه عاجلاً أم آجِـلاً، ونحن عدنا مع باقـي الرّفاق إلى وطننا أحـرارًا في وطنٍ مغتصَبٍ لنتابع نضالنا مـن أجل حريّة الوطن وحقّ أهله في العيش الحرّ الكريم العزيز وعودة اللاجئين إلى وطنهم ومن أجل سلام عادل وثابـت وأذكر كيف وقف المحامـي حنّا نقّارة، أبو طونـي، في المحكمة أمام قاضي المحكمة يهوشوع مخاطبًا إيّاه بشجاعة منقطعة النّظير بعد أن عرف أنّـه من أصل بولونيّ كيـف تريد أن تحاكم أهل هذا الوطن الأصليّين وأصلك أنـت من خارجـه، بولونيا، إذ لا يحـقّ لأيٍّ كان مركزه حرماننـا من وطننا، وحـين أُحرِج القاضي من مهارة محامي الأرض والشّـعب أبو طوني، منحنا الجنسيّة وبقينا في وطننا الذي ليس لنا وطن سواه».

الرّفيق صالح عبد الرّحمان المصري، أبو السّـعيد، يافيّ المولد والمنشـأ، عضو في الحزب الشـيوعي منذ أن كان عمره عشرة أعوام وما بدّل تبديلا، عضو في اللجنة الشّـعبيّة للدّفاع عن السّكن في يافا وهدفها الأوّل منع تهجير وتشريد أهـل يافـا العرب مـن مدينتهم، عضو في الجبهة الشّـعبيّة من أجل السّـلام والمساواة في يافا، عضو في رابطة الشّؤون العربيّة في يافا.

وليكـن ختامنا بهذه المقالة مسـك بأمنية قلبيّة صادقـة، نتمنّى لرفيقنا أبي السّعيد العمر المديد والعطاء الدائم والمثمر والصّحّة والعافية والعقل السّليم والمثابـرة على الكفاح مـن أجل الحقوق القوميّة والمسـاواة ومـن أجل رفاه العمّال وقضاياهم العادلة ومن أجل نصرة العدالة الاجتماعيّة.

ولأبناء رفيقنا صالح، سـعيد وعبد الرّحمان ومنار وبسـمة وسـماح وسهاد وكفـاح وأمانـي أكتب لهـم نحن فخورون بطريـق والدكـم ونضاله وعمله المُتفاني في خدمة قضايا النّاس لأنّه مفخرتنا بعمله وسمعته الطّيّبة فافتخروا أنتم كذلـك بهذا الإرث والكنز الذي يبقيه لكم بعد عمر طويل، حيث لا يأخذ الإنسان معه بعد رحيله من هذا العالم غير سمعته الطّيّبة وذكراه العطرة.

ثمانـون عامًا ونيّف من عمرك يا رفيقي وأنت شـهم وشـجاع ثمانون عامًا ونيّـف من عمرك يا رفيقي وأنت دائـم العطاء وعطاؤك دائم فيا نبع العطاء أَدِمْ نعمتك على هذا الصّالح أبي السّـعيد ليبقى كما هو صامدًا خدومًا عزيزًا مكافِحًا إلى أن يجفّ نبعك.

فنّانٌ تشكيليٌّ من بلدي

"إنّ الإبداع عطاء الفرد، والتّطوّر عطاء الجماعة. إنّ الأفكار الكُبرى في التّاريخ عطاء أفراد، وتغيير المجتمع عطاء جماعة، قبل الثّورة الفرنسيّة كان فولتير شخصًا، وروسّو شخصًا، وغيرهم أشخاص أبدعوا أفكارًا. إنّه فكر أفراد. وتظلّ الأفكار كذلك إلى أن تتبنّاها الجماعة، تصبح ثورة: أي تطويرًا. عندما يظلّ فولتير فولتيرًا يكون فردًا مفكّرًا. عندما تصبح الجماعة فولتيريّة، يكون التّطوّر". هذا ما قاله الشّيخ عبد الله العلايلي (مفكّر لبناني وإسلامي كبير، عالم في الفقه واللغة،مناضل في سبيل التّحرّر والتّقدّم الاجتماعي) لجريدة "النّهار" اللبنانيّة بتاريخ 4/6/1992 واقتبسه الكاتب الشّيوعي محمّد دكروب في كتابه «وجوه .. لا تموت» (ص70).

وإذا أخذتني هذه المقولة لأكتب عن فنّان من بلدي فإنّني سأكتب عن ابن حارتي ابن وادي النّسناس، وعن جاري العزيز القريب، مع أنّه وُلِد في حيّ وادي الصّليب، حيث تُطلّ شرفة بيتنا على نوافذ بيته مباشرة، عدا عن الصّداقة الوطيدة والرّباط الأحمر غير المنفصل بين عائلته وعائلتي، إنّه الفنّان عبد الرحمن قاسم عابدي.

إنّ إبداع الفنّان عبد عابدي هو عطاءُ فردٍ ناشطٍ بين جماهير شعبه العربي الفلسطيني يحسّ ويجسّ نبضه، فريدٍ في أدائه ورسمه ونحته وتعليمه، عارفٍ كيف يُخلّد مأساة شعبه في الذّاكرة الفرديّة والجماعيّة وكيف يُجسّد الأمل بالنّصر من خلال رؤيا طريقه الثّوريّ لحتميّة التّاريخ والعدالة

الاجتماعيّة والتي أكسبته رؤية واضحة للأمور وتقييم لما حدث ولما سيحدث مستقبلاً. وبهذا جاء عطاء الفرد ليصوِّرَ لنا بريشته عطاء الجماعة، التّطوّر، وتضحياتها، يوم الأرض ويوم المسكن ومجزرة كفر قاسم، وبالتّالي فإنّ فنّ وإبداع الرفيق عبد لم يكن إنتاج فرد فحسب بل هو إنتاجٌ لأحاسيسه من وحي شعبه وحزبه.

إذا تابعنا مراحل حياة فنّاننا ورفيقنا عبد عابدي لوجدناها صورة مُصغّرة تجسّد حياة شعبنا بكل مراحل مآسيه، بدءًا بنكبة شعبنا، فقد كان عمره حينها ستة أعوام حيث كان نزح في عام النّكبة عن حيفا مع عائلته على ظهر سفينة إلى عكّا ومنها إلى ميناء بيروت (المخيّم الانتقالي الكرنتينا) ومخيّم «الميّة وميّة» في الجنوب اللبناني ومنها إلى مخيّم «اليرموك» في ضواحي دمشق، وظلّ والده هنا يُدبّر أوراق عودتهم ولمّ شملهم إلى وطنهم، مسقط رأسهم حيفا، حيث أنّهم عادوا في العام ألف تسعمائة وواحد وخمسين إلى حيفا، لكن الشّمل لم يُلمّ تمامًا حيث أنّ أختهم البكر لُطفيَّة، بقيت في مخيّم «اليرموك»، إلى يومنا هذا.

رسم الفنّان عبد عابدي من ذاكرته ومخيّلته ما رآه في ذلك العام المشؤوم، صورة لوجه والده قاسم عابدي (أبو الدّيب) حيث يُبيّن لنا عيني والده الحزينتين الدّامعتين اللتين رأتا المأساة والمؤامرة والنّزوح، وكذلك تجاعيد وشقوق وجهه التي تجسّد الأسى والألم والحزن والشّوق القاهر لعودة عائلته وباقي اللاجئين إلى وطنهم حيث رسم في خلفيّة وجه والده الجماهير الغفيرة، آلاف النّساء والأطفال وقد تجمّعوا بين أنقاض الهدم والرّدم لمباني المدينة ويتركون مسقط رأسهم حيفا زاحفون، زرافات زرافات، نحو الميناء، باتّجاه بوّابة الميناء الرّئيسيّة، ليجدوا الملاذ الوحيد والخلاص من الخوف والإرهاب الذي رسمه الاحتلال وخطّط له لكي تبقى البلاد دون شعبٍ، فلو كُنّا أقوى

من الخوف والتّخويف وأفطن في كشــف المؤامرات وأكثر لُحمةً لما ضاع وطن التين والزّيتون والبرتقال.

يرتبط اســم رفيقنا عبد عابدي بيوم الأرض الخالــد، برباط متين، حيث قام وزميله النحّات غرشــون كنيســبل بإقامة نصب تذكاري في مقبرة ســخنين إحياءً لشــهداء يوم الأرض الخالد الســتّة، الذين سقطوا عام ألف وتسعمائة وستة وســبعين دفاعًا عن الأرض وضدّ مصادرة الأراضي وتهويد الجليل، في نصب مكعّب الشّــكل. فقد كتبا أســماء الشّــهداء الســتّة في المربّع الأوّل خير ياســين، عرّابة البطّوف، خديجة شــواهنة، ســخنين، رجا أبو ريّا، ســخنين، خضر خلايلة، سخنين، محسن طه، كفر كنّا، رأفت زهيري، نور شمس، تحت شعار «استشــهدوا لنحيا..فهم أحياء شهداء يوم الدّفاع عن الأرض 30 آذار 1976». وفي الثّاني كُتب «المجد والخلود لشــهداء يوم الأرض 30.3.1976» وكُتــب كذلك بثلاث لغات العربيّة والعبريّــة والانجليزيّة «صمّمه عبد عابدي وغرشون كنيســبل تعميقًا للتّفاهم بين الشّعبين». وفي مربع آخر من المكعّب صُــوِّرت امرأتــان ثاكلتان تغطيــان وجهيهما بأيديهما وهمــا راكعتان، وفي المربّع الثّالث فلاحان يجمعان الحصاد وثالث يحمل سلّة الحصاد.

ومربّع رابع يصوّر جُثّتين، شهيدتين على الأرض ومن أجل الأرض، وقد لحق النّصب المكعّب التّذكاري، محراث منفصل!

ومــن بيتــه في حــيّ وادي النّســناس، بمدينــة حيفــا، صدر قــرار الإضراب الجماهيريّ العام الأوّل وذلك في السّــادس والعشرين من شهر آذار من العام ألفٍ وتســعِمائة وستّة وســبعين بعد أن عُقد اجتماع عاجل شارك فيه جميع قادة الحزب الشّــيوعيّ من أجل دعم الإضراب وإنجاحه رغم التّهديد والوعيد السّلطويّ.

ويقول عبد عابدي: «وقد يكون هذا النّصب الذي أقمناه في سخنين هو الشّهادة

والقَسَـم في الانتماء الأبدي لهذه الأرض التي اسـتصرخت أبناءها للدّفاع عن امّهـم الأرض». وفي إيمانه العميق بالنّضال المشـترك العربي اليهودي يقول الفنّان عبد عابدي: «وقد يكون عملنا المشترك، غرشون كنيسبل وأنا، تجسيمًا لفكرة التّعاون الخلاق بين أبناء الشّـعبين من أجل أن لا تتكرّر المأسـاة وأن يكون عمـل الحاضر..أنصابًا للسّـلام ولتواجدنا المشـترك على هذه الأرض» (يوم الأرض تاريخ ونضال ونصب تذكاري، مركز مساواة، ص95).

وتتتالى أعماله أيضًا في كلّ سـنة بملصقات لتخليد يوم الأرض تحت شـعار «هنـا باقون» سـنة 1980، 30 آذار يوم بطولة وكفـاح، الدّفاع عن الأرض لأجل البقاء والمسـتقبل، سـنة 1986، وكلاهما من إصـدار «اللجنة القُطريّة للدّفاع عن الأراضي العربيّة».

كذلـك سـاهم في إقامة عدّة نصـب تذكاريّـة في البلاد (شـفاعمرو، كفركنّا، كفرمندا وغيرها) وفي الخارج أيضًا (المتحف البريطاني، لندن).

واكـب الرّفيق عبـد عابدي صحيفة الاتحاد والجديـد كمصمم ومخرج فنّي منذ تخرّجه من جامعة درسـدن في جمهوريّة المانيا الديموقراطيّة، عام ألفٍ وتسـعمائةٍ وواحدٍ وسـبعين، بعـد أن حصل على منحة دراسـيّة من الحزب الشّيوعي عام ألفٍ وتسعمائة وأربع وستّين، وكذلك نرى بصماته على العديد من الكتب الأدبيّة والتّاريخية لعدد كبير من كتّاب بلادنا المشـهورين، والذي زاد النصّ جمالاً ورونقًا وتعبيرًا.

محطّة أخرى بودّي أن أتوقّف عندها هو مرسـم عبد عابدي أو مدرسـة عبد عابـدي للفنـون الجميلة في طلعة شـارع الجبل، والذي يقع ما بين كنيسـة الرّوم الأرثوذكس الجديدة وكنيسـة مـار لوقا القديمة، حيث كان هناك، قبل النّكبة، المستشـفى الانجليزي، والذي وُلِد فيـه عمّي بطرس، أبو ربيع، الذي يسكن اليوم في استراليا، وهو صديق رسّامنا ورفيقه.

هذا المرسم هو مدرسة الجيل الصّاعد والنّاشئ حيث يقوم الفنّان عبد بتعليم الرّسم والجمال والنّحت والحسّ الوطني والتّرتيب والانضباط والنظافة والفنّ. وكذلك وبطريقة فذّة يحاول إشراك أهل هذا الجيل وحثّهم على حبّ الفنّ بأشكاله المُتعدّدة، لتكوّن حلقة متينة للتّواصل مع الفنّ.

وكذلك يقوم من خلال نشاطه التّدريسي بتعريف الجيل النّاشئ على فنون الشّعوب الأخرى حيث نظّم لهم في السّنة المنصرمة دورة للرّسم في جمهورية ألمانيا.

«فالفن هو خندق الشعوب الأخير. خندق الدفاع عن مُثل الحريّة والسّلام والدّيمقراطيّة والتّعدديّة، فلندافع عن هذا الخندق. وما دمنا نصون الثّقافة ونحمي الإبداع، فهذا دليل حيّ على أننا شعب حيّ»(من كلمة الشّاعر الكبير سميح القاسم في افتتاح «المهرجان الدولي الثّاني للتّمثيل الصّامت» في مدينة شفاعمرو، قبل عدّة أعوام).

لقد رسم الفنّان عبد عابدي بالفحم فكان فحمه رصاصًا في عنق الحقيقة المُزيَّفة التي يحاولون سردها وتعليمها لجيلنا الصّاعد والمُزَيِّفة لتاريخنا النّاصع الشّريف والعزيز، فالحقيقة واحدة لا جدال فيها «يا أبيض، يا أسود». وكذلك نَحَتَ الصّخر بأزميله ومطرقته مُفَتِّشًا وباحِثًا عن الحقيقة التي يجدها دائمًا ويُظهِرُها واضحة ويُخرجها للنّاس لتحارب كَذِب الآخرين وتلفيقهم لمسيرتنا.

وأتمنّى للفنّان عبد عابدي ولأفراد عائلته الكريمة المزيد من الصّحّة والعافية والعطاء الدّائم المُثمِر لينهض بفنّه عاليًا ما استطاع، لتصل كلمتنا وصوتنا وهدفنا إلى العالم، بأنّنا شعب يُحبّ الحياة ويحبّ الآخر مهما كانت قوميَّته ويطلب العيش بسلام ووئام واحترام وأمان وطمأنينة. ولهذا يكتب لنا الفنّان عبد عابدي، من خلال إبداعه، رواية وجودنا على هذه الأرض التي ليس لنا

سواها ويُشدِّد على حقِّنا فيها ليزيد روايتنا قوّة وصلابة ومتانة وثباتًا، وأنّنا، شــعب، أصحاب حقٍّ ولنا في هذه وعليها حقّ الوجود. ورواية وجودنا وحقّنا في هذا الوطن تطالبنا بأن نكتبها أو نرسمها أو نصوّرها حفاظًا على تاريخنا من النّسيان والسّرقة والعبثيّة والتّسويف، وهذا ما يعمله عبد عابدي ليُظهر تلــك البديهيّــة، روايتنا، ويكشــف ذلك الحــقّ، حقّنا، الضّائع مــا بين وادي الصّليب ووادي النّسناس.

لأنّ الشّيوعيّة خميرة الأرض

نعــرفُ أنّ لفلســطين أربعَ طيِّبات ولكلّ قضاء طيِّبتُــهُ: طيِّبة رام الله، طيِّبة جنين، طيِّبة بيســان، وطيِّبة طولكرم التي تُطيِّب منطقة المثلّث بطيبة أهلها من بني صعب.

وطَيِّبــة بنــي صعب تعود بأصلها إلى صعب بن عليّ بن بكر بن وائل من بني عدنان (شــجرة رقم سبع وعشرين، كتاب أنســاب العرب وتاريخهم، تأليف ناجي حبيب مخّول ص 50).

والبلــدة الطَّيِّبة هي البلدة الآمنــة وكثيرة الخير، والكلمــة الطَّيِّبة هي الكلمة التــي لا يكُون فيها مكروه. وذو الطَّيِّبة هو الحلال. وعندما نفتِّش عن الشّيء نعــود إلى مصدره وحين نفتّش مــن مصدر كلمة الطَّيِّبة نعــود إلى المُنجد في اللغة والأعلام.

عندما ذهب وفد من القرية لتهنئة الملك عبد الله الأوّل (الجد) لاعتلائه الكرسيّ الملكــيّ قــال لهم: «كلّ الطَّيِّبــات لله إلا طيِّبة بني صعب» ورفض اســتقبال المُهنِّئــين من طّيِّبــة بني صعب، لقد كان حقــد الملك على هــذه الطَّيِّبة دفينًا في انتماء ابنها البار، الشّــخصيَّة الوطنيّة المعروفة عارف عبد الرّازق لحركة مفتي الدّيار المقدّسة الحاج أمين الحُسيني.

وطيِّبتُنا التي نتحدَّث عنها هي الطَّيِّبة، قضاء طولكرم، وتقع على بُعد خمس كيلومترات جنــوب مدينة طولكرم، حيثُ ضُمَّت بحســب اتّفاقية رودس، في الثّالث من نيســان عام ألفٍ وتسعِمائة وتســعةٍ وأربعين، الموقّعة بين الأردن

وإسرائيل، والتي نصّت على ضمّ منطقة المثلّث إلى حدود دولة إسرائيل مقابل التّوقيع على هدنة دائمة بينهما.

فقــد قامت مظاهــرات الأُلوف في طولكرم ضدّ توقيــع الاتفاقيّة ومُحذّرة من مغبّة الإقدام على التّوقيع، في أواخر عام النّكبة، حيث شعر الشّعب بالمؤامرة، وقد كتب الرّفيق عبد الحميد أبو عيطة في جذور من الشّجرة دائمة الخضرة، د. أحمد ســعد ص 84، حيث كان يعمل، هناك، موظَّفًا في بنك الأمّة العربيّة: «أذكــر أنّ الجيــش العراقي هاجم المظاهرة بالعصيِّ والغــاز، وأنا أحد الذين ضُربوا في هذه المظاهرة».

اخــترت في هذه الحلقــة أن أحدِّثكم عن رفيقٍ من رفــاق الطَّيِّبة، له حضوره الخاصّ ونكهته الفريــدة وطَبْعُه الطَّيِّب وتواضعه الخجول حيث كان يلفت انتباهي في كلّ مناسبة حزبيّة، وعندما سألت عن اسمه قالوا لي إنّه محمّد أبو إصبع، وهذا اسمٌ ردّده والدي، أبو خالد، كثيرًا عندما كان وما زال يفتح ملفّ ذكرياته عن الأيّام الخوالي التي تزيده انشراحًا وفخرًا بهذا الانتماء.

وُلِد الرّفيق محمّد مصطفى علي أبو إصبع (أبو سلام) في الخامس والعشرين من شهر آب عام ألفٍ وتســعِمائة واثنين وثلاثين في قرية الطّيبة. «والتحقتُ بالمدرســة الأميريّة حيث كان مديرها الأســتاذ يوســف الحافظ، ابن الطَّيِّبة. وأذكــر أنّي نِلْتُ منحةً دراســيَّةً مع خمســة من أترابي بعد إنهائي المدرســة في البلــدة لتكملة دراســتنا في مدينة طولكرم، لكــنّ الوضع الأمني حال دون إتمامنا دراستنا».

لقــد اعتاش مع والديــه وإخوته الثّمانية على الزّراعــة، حيث كانوا يعتمدون عــلى مياه الآبار للرَّي، وصنــع الحُصُر من القشّ والأعشــاب الجافّة إذ كانوا يبيعونها في قريتهــم والقُرى المجاورة متنقِّلين بين قرية وأخرى على الجِمال وقد كانت هذه الحُصُر سلعةً مطلوبة جدًّا خاصّة في موسم قطف الزّيتون.

تعــرّف الرّفيق محمّد أبو إصبع على ثُــوَّار منطقته منذ نعومة أظفاره، حيث يروي كيف شــاهدهم ينصبون الكمين، بين أشــجار التّين والزّيتون، للجنود البريطانيّين ويكبّدونهم الخسائر المؤلِمة والكبيرة دون أن يستطيع المحتلّون معرفة اتِّجاه المصدر حيث فرّوا هاربين إلى أوكارهم بعد أن لملموا خسائرهم بينما وجد الثّوّار مخابئهــم في أفئدة وطنهم، في الآبار الجافّة والأحراش، بين الكهوف والأشجار وفي بيوت أهل البلدة في المنطقة، خربة فرديسيا، وحين عاد الجنود للتّفتيش عن الثّوّار حضروا إلى بيت المختار، الشّــيخ خليل دســوقي، حيث رفض التّعامل معهم، وهدّدوه بتدمير القرية إذا لم يتعاون ويســتجِب لطلبهــم، «ورأينا من على ســطوح المنــازل همجيّة وحقــد المُحتل الانجليزي وشــعوره بهزيمته. لقــد فقدوا أعصابهــم وقاموا بإطلاق النّــار على عجوز يمتطــي حمارًا يجــرُّه ابنه، لم يمُت لكنّه عاش بقيّة حياته معاقًا مشــلولاً في نصفه الأيمن.

كان عُمرُ أبي سلام، سبعة عشر عامًا حين تعرّف على الشّيوعيّين حيث اشترك لأوّل مرّة في اجتماع للحيّ الذي يســكنه، والذي عُقِــد في بيت الرّفيق محمود الفحــل، وذلك في أوائل خمســينيّات القــرن الماضي، بعد أن دعــاه للاجتماع عضــو الحزب الرّفيق صالــح القفيني. لقد كانت نواة الحركة الشّــيوعيّة في البلــدة تتألّف من الرّفيقين عثمــان أبو راس وعبد الحميــد أبو عيطة، حيث عملت في ظروف سريَّة قاسية من ملاحقات بوليسيّة ومخابراتيّة للرّفاق فقد قامــوا بمنع توزيع صحيفة الاتحاد، صحيفة الحزب، ومنعوا عقد اجتماعات حزبيّة، لذلك كانت تُعقد في أقبية تربية المواشي والدّواجن وفي المطابخ وتحت أشــجار الزيتون، في الوعر، بعيدًا عن عيــون العملاء وليلاً تحت جنح الظّلام ليشــحنوا النّور ليومهم الآتي، لقد نشطوا وعملوا بشجاعة وإباء ودون وجل تحت التّهديد بالسّجن والنّفي والفصل من العمل والحرمان وحتى الطّرد إلى

ما وراء الحدود، لقد شـمل هذا التّهديد عائـلات الرّفاق أيضًا، أي أنّ كلّ من يمشي في هذا الطّريق يضعونه وعائلته وأقرباءه تحت المجهر الرّهيب..
كذلـك كانت تراقبهـم عيون السّـلطة من أهـل البلدة، وقـد كتبت صحيفة الاتحـاد، آنذاك، عنهم وبعنوان كبـير «أعوان الملك عبد الله بالأمس هم أعوان بن غوريون اليوم» (جذور من الشّـجرة دائمة الخضرة، د. أحمد سـعد ص 86).

لقد فضح رفيقنا أبو سلام من على صحيفة الاتحاد قضيّة التّجارة بالتّصاريح حيث كان صداها كبيرًا وبعثوا للرّفيق إخطار حضورٍ للتّحقيق، سائلينه عن صحّة خبره وأن يعطيهم أسـماء التّجار الذين يبيعونَ التّأشيرات، الأمر الذي رفضه أبو سـلام «أنا بشتغليش عندكو» محاولين شراءه تارة توَدُّدًا وأخرى توعُّدًا لكنّه بقي كالطّود صامدًا ثابتًا لا يهون، مراسِلاً لصحيفة الاتحاد ناقِلاً هموم الشّعب وموزّعًا لها في بلدته وفي القرى البيضاء (بير السِّكّة وجتّ ويمّة وإبثان والمرجة) مع باقي رفاق المنطقة، حيث نجحوا في بناء خلايا وفروع في هذه القرى لتصبح قرىً حمراءَ، فيها حزب شيوعي وشبيبة شيوعيّة.
نُفِيَ الرّفيق أبو سـلام، أوّل مرّة، في منتصف الخمسينيّات من القرن الماضي، مـع ثُلّة من الرّفاق الأبطال الميامين: شـاكر عازم، عبـد الرّحيم عازم، محمّد حسنين

وعثمـان أبـو راس، بعـد أن تصـدّوا لجو الإرهـاب الذي فرضته سـلطات الاحتلال، في منطقة المثلّـث، تمهيدًا للعدوان الثّلاثيّ على مصر. يقول الرّفيق أبـو سـلام:»نفونا وقسّـمونا إلى فرقتين الفرقة الأولى نفيـت إلى قرية كسرى والثّانية إلى قرية يانوح، وطلبوا من أهل البلدتين عدم احترامنا لأنّنا نعارض سياسـة الحكومة، حيـث كان علينا إثبات وجودنا في مركز شُرطة ترشـيحا مرّتين، صباحًا ومسـاء، وكنّا نسـلك الطّرق الوعريّة للمركز حيث نعرّج على

بيت الرّفيق ميخائيل بشــارة وهناك كان وزوجته يقدّمان لنا الأكل والمشرب. ولم يتركنا الشّــباب في هاتين القريتين للحظة حيث كانوا متعطّشــين لسماع محاضراتنا وأناشــيدنا كما ودعوناهم لجمع التّواقيــع ضدّ الأرنونا (ضريبةَ بلديّــة) المُجحفة وضــدّ التّجنيد الإجباري لأبنــاء الطّائفة العربيّــة الدّرزيّة، الموحّديــن، وهربوا مُختفين بعيدًا في أحراش الجليل كي لا يذهبوا إلى الخدمة الإجباريــة، لكنّ الشّرطة لاحقتهم وأمســكت بهم وأودعتهم في مركز الشّرطة ومــن بعدها إلى ثكنات الجيش، ومن أجل الحقّ والإنصاف أنّ أهلنا في هاتين القريتين قد أحسنوا وفادتنا وشعرنا بينهم أنّنا من أهل بيتهم».

أمّا عمليّة النّفي الثّانية لأبي سلام فقد كانت إلى قرية بيت جن، وذلك في شهر نيسان من العام ألفٍ وتسعِمائةٍ وسبعةٍ وخمسين بعد أن عقد الفرع اجتماعًا للدّفاع عن حقوق الفلاحين في منطقة المثلّث، الأمر الذي استفزّ مشاعر الحاكم العسكري وقام بنفي الرّفاق «لأنّنا كنّا نُدافع فيه عن حقوق الفلاحين، وأذكر أنّه كان من بين الرّفاق المنفيّين: شــاكر عازم ولطفي فارس وعبد الكريم أبو راس وعبد الرّحيم عازم وابراهيم بيادســة ومصطفى اشريِّم عازم ومحمود الحصري (أبو العفو)».

ويتابــع أبو ســلام قولــه: «ووقف مختار الحــارة الشّرقيّة في بيــت جن، أبو محمود الكنج قبلان، مرحّبًا بنا وساردًا لنا تحريض الشّرطة علينا وأعلن أنّ بيوتهم مفتوحة لنا وسيضعوننا في عيونهم».

وهنــا أيضًا وزّعوا الرّفاقَ إلى فرقتين وإلى بيتــين بحيث يمنع عنهم منعًا باتًّا النّــوم داخل البيوت وعندما ســمع المُختار أبو محمــود الكنج طلب الشّرطة، رفضه وطالبها بالسّــماح له بإيواء جميعهم، لكنّهم في النّهاية ســمحوا فقط لأربعــة مــن المنفيّين البقاء في بيــت المختار أبي محمــود والباقي عند مختار الحارة الغربيّة أبو رفيق نجيب علي أســعد، ويتابع حديثه: «لقد أثبتَ سُكّان

بيــت جن أنّهم عربٌ أقحاحٌ كباقي أبناء شــعبهم، كريمو النّفوس وأنهم أهلٌ للضّيافةِ حيث كانوا يتناوبون لتقديم الغداء والعشــاء وكلّ ما نحتاجه خلال النّهــار، زد على ذلك زيارات الرّفاق من الجليل ومن النّاصرة حيث كان يأتي رفيقنــا محمّد نفّاع (أبو هشــام) لزيارتنا مع كلّ وفــد. لقد كان علينا إثبات وجودنــا في مركــز الشّرطة، في ترشــيحا، حيث كنّا نســير مشــيًا على الأقدام ونذهب إلى قرية البقيعة حيث كان صديقنا الصّدوق شــفيق متري يستقبلنا ويُكرِمنا وينقلنا بسيّارته، يوميًّا، إلى شرطة ترشيحا».

عندما دعا السيّد أبو حسين شقيق مختار الحارة الشرقيّة، أبو محمود الكنج، المنفيّين إلى وليمة عشــاءٍ، ليُحسن وفادتهم، فذبح ذبيحةً كرامةً للرّفاق «وإذ بالضّابــط الألماني الأصل، الملعــون ماير يدخل الدّار لــيرى الطّاولة مفتوحة وعامــرة بالصّحون الكبيرة المليئة باللحم والشّــحم والأرزّ، مخــيِّرًا إيّانا، إمّا الذّهاب معه إلى مركز الشّرطة في ترشــيحا حالاً أو نذهب إلى هناك مشيًا على الأقدام وفضّلنا الخيار الأوّل، يعني طِلعنا في هذيك الليلة بدون عشاء فاخر!» وقــد قام المختار لاحقًا باســتنكار هذا العمل الدّنــيء وبتقديم دعوى، طالبًا فيهــا من شرطة طبريّا أن تخفِّــف من إجراءاتها وأن تكتفــي بإثبات وجود يوميّ مرّة واحدةً، وكان له ما طلب..

ويتابــع الرّفيق محمد أبو إصبع: «وعندما كُنَّا في مركز الشّرطة كان يُناديني الضّابط هناك الشّــيوعي الصّغير. لقد كنــتُ أصغر المعتقلين، لكنّ فعلي كان كبــيرًا وليس صدفــةً أنّني كنتُ منفيًّــا، وهذا وســام شرفٍ لي، وكنتُ حينها سكرتيرًا للشّبيبة الشّيوعيّة في بلدتي».

إنتقــل أبــو ســلام إلى العمــل في حيفا، حيــث بدأ عملــه في ســوق الخضار، «الحِسْبَة»،

في حيّ وادي النّســناس وهناك «تعرفتُ على الرّفيق إبراهيم تركي ســكرتير

خلية الشّبيبة وطلبتُ منه الانضمام لشبيبة حيفا لأتعلّم وأستفيد منهم وأنقل تجربتهم إلى الطَّيِّبة» حيث بدأ نشـاطه في حيفا وقام بعمله على أجمل وجه، مخلصًا لشعبه وقضاياه العمّاليّة والقوميّة، وكذلك شارك لاعِبًا مدافِعًا فريق كرة القدم لفرقة الشّبيبة في مبارياته. بعد أن أنهى عمله في سوق الخضار بدأ يعمـل في شركة قوت الكادحين حيث تعرّف على الرّفاق عصام العبّاسي وعلي عاشـور وعبّاس زين الدّين، وأخذ من غرفة العاملين في المطعم غرفةَ نوم له حيث وضع كلّ حاجيّاته فيها، بعد أن كان ينام في السّـوق. ويذكر أنّه حضرَ شُرطيّان، «كبسـيّة»، إلى قوت الكادحين يسألان عن تصاريح العمل والإقامة في حيفا وحين رآهما أبو سلام فرّ هاربًا إلى الحمّام وحينها أقام الرّفاق حول الشّرطيّين طوقًـا مُحكمَ الإغلاق أعمى بصرهما «ممّا سـاعدني على الخروج السّريع من المطعم الأمر الذي لم ينتبها إليه البتّة ونفذْتُ بريشي».

بدأ يوزّع مع الرّفيق داود تركي ما تحتاجه شركة قوت الكادحين من بضائع على عربة يقودانهـا بأيديهما ويُفرملانها بأرجلهما. «لقد اسـتفدْتُ كثيرًا في حيفا حيث تعلّمتُ إدارة النّشاطات وقيادة الأعمال وكذلك نقلتُ تجربة قوت الكادحين إلى بلدتي».

قبـل أن تطـأ قدما أبي سـلام أرض بلدته على الشّـارع العـام وإذ بطلقات رصـاصٍ تُصوَّب نحوه من سـيّارة حرس الحدود طالبـين منه الحضور إلى سـيّارتهم وقامـوا باسـتجوابه من «طقطق إلى السّـلام عليكـم». لقد قاموا بتفتيشـه حيث وجدوا معه الكثيرَ من «الممنوعات الخطيرة»: كُتُب دراسـات في الفلسفة الماركسيّة وأخرى عن الشّيوعيّة، «وعندما سألوني عن سبب عدم حيازتـي على تصريح، شرحتُ لهم أنّ طلبي قـد رُفض ولأنّني ألمُعيل الوحيد لعائلتـي، جازفْتُ مُضطـرًا تجاوز إصدار التّصريح، حيـث أنّي بِكْرُ إخوتي لأبويـن عجوزين وعاجزين ووصلتُ إلى هنا مشـيًا على الأقـدام من بيت لِيد

حتّــى لا تتعرَّضني الشّرطة وبعد هذا السّــجال قام الضّابط المســؤول وكان من أبنــاء الطّائفة المعروفيّة الكريمة وقرّر إطــلاق سراحي لعدم وجود أدلّة ضدّي ومن تجربتي مع إخوتي من بني معروف الأشاوس، إن كان المنفى أو السّجن أو هذه الحادثة فإنّي أكنُّ لهم الاحترام والمحبّة والإخلاص، وبعد فينا خير لأبناء شعبنا الواحد».

لقد كان معروفًا أنّ إصدار تصريح للتّنقّل لأيّ شيوعيّ، معروف الانتماء، من ســابع المستحيلات. وعندما سافر أبو سلام وثلاثة من رفاقه بالباص، للعمل في تــل أبيب توقّفــت الحافلة وصعد الشّرطي كنتر، الذي كان يعمل في شرطة الطَّيِّبة، والظّاهر أنّه أوقف الباص بعد أن «إِجَتُو فَسْــدِي» وتوجّه إلى الرّفاق طالبًــا منهــم تصاريحهم حيث اختارهــم «من بين خلق اللــه» وكانوا بدون تصاريــح فنقلهم إلى محكمة الصّلح في نتانيا، بعد أن أخذ بطاقات هُويَّاتهم، «أنــا قرّرت الهربَ، رغم أنّــه جرّدني من هويَّتي فقد كان معي بطاقة مؤتمر العمّــال العرب وعليها صورتي وتفاصيلي، إلى الرّملة حيث اســتقبلني هناك رفيقنــا عبد الله زقّوت ودبّر أموري هناك واشــتغلتُ ثلاثة أشــهرٍ في مزرعة للخيار والعنب».

لقد كان وما زال يُحبّ الأناشيد الثّوريّة ويهتمّ بتحفيظها للرّفاق حيث كنتُ أراه في كلّ نشــاطاتنا ومؤتمراتنا وحفلاتنا التي شــاركتُ بها، ينشد بحماس الفِتــوّة وحرارة الشّــباب التي لا تُطفأ وأراه أيضًــا في كلّ مظاهرة للحزب أو الجبهة، التي شاركتُ بها، أينما ومتى كانت، يسير في المظاهرة مرفوع الهامة ويلوّح بعكّازه، مردّدًا الشّــعارات من قحف رأســه و»قراقيح» قلبه، بصوت عالٍ ثابت وشجاعٍ، وإن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على اقتناعه بالطّريق وإيمانه العميق بالعدالة الاجتماعيّة والمساواة والسّلام العادل والثابت.

كانت تُنشَد الأناشيد الثّوريّة قبل عقد أيّ اجتماع للخليّة أو الكادر في القرية،

الطَّيِّبــة، كمــا كان حال باقي الفــروع والمناطق وهذا مــا كان يدبّ الحماس في قلــوب الرّفــاق والشّــباب، ويبعثُ فيهم الأمــل بالانتصار ويعــزّز عندهم الشّــعور بالانتماء القومي العربي، حيث كان الشّــباب يحضرون إلى النّادي وقت الاجتماع لســماع الأناشــيد الثّوريّــة وهذا ما كان يدفعهــم إلى الدّخول وحضور النّدوة أو الاجتماع والاســتماع إلى البيان الســياسي التّثقيفي، وهذه الأناشــيد «كانــت تُفيدنا في المعتقــلات والمنافي والمظاهرات حيث كنّا نشــحذ منها الطّاقة والهمم للعمل والصّمود والشّــجاعة والعزيمة على النّصر ونُبيِّن للغاصب شــهامة الموقف وعزّة نفس الرّفاق، خاصّةً عندما كنَّا ننشدها بأعلى حناجرنا:

السِّجْنُ لَيْسَ لَنَا نَحْنُ الأُبَاة
السِّجْنُ لِلْمُجْرِمِينَ الطُّغَاة
حَيْثُ تُنْصَبُ المَشَانِقُ لِمَن؟
لِلْمُجْرِمِينَ الطُّغَاة

أو نشيد:

ظُلاّم يَا ظُلاّم نِظَامُكُم مَا يَدُوم
هَذِي شُعُوبُ الأَرْض هَبَّت عَلَى الظَّلُّوم
كَالعَاصِفِ الصَّخَّاب تَجْتَاحُكُم كَالنَّار
تَقْضي عَلَى الظُّلْمِ وَالاسْتِعْمَارِ

أو نَشيد

يا شُعُوبَ الشَّرْقِ هَذَا وَقْتُ رَدِّ الغَاصِبين
فَارْكَبُوا الهَوْلَ الشِّدَادَ وَاصْطَلُوهَا بَاسِلِين

لــو تنطــق الأرض لتحكي عــن تضحيات الشّــيوعيّين الجســام لنطقت دمًا ودمعًا.

لو يسرد لنا البدر في السّماء ما رآه في الليالي لسرد قصصًا عن بطولات رفاقنا الذين عملوا دون كلل.

لو تروي لنا حيطان السّجون والمعتقلات عن صمود رفاقنا لتفجّرت غضبًا.

لقد ذاق رفاقنا القُدامى، حُماة ديارِنا وشعبنا مرارة العيش إذ لم يعرفوا السّكينة ولا الهدوء ولا هدأة البال، لقد حملوا دماءهم على أكفِّهم ورهنوا روحهم المقاوِمة من أجل رفاه شعبهم، ووضعوا صلبان العذاب على أكتافهم، حاضرين لكلّ شيء مفاجئ خَطِر، لنصرة قضايا الفلاحين والعمّال. لقد تحدّوا بما يملكون، بأجسادهم وأرواحهم، سياسة القمع والتّجويع والنّفي والسّجن والفصل من العمل والتّهديد بالطّرد من أجل سعادة شعبهم بفلاحيه وعمّاله. إنّ من له كلّ هذا الإرث العظيم عليه ألا يسمح لأحد أن تُسوّل له نفسه ويتطاول على منجزات ومقدّرات وأعمال رفاقنا، إنّها أعمال رُسُل الشّعب الكادح، إنّها مُقدّسات شعب يُحبُّ الحياة بسلام.

فالشّيوعي هو ملح الأرض وخميرتها. ورفيقنا محمّد مصطفى علي أبو إصبع، دامت لنا صحّته وعافيّته وعطاؤه وتفانيه، هو هو ملح الأرض وخميرتها.

لقد قال الشّيخ العلامة عبد الحميد ابن باديس في أدعيته، مؤسِّس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين والذي يُعتبر موضوعيًّا وتاريخيًّا من أكثر زعماء القوميّة العربيّة في الجزائر بعد الأمير عبد القادر، حيث كان عدوًّا للاستعمار ومنفتِحًا على العصر، في يوميَّات أحمد بن بِلا ص 102: «اللهمَّ اجعلنا في الدّنيا من أهل اليسار وفي الآخرة من أهل اليمين» لأنّ «الشّيوعيّة خميرة الأرض».

ولنُردِّد معًا:

شَتِّتُونَا فِي المَنَافِي وَامْلأُوا مِنَّا السُّجُون
سَوْفَ تَأْتِيكُم لَيَالٍ بَرْقُهَا حَتْفُ المَنُون

الكَوْنُ مُقَسَّمٌ إِلَى طَبَقَات

«أَيْنَمَـا وُجِـدَ الظُّلْمُ فَذَاكَ وَطَنِـي» هذه مقولة لمناضل الحرِّيَّة أرنسـتو تشي جيفارا، حيث تُزيِّن صورته سـيّارة ذلك الرّفيق الذي سأُحدِّثكم عنه، والذي يعتبر أنّ الكون مقسَّـمٌ إلى طبقات وأنَّ كلّ مشـاكل عالمنـا وصراعاته مبنيّة عـلى أسـاس طبقيّ محـض، وإن أخذتْ بعـض الأحيان صبغـةً طائفيَّة أو قوميَّة، والوعي الطَّبقي بكلّ أشكاله النّضاليّة والكفاحيّة هو الكفيل بتحرير الشّـعوب من نير الاحتلال ومن الاسـتغلال الطَّبقي، وهذا لا يمنع الفرد من الاعتـزاز بانتمائه القوميّ، فإن لـم تكن أمميًّا لن تكون أبـدًا قوميًّا صادقًا، وفي هذا السّـياق يحقّ للشّـيوعي في وطننا، إن كان عربيًّـا، الاعتزاز بانتمائه العربـيّ كمـا يحقّ له أن يؤمـن بالوحدة العربيّة القائمة على أسـس العدالة الاجتماعيّة، فقد قال رفيقنا أبو سـامي «ستبقى الشّام منبتًا ومقرًّا للوطنيّة العربيّـة ومنـارة للثّوّار والأحرار في وطننا العربـيّ الكبير على مرّ العصور». وحين سأله المحقَّق حين اعتُقل في أوائل سنوات السّبعين من القرن المنصرم، بتهمـة ملفّقـة على أنّها «أمنيّـة» مع المناضل داود تركـي ورفاقه، أنّه رآه في دمشق أجابه رفيقنا أبو سامي:»كنتُ في الشّام عندما كنتَ في رحم (استعمل كلمة أخرى) أمّك، فبلاد الشّام كانت وما زالت وطني وعين إبل مسقط رأسي، وأنا أنتمي حضاريًّا وتاريخيًّا وجغرافيًّا وقلبًا وقالِبًا إلى بلاد الشّام».

ويقول الشّاعر سعيد عقل بصوت فيروز:

شَامُ يَا ذَا السَّيْفُ لَمْ يَغِب

يَا كَلامَ المَجْدِ فِي الكُتُبِ
قَبْلَكِ التَّارِيخُ فِي ظُلُمِ
بَعْدَكِ اسْتَوْلَى عَلَى الشُّهُبِ

وُلِـدَ الرّفيـق موسى الياس موسى ناصيف، أبو ســامي، في الثّالث من شــهر كانون الثّاني من العام ألفٍ وتســعمائةٍ وخمســةٍ وعشرين في قرية عين إبل، قضاء بنت جبيل، في الجنوب اللبناني الصَّامد والمُحَرَّر، حيث تبعد عن بيروت مائة وأربعين كم وحوالي خمســة كم عن حدود بلادنا الشّماليّة، ويحدّها من الشّمال جبل البرَوك والحَرَمُون (الشَّيخ)، أمّا جبل البَروك فهي سلسلة جبليّة تمتدُّ من جبال نيحا في منطقة الشّوف إلى ضهر البيدر.

ســكن والده مدينة حيفا منــذ ولادة رفيقنا موسى، حيث كان يعمل حارسًــا في أحد مكاتب بلديّة حيفا وكان يراه مرّتين في السّــنة حين كان يأتي للقرية لزيارة أبناء عائلته بمناســبة الأعياد، وقد اســتقرّت العائلة، لاحقًا، في مدينة حيفا عام ألفٍ وتســعمائةٍ وثمانية وثلاثين، وبدأ دراســته في مدرسة الفرير حيــث كان في الصّفّ الثّامــن ابتدائي لِلُّغتين العربيّة والفرنســيّة وفي الصّفّ الثّالــث للغة الانجليزيّــة، لقد كان والده صديقًا حميمًا لجدّي ســمعان، أبي داود تُركــي، فقد كانا يعملان ســويَّة في بلديّة حيفــا كلّ في وظيفته وربطته أواصر صداقــة صادقة وصدوقة مع عائلتنا في حيفا. وحين كان يذهب والده لزيــارة عائلته في عين إبل كان يحدّثهم الكثير عن حيفا وعن علاقته بعائلتنا وخصوصًا عن عمّي داود، أبي عائدة، ذلك «الشّاب النّشيط والأديب والوسيم والذّكي والزّكِرت والقبضاي» كما كان يصفه أبو موسى.

يقــول أبو ســامي:»كنتُ منذ طفولتي، في عين إبل، متمــرِّدًا على كلّ شيء من حولي وبالأساس على المُختار ورجال الدّرك الفرنساوي واللبناني لاحقًا، وعلى جميع الميسورين ورجال الدّين الذين كانوا يُعاملون أبناء الأغنياء بدلالٍ وغنجٍ

وتمييزٍ خاصٍّ وكأنّنا غير موجودين، نحن أبناء الطّبقة المسحوقة والعاملة، كنتُ أذهب إلى المدرسة حافيَ القدمين حتّى أيّام البرد القارص والماطر والمُثلِج، وفي العام خمسة وثلاثين من القرن المنصرم، عندما اندلعت الحرب بين الطّليان وبلاد الحبشة كان أبناء العائلات الميسورة يتوعَّدوننا ويهدِّدوننا بأنَّ مصيرنا سيكون نفس مصير سكّان الحبشة السُّود إذا تمادينا وتجرّأنا مرّةً في حياتنا عليهم، فقد كانوا يقولون لنا أنتم أحباش ونحن طليان نريد أن نُخلِّص عليكم، لكنّي جنّدتُ الكثيرَ من شباب البلد للتّصدّي لهذا التّهديد وفُزنا..».

تعرّف رفيقنا موسى ناصيف على الشّيوعيّة من خلال صداقته مع الرّفاق علي خمرة وداود تركي، حيث عمل الأوّل في شركة شل البريطانيّة وقام بإرشاده وتوجيهه إلى حضور ومتابعة اجتماعات عصبة التّحرّر الوطني في حيفا أمّا لقاؤه مع أبي عائدة فكان في قرية رميش حين كان الأخير عائدًا من بيروت بعد أن حصل على تعويضاته من مكتب الجمارك حيث كان يعمل في ميناء حيفا ضابطًا في قسم الجمارك، وحين قام رفيقنا موسى بتعريف نفسه للرّفيق أبي عائدة قاصًّا عليه كلّ ما كان يحدّثه والده أبو موسى عن عائلة داود حين كان يعود إلى عين إبل، واستمرّت العلاقة بينهما بحميميَّةٍ نادرة إلى أن انتقل أبو عائدة إلى جوار أبديّ لسيّد الأبطال صلاح الدّين الأيّوبي.

ويذكر أنّ والده كان قارئًا دائمًا لصحيفة الدّفاع المُنحازة لمحور الفاشيّة، حيث والده، أيضًا، منحازًا لهذا المحور على اعتبار أنّه سيُخلّص الوطن العربي من براثن طغيان الاستعمار البريطاني، فطلب منه الرّفيق بولس فرح صاحب مكتبة لبيع الكتب التّقدّميّة والثّوريّة في ساحة الخمرة أن يقرأ صحيفة الاتّحاد، حديثة الصّدور، في العام أربعة وأربعين من القرن السّابق، وبعد أن رفض شراء الجريدة قام رفيقنا بولس فرح وأمسك أبا

ســامي من إذنه وفركهــا جيِّدًا وبتحبُّبٍ طالبًا منــه أن يقرأها ويقول رفيقنا موسى:»كنــت أتردَّد دائمًا على مكتبته لــشراء بعض الكتب وجريدة «الدفاع» ذات الميــول «القوميّة» أو بالأحرى القومجيّة، ولم يكن لي معرفة أو علم بأنه يوجد جريدة اســمها «الاتحاد» وعندما عرضها عليّ رفضتُ شراءها أو حتّى قراءتهــا، لأنّهم علّمونا في مدرســة الفريــر في حيفا أنّ الشّــيوعيّين كفّار ولا يفرّقون بين أمّهاتهم وأخواتهــم وزوجاتهم، هكذا بدون أخلاق، لذلك عندما أصرّ وألــحّ عليَّ أن آخذها واقرأها بدون مقابل رفضتُ، فأمســكني من أذني مثل أســتاذ مدرسة يريد تعليم تلاميذه وفرك أذني وصفعني صفعة خفيفة على خــدّي وأجبرني على أخذها وقراءتها، وبعدمــا قرأتها تغيّر تفكيري كليًّا وكأنّي وجدت شيئًا كنت افتقده، شعرْتُ أنّني أولد من جديد. حينها أصبحت الاتحاد بالنسبة لي، رفيقة درب وصديقة وموجّهة ومُثقفة وبوصلة توجهني التوجيــه الصحيــح، وبعد قراءتــي الاتحاد تعرفت على أفــكار جديدة وعالم جديــد، حيث تغيّر تفكيري كلِّيًّا وتحوّل من أقصى اليمين إلى اليســار تعرفت من خلالها على الاتحاد السوفييتي وشعبه الذي قاتل النازية وخلّص البشرية من شرّها ومن أفكارها وأخطارها».

لقد كانــت الاتّحاد الجريدة الوحيدة التي تدعو إلى التّفاهم بين شــعبي هذه البلاد وعدم الانجرار وراء أصحاب الأفكار المتطرفة حيث دعت إلى قيام دولة علمانية ديمقراطيّة واحدة للشّعبين ورفضت التّعصب القوميّ والطّائفي من الطّرفين وذلك حفاظًا على وحدة البلاد وســلامة ســكانها. لقد علّمت الاتِّحاد قرّاءها احترام ومحبّة الشعوب الأخرى، علّمتهم الأمميّة.

يقــول رفيقنا موسى:»كانت صحيفة الاتّحاد الوحيدة بعد النّكبة التي أعادت الأمل إلى شعب محطَّم ومنكوب بعد أن تركه «زعماؤه» فريسةً سهلةً للحاكم العســكري والمخاتــير وقســم من رجــال الدّين الذيــن تعاونوا مع السّــلطة

وأصدروا الفتاوى ضدّ كلّ ظاهرة مقاومة وبالأساس ضدّ الشّيوعيّين».
كان رفيقنا موسى يسكن وعائلته في منطقة وادي روشميا بحيفا حتى عام النّكبة، وتركوا البلاد إلى لبنان بعد أن طردتهم عصابات الهجناة من مسكنهم وأجبرتهم على ترك البلاد. وهناك في بلدته، عين إبل، رأى النّازحين الفلسطينيّين كيف يتركون بلادهم، فقام بإقناعهم بالعودة فورًا إلى البلاد لأنّهم إذا استمرّوا شمالاً لن يعودوا إلى فلسطين قطّ، وحين كان يُكلّم النازحين باللهجة نفسها وبالرّوح إيَّاها التي قرأها في صحيفة الاتّحاد في حيفا، وإذ بشخصٍ يمسكه بعنفٍ من ثيابه ويخرجه من حلقة النِّقاش وينبّهه بأن يتوقّف عن هذا الحديث وإلا سيجد نفس العقاب الذي تلقّاه هذا الشخص نفسه جرّاء طلبه بعودة النّازحين، كاشفًا له عن جسده ليُريه آثار التّعذيب الذي تلقّاه في بنت جبيل. وحين عاد أبو سامي «متسلِّلاً» إلى البلاد مع الرّفيق أبي عائدة، سكن قرية المغار مدّة سنة تقريبًا، وبقيت عائلته في لبنان، وبقي في فلسطين مع أخته نجمة، لأنّه أحبّ فلسطين وقرّر أن يبقى فيها للدّفاع عنها والعمل على عودة اللاجئين، لأنّه منذ طفولته متمرِّد على الظُّلم. لقد كان الرّفيقان داود تركي وموسى ناصيف أوّل شيوعيّي قرية المغار حيث انضمّ بعدها لبيب البطرس وازداد عدد أعضاء الفرع وأصبح فرعًا كبيرًا. لقد كان يذهب مشيًا على الأقدام مع الرّفيق داود تركي إلى مفرق مسكنة لتقلّهما سيّارة أجرة إلى النّاصرة لحضور اجتماع شعبيّ أو كادر أو لجنة منطقة حيث كانا ينامان عند الرّفاق، هناك، ليقوما في اليوم التّالي إلى العمل أو العودة إلى قرية المغار.
يقول رفيقنا أبو سامي متذكِّرًا حادثة حين كان في قرية المغار:»بدأت مع الرّفيق داود تركي بتنظيم وإقامة فرع للحزب الشّيوعي فيها رغم الإرهاب والملاحقة من أعوان الحكم العسكري وقد حاولوا عدَّة مرّات الاعتداء عليه

وعلى الذين يؤيِّدونه، وأنا كنت واحدًا منهم وكانوا دائما يهاجموننا بالحجارة والعصي عندما كُنّا نوزِّع جريدة الاتّحاد لمنعنا من توزيعها لكنّنا صمدنا وتابعنا المسيرة بفضل صمود وشجاعة وإصرار المرحوم أبي عايدة وموقفه الجريء والواعي والمثابر حيث كان الحجر الأساس لإقامة أول فرع للحزب الشّيوعي في القرية وبمساعدة رفاق الحزب في قرية عيلبون المجاورة التي كان فيها فرع للحزب قبل تأسيس الفرع في قرية المغار».

حين كان رفيقنا موسى منهمكًا بنقاش في حلقة مع بعض سكّان القرية عن الاحتلال وحقّ العودة وحقوق العاملين في العيش بكرامة وشرف وإذ بشخص يشدّه من الخلف ويسأله عن أمور شخصيّة بنيّة التّعرف عليه، وعندما تعرّف عليه وتأكّد من أبي سامي ذكّره بحادثة عين إبل حين نبّهه وحذّره من استمراره بحديثه وحثّه النّاس بعدم النّزوح.

وحين شمل الإحصاء السُّكّاني أبا سامي، بعد الاحتلال، حصل على هويّة حمراء لكنّه وبفضل محامي الأرض والشّعب حنّا نقّارة حصل على الهويّة الزّرقاء التي منحته الإقامة الدّائمة في البلاد.

بعد عام من عودته إلى فلسطين، سكن مدينة حيفا، سكن في «القصر الشّتوي». و«القصر الشّتوي» عبارة عن برّاكيّة كانت تُستعمل مخزنًا لمحرّكٍ لضخّ المياه ويقع في أواسط شارع أللنبي عند مفترق بوّابة الدّير. وكان هذا «القصر» مأوىً للرّفاق المشرّدين والمسرّحين المُحرّرين من المعتقلات حيث كانوا يقيمون فيه المبارزات الشّعريّة والنّدوات ويقول أبو سامي:»أطلقنا عليه هذا الاسم للتّندّر والنّكتة وقد كان من روّاد هذا «القصر» الرّفاق أسعد مكّي وعلي عاشور وعصام العبّاسي ومحمّد الشريدي وحنّا أبو حنّا وعودة الأشهب ومحمّد خاصّ وأحمد قوّاس وشفيق طوبي وديب عابدي والياس جمّال ووجيه عرابي وعلي خمرة وجبرا نقولا وإبراهيم تركي وصالح عبد

الرحمــان وتوفيق عمروف ونســيب قبطــي ومدحت الشَّــعَّار ومحمّد العشّ وعبّاس زين الدّين وداود تركي وأذكر أنّ داود تركي كان أشــطر واحد فيهم ويغلب الجميع في المبارزة الشّــعريّة حيث كان يتمتّع بذاكرة غريبة ومتفوِّقة على غيره، وكذلك أطلقنا على القصر اسم «الكومونة» حيث كانت تعمل كخلية نحل دائمة النَّشــاط والحركة وقــد أخذ الرّفاق على عاتقهــم القيام بأكثريّة العمل الحزبيّ والنّشاطات الشّعبيّة والجماهيريّة وتوزيع أدبيّات الحزب على سكّان حيفا العرب وقراها المجاورة».

أمّا الرّفيق توفيق عمروف فهو لقب لتوفيق عمر، وهو شيوعي فلسطيني قديم قامت السّــلطات البريطانيّة في سنوات الثّلاثين بنفيهِ إلى الاتّحاد السّوفييتي، وعاد بعدها إلى البلاد «متسلِّلاً» حيث وجد ملجأه في «القصر» أو «الكومونة» ولم يســتطع الحصول على هويّة إقامة وعندمــا كان رجال الشّرطة يطلبون منــه إبراز هويّتــه كان يكلِّمهم بالرّوســيّة الأمر الذي يحرّره مــن الاعتقال، اعتقادًا منهم أنّه يهودي مهاجر من أصل روسيّ..

كان في أيّام السّبت، عطلته الأسبوعيّة، يُسافر إلى قرى قضاء حيفا مع بعض الرّفــاق إلى عرب الحلف والزبيدات لتوزيــع الصّحيفة وتوعية الجماهير، لقد كان العمل في تلك الأيام شــاقًّا جدًّا حيث يخرج من البيت صباحًا ويعود عند غروب الشّــمس. ويذكر رفيقنا موسى أنّه نجــح بإيصال المياه إلى ديار عرب الزبيدات بعد أن قام بجمع تواقيعهم بعد أن كانوا يجلبونها على الحمير من «كيبوتس شَــاعَر هَعَمَقِيم» ويقول:»ذهبنا مــرّة لتوزيع الصّحيفة هناك وإذ بأهل البلد يقيمون عرسًا كبيرًا، وكان من بين المدعوِّين رجل المخابرات غيؤرا زَيْد، إبن أَلِكْسَانْدِر زَيْد رئيس الحرس الصّهيوني في منطقة نهلال الذي قتله ثوّار الستّة وثلاثين وقد خلّد الصّهاينة ذكراه بتمثال كبير في كريات طبعون، وحين رآنا أرســل شــخصًا إلينــا ليهدّدنا ويمنعنا من توزيــع الاتّحاد، فقلتُ

للشّــخص قُل لغيؤرا الذي ينصِّب نفســه زعيمًا على العرب ما هكذا يستقبل البــدو ضيوفَهم، فقام غيؤرا بنفســه مرحِّبًا بنا قائلاً لا هو لم يفهمني فأنتم من إخواننا الشّــيوعيّين، وحضرنا العرس وبعنا الجريدة بعد أن تلقينا وجبة غداء دسمة تليق بالمعازيم..»

كان رفيقنا موسى ناصيف يملك سيّارة شحن لنقل الحجارة والتّراب، وكانت سيَّارته، دائمًا تحت الطّلب، منصّة متنقِّلة لخطابات الرّفاق القياديّين وكذلك حافلة ركّاب لنقل الرّفاق من حيفا إلى المظاهرات التي كانت تُقام في ضواحي المدينــة أو في مناطــق أخرى أو لغابــة الجيش الأحمر في ذكــرى يوم النّصر على النّازيّة. يذكر مرّة أنّه ســار في مظاهرة جبّارة، في أواســط الخمســينات، جابت شوارع حيفا وانتهت في شارع ستانتون، حيث كان غالبيّة سكّانه من يهود المغرب، فقد اعتلوا السّــيّارة وقطعوا أســلاك مكبِّر الصّوت واعتدوا على رفيقنا أبو ســامي حيث أُصيب برأســه إصابة بالغة أجبرتــه على التّوجّه إلى المستشفى لتلقّي العلاج وقاموا بخياطة الجرح وحرّر على الحال ليجد نفسه في المظاهــرة ثانيةً وليرى أنّ رفاقه قــد انتقموا له من المعتدين الذين «أكلوها أكلة جامدة» وفي هذه المظاهرة يقول أبو سامي:»وأشهد في هذه المظاهرة أنّ شباب البعنة الحمراء من أجدع الجدعان».

يذكر رفيقنا أبو سامي مظاهرة أخرى، كانت سيّارته منصّة الخطباء، وكانت تقف في أوّل شارع هرتسل، عند مكتب البريد الرئيسي في الهدار، وحين حاول شــباب اليمين الاعتداء عــلى المتظاهرين قام رفاقنا برجمهــم بالحجارة التي كانت معدّة لبناء مكتب البريد الأمر الذي أدّى إلى هربهم وهزيمتهم ونجحت المظاهرة وألقى رفاقنا خطاباتهم بدون إزعاج.

يبغــض رفيقنــا أبو ســامي التّعصّب الطّائفــي ويقرّ بأنّه رجــس من عمل الاســتعمار، حيث يذكر أنّه تعرّف مرّة على يهوديٍّ صفديٍّ من عائلة سيغال

مــن أصل لبناني ســكنت عمّته قرية عين إبل، وقد حدَّثه مرَّةً أنّه في ســنوات العشريــن من القرن المنصرم كانت عمَّته تســكن القريــة وتحضّر العرق من العنــب وتبيعه لأهــل البلد، وقبل أن تحــدث المجزرة هناك، بشــهرين، بحقِّ ســكّان البلدة حضر رجــال الدّرك الفرنسي ليُنبِّهها من خطر اســتمرارها في السّكن في عين إبل ويحثّها على الهجرة جنوبًا.

الرّفيــق موسى الياس موسى ناصيف من قرية عــين إبل، عاش جلَّ حياته في حيفــا، منــذ أن أُصيبت هذه المدينة بالنّكبة، أعرفــه منذ أن رأت عيناي ضوء الشّــمس، رأى من خلال حياته اليوميّة أن طريق نصر شــعبنا وتحرّره من الاحتلال هو طريق العدالة الاجتماعيّة وأخوّة الشّــعوب ونفي التزمّت الديني والقومــي، لأنّــه يؤدّي بمســيرتنا الكفاحيّــة إلى الهلاك والفشــل، لأنّ العالم يقوم حســب التّوزيع الطّبقي والانتماء الطَّبقي وليس على الانتماء الدّيني أو القومي.

ســتّون عامًــا مرّت عــلى عضويّته في الحزب الشّــيوعي ومــا زال عضوًا فيه، ســتّون عامًا من الكفاح والنّضال والمثابرة من أجل رفاهية شــعبه وحقّه في التّحــرّر وحق الطّبقة العاملة في البلاد في العيــش الحرّ الكريم والعزيز، وما زال على هذا الدّرب، ســتّون عامًا غائبٌ عن وطنه لبنان وســتّون عامًا حاضرٌ في وطنه فلسطين، فهاتان العينان هما عينان لوجه واحد، بلاد الشّام، وهذان الجناحان هما جناحان لصقر واحد، صقر الشّام.

ســتّون عامًا متضامنٌ مع الشّــعوب المُتعبة من نير الاحتلال والمسحوقة من الاســتغلال الطّبقي، ســتّون عامًا وقلبه مع كوبا وفيتنــام وفنزويلا والصّين وأمريكا اللاتينيّة..

ستّون عامًا ثائرٌ في بلادنا مع رفاقه في الحزب الشّيوعي لنصرة الطَّبقة العاملة وشعبه الرّازح تحت الاحتلال، ســتّون عامًا تكمِّلُ طفولة ثوريَّة متمرِّدة على

كلّ ظواهر الظّلم الجائر والعنف القاهر منذ ولادته في عين إبل، ستّون عامًا من التّفاني والعمل الدّؤوب والمثابر الذي يبعث الأمل فيك ويشدّ من عزمك ويشدّ وزرك وظهرك..

لهذا الرّفيق أتمنّى طول العمر بالصِّحَّة والعافية والعطاء والعقل السّليم، ولعينيه الرّؤية الواضحة ولفكره الرّؤيا المنتصرة حتمًا، ونعد هذا الإنسان الحرّ كما قال لنا «منمشي وبتكفّوا الطّريق»، وعهدًا علينا ووعدًا منّا أن نستمرّ في هذا الطّريق حتّى النّصر.

ونهتف مع أبي سامي، هذا الشّيوعيّ العريق، عاليًا قول الشّاعر العربيّ السّوريّ عمر أبو ريشة في قصيدته «في سبيل المجد»:

هَذِهِ أَوْطَانُنَا مَثْوَى الجُدُودِ الأَكْرَمِين
وَسَمَاهَا مَهْبِطُ الإِلْهَام وَالوَحْيِ الأَمِين
وَرُبَاهَا جَنَّة فَتَّانَة لِلنَّاظِرِين
كُلُّ شِبْرٍ مِنْ ثَرَاهَا دُونَهُ حَبْلُ الوَرِيد

"جَمْعِيَّة الكُومُونِيسْت"

وُلِـد الرّفيق وديع توفيق موسى الخوري، أبو عايد، في الثّاني عشر من شـهر تشرين الثّاني عام ألف وتسـعمائة واثنـين وعشرين في قرية عبلّين أو إعبلّين حيث يُرجّحُ أن يكون مصدر هذا الاسم من اللاتينيّة وتعني البُستان، ويكتب د. شكري عرّاف في كتابه «القرية العربيّة الفلسطينيّة» ص 361: كان اسمها الرّوماني أبيلين أمّا الاسم العبري فهو إفليم وتقول المصادر العبريّة أنّ الاسم قد يكون تحريفًا له.

وتجـد مـن يُسـمّيها عبلّين وآخـر يُعطيها اسـم إعبلّـين، ويجوز الاسـمان للقرية..

درس رفيقنا وديع في مدرستها الابتدائيّة حتّى الصّفّ الخامس، عدد صفوف المدرسـة، وانتقل بعدها إلى مدينة شـفاعمرو الحكوميّة لإتمام دراسته فيها حيث أنهى هناك الصّفّ السّابع، ولَم يكن باستطاعته إتمام دراسته الثّانويّة بسبب وفاة والده في العام ألف وتسعمائة وخمسة وثلاثين، فتولّى أخوه البكر إيليّـا تربيتهم، فقد كان رفيقنـا وديع، الثّاني بعد أخيـه البكر، يصغر إيليّا باثنـي عشر عامًـا وذلك لأنّ والده توفيق أبو إيليّا خـدم في الجيش العثماني أيّام السّفر برلك، وغاب عن بيته مدة طويلة.

لقـد كان إيليّا المُعيـل الوحيد للعائلة حيث اهتم بتقديـم جميع لوازم إخوته الحياتيّة والمعيشيّة والدّراسيّة، لذلك قرّر أن يُرسل أخاه وديع لإتمام دراسته في حيفا فالتحق بالمدرسـة الحكوميّة التي كان يديرها الأستاذ جريس الحاج

من النّاصرة، وكان موقعها في مبنى بيت الكرمة القديم، زاوية شارعي الجبل والكرمة حيث كانت الدّراسة فيها حتّى الصّفِّ الرّابع ثانوي، وحتّى لا يسافر يوميًّا سكن مدينة حيفا بعد أن استأجر غرفة في شارع ستانتون وسكن مع أربعة عمّال، حيث كان يشتري زجاجة الكاز من دكان نعيم العسل، الواقعة في منطقة السّوق الأبيض، لإضاءة الغرفة حتّى يتسنّى له قراءة كتبه المدرسيّة وكتابة وظائفه. لكنّ الطّالب وديع الخوري لَم يتمّ دراسته بسبب الحالة الاقتصادية التي سادت أرجاء الوطن، خاصّةً بعد اندلاع الحرب الكونيّة الثّانية، كذلك لَم يستطع الاستمرار في دراسته بسبب إزعاج السّاكنين معه في الغرفة بسهراتهم وألعابهم، الأمر الذي لَم يوفّر له ظروفًا دراسيّة جيِّدة، واضطر لترك المدرسة بعد أن أنهى الأوّل ثانوي حيث انخرط في العمل في مصنع مصافي البترول في حيفا، بعد أن أرسله إلى هناك السّيّد نجيب صهيون، مدير مكتب العمل، حيث كانت وظيفته إخراج العيّنات من الصّهاريج الكبيرة ونقلها إلى المختبر لتحليلها وتعيين جودة المواد الموجودة فيها. لكنّه طُرِد من العمل في المصنع بعد أن اشتعلت النّار في ثيابه التي سكب عليها البنزين لتنظيفها، عندما بدأوا بفحص العيِّنات بواسطة «نوّاصة» ناريّة خفيفة، الأمر الذي كاد يُشعِلُ المصنع برُمّته ويشكّل خطرًا على العمّال والبيئة. وانتقل بعدها للعمل في معسكر للجيش البريطاني، بين منطقتي العزيزيّة وطيرة الكرمل، في كشكات للأكل السّريع. وسرعان ما وجد نفسه متوجّهًا إلى مكتب العمل في منطقة الألمانيّة، للبحث عن عملٍ آخر، حيث يذكر أنّ الموظّف كان يخرج من مكتبه ليُنادي بالعبريّة على العمّال بحسب حاجته للمهنة، نجّارون أو بنّاؤون، وبما أنّه لَم يكن نجّارًا ولا بنّاءً توجّه مع ابنَي بلده فوزي اسكندر حداد الحاج ونصري المرّ إلى الرّفيق توفيق طوبي، ولَم يعرف أنّه شيوعيّ، ليُدبّر له عملاً والتقوا به في ساحة سانت لوكس حيث

أرسلهم ليتعلّموا مهنة كهربة سيّارات لمدّة شهر، فتعلّم المهنة وباشر عمله فيها، في معسكر رقم تسعة قرب طيرة الكرمل حيث كان عمّال المعسكر من اليهود والعرب. كانت الحافلات تُقِلّ العمّال العرب لمكان العمل في الطّيرة من ساحة «بالمر» حيث يأتونها من البلدة التّحتا، بينما تُقِلُّ الحافلات اليهود من حارة الشّوافنة، في منطقة الهدار، وقد سُمِّيَت الحارة بهذا الاسم لأنّ سُكّانها كانوا عربًا لبنانيّين من منطقة الشّوف.

وعندما كان نازلاً متوجِّهًا إلى البلدة التّحتا، من درج الموارنة، رأى يافطة كبيرة كُتِبَ عليها «اتّحاد النّقابات المهنيّة» ودخل المكتب، حيث يقع اليوم نادي إميل توما، المكوّن من أربع غرفٍ وليوان وتسجّل فيه بعد أن منحوه بطاقة عضويَّة. وهناك علّمهم شخص يُدعى ممدوح الخيّاط كهربة سيّارات، ويذكر رفيقنا أبو عايد أنّه كانت تُعقد هناك المحاضرات التّثقيفيّة والنّظريّة وغالبًا ما كان الرّفيق إميل توما يُحاضر في الجماعة، وكانت تدور بينهم النّقاشات، حيث كانوا يسمعونها من الغرفة المقابلة للغرفة التي كانوا يتعلّمون فيها ومع مرور الوقت أصبحوا ينصتون أكثر للمحاضرات التّثقيفيّة منها إلى الدّراسة المهنيّة، حيث طلب الرّفيق أبو عايد منهم لاحقًا الجلوس معهم لسماع المحاضرات وبدأ يستمع للمحاضرات ويحضرها بانتظام ومثابرة، ويذكر مرّةً أن دخل القاعة أربعة شباب حيّوا الحاضرين بتحيّة «السّلام عليكم» رافعين قبضاتهم إلى الأعلى، رمز تحيّة العمّال، وكثيرًا ما كان يُصادف إميل توما محاضرًا في الحضور ويُعطي تعليماته لهم حول كيفيّة العمل بين جماهير العمّال والكادحين.

حين صدرت صحيفة «الاتّحاد» في أيّار عام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين حيث كانت تُطبع في مطبعة حدّاد في مدخل شارع وادي النِّسناس، بدأ يوزّعها مع الرّفاق نديم موسى وجمال موسى في مدينة حيفا، مكان سُكناهم، وقد كان

يُفضِّل توزيع الصّحيفة في منطقة السّوق الأبيض الضّيّق والمزدحم بالزوّار والمارّة، في المنطقة ما بين جامع الاستقلال وساحة الحناطير، الخمرة.
وحين كان يسافر إلى بلدته إعبلّين في نهاية الأسبوع كانت تتعرّض الحافلات المسافرة عن طريق كُفْرِتّا إلى إطلاق النّار ورجم الحجارة، لذلك كان سائقو الحافلات يختارون السّفر عن طريق عكّا إلى وادي الحلزون إلى قرية الدّامون إلى عبلّين، وكان يُحضِر معه بعضًا من أعداد صحيفة «الاتّحاد» ليُطلع أهل قريته على هذا الكنز الجديد وهكذا بدأ أهل عبلّين يقرأون صحيفة الحزب حيث تعرّفوا لأوّل مرّة على مصطلح الشّيوعيّة وقرأوا أوّل مرّة صحيفة شيوعيّة..
وتألّفت أوّل خلية شيوعيّة في البلدة بعضويّة أربعة رفاق في عام النّكبة وهم:
نصري المرّ وأنيس زهران وفوزي اسكندر حدّاد الحاج ووديع توفيق موسى الخوري، وانضمّ بعدها الرّفيق مرشد سليم حيث كان يتعلّم في مدرسة فاخوري في طولكرم وسمع هناك عن عصبة التّحرّر وبدأ يشاركهم اجتماعاتهم ومحاضراتهم ونشاطاتهم.
عندما سقطت حيفا أصدر رفاقنا في عصبة التحرر الوطني منشورًا يدعو السّكّان العرب في البلاد للبقاء في البلاد ويحذّرهم من الرّحيل حتى لا يخسر الأهل الوطن. وقد أرسل الرّفاق المنشور إلى القرية بواسطة الرّفيق فوزي اسكندر حاج. وقد تمّ توزيع المنشور على جميع أهل القرية وكذلك أحضر الرّفيق جمال موسى إلى القرية المنشور الذي أصدرته الأحزاب الشّيوعيّة العربيّة والذي يقرّ بموافقتهم على قرار التّقسيم المُجحف ويفضح السّياسة المشتركة المتآمرة للحركة الصّهيونيّة والإمبرياليّة المتمثِّلة ببريطانيا والرّجعيّة العربيّة وضلوعها في مؤامرة دنيئة وخسيسة على الشّعب العربي الفلسطيني،

لقـد وزّع الرّفاق المنشـور سرًّا، ويذكـر رفيقنا أبو عايـد أنّ عملاء الاحتلال والرّجعيّـة العربيّة المحليّة قامـوا بالاعتداء على موزّعي المنشـور لثنيهم عن طريقهم، لكن هيهات..

يذكـر رفيقنا وديع توفيق الخوري أحـداث الثّمانية والأربعين في حيفا كيف كانـت عصابـات صهيـون تُضرم النّـار ليلاً في المحـلات التّجاريّـة العربيّة ويطلقـون الرّصاص ليلاً وعشـوائيًّا على المارّين العرب في الشّـارع لإرهاب السُّكّان الأصليّين وحثّهم على ترك المدينة.

سـقطت قرية عبلّين في الرّابع عشر من شـهر تموز من عـام النّكبة، بعد أن أنجـزت عمليّة «ديـكل» احتلال الجليل الغربي، وبقيت القرية سـليمة. لكنّ الإرهاب والقتل والتّخويف والمذابح التي شـاعت بين القرى كالنّار في الهشيم أرعبت سـكّان القريـة حيث لجأ غالبيّة السُّـكّان إلى قرية ضميدة، وبقي في القرية بعض النّساء والأطفال والشّيوخ.

لقد اسـتقبل أهل قرية الضميدة اللاجئين بالحفـاوة البالغة، إذ منعوهم من متابعة النّزوح شمالاً حيث اهتمّوا بهم ووفّروا لهم جميع حاجيّاتهم ولوازمهم ولَم ينقصهم شيء فيها حيث شـعروا أنّهم بين أهلهم وربعِهم، لقد أثبت أهل الضميدة أنّهم من أقحاح العرب بمروءتهم وكرمهم وضيافتهم ونُبلهم.

وحـين زاد شـوقهم لبلدتهم وأرضهـم وبيوتهم بعد هـدوء الوضع بعد فترة وجيزة، أرسـلوا ثلاثة من أهل القرية رافعين الرّاية البيضاء إلى مكان تمركز الجيش، قرب الكنيسة، في إعبلّين طالبين العودة لقريتهم وكان لهم ما أرادوا، وعادوا.

لكنّ رجال الهجناة بعد أن سمحوا لأهل البلدة بالعودة، دخلوا القرية واعتقلوا حوالي ثمانين شخصًا، كان رفيقنا وديع، أبو عايد، من بينهم، حيث وشى بهم عمـلاء مـن القرية، وكانت غالبية الوشـايات تصفية حسـاب مع هذا وذاك،

بدون سبب يُذكر وألبسوهم ثيابًا مرقَّمة وزجّوا بهم في سجن عكّا، وشغّلوهم في أعمال السُّخرة، ويذكر أنّه كان من بين معتقلي السّجن رفيقان قياديّان هما حنّا نقّارة وزاهي كركبي وكانا قد اعتُقِلا بعد عودتهما من لبنان.

لكنّ أبو عايد وجد نفسَه حرًّا بعد ثلاثة أيّام حين أرسلوه للعمل في قسم البناء خارج أسوار عكّا، حيث سمحوا له بالمبيت في الموقع المُعدّ للبناء وبعد فترة، تحرّر وبعض من زملائه وعادوا إلى قريتهم، وكان الموسم حصادًا..

يعتاش أهل قرية عبلّين على الزّراعة والفلاحة، وكانوا يبيعون منتجاتهم لشخص يُدعى حزّان، يأتيهم في موسم الحصاد أو قطف الزّيتون وجني الثّمار، حيث كان يشتريها بثمنٍ بخسٍ «مع تحميل جْميلة» فقام الرّفاق باستشارة رفاق فرع حيفا، فقد كانت القرية تابعة لمنطقة حيفا، خاصّة جوزيف عبده عن كيفيّة تسويق المنتجات الزِّراعيّة والخلاص من نير المدعو حزّان فقاموا بتأسيس جمعيّة تعاونيّة، أطلقوا عليها اسم «الجمعيّة الزّراعيّة التّعاونية للاستهلاك والتّصريف» حيث كانت تضمّ أكثر من ثمانين عضوًا، وقاموا بشراء المنتوجات لبيعِها في حيفا على أن يستلموا مالهم بعد بيع المحصول، وكانوا يوزّعون على الأهالي بطاقات تموين من دائرة التّموين ولَم يكتب عليها اسم الجمعيّة الرّسمي بل كتبت الدّائرةُ عليها اسم جمعية الشّيوعيّين، الكومونيست، وبقيت هذه الجمعيّة على نشاطها مدى أربعين عامًا، لغاية العام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين، ويطلق أهل القرية على مكان الجمعيّة بدكّان الشّيوعيّين..

حاول، وفي المقابل، ناشطو حزب المباي في قرية عبلّين تشكيل جمعيّة تعاونيّة بديلة لجمعيّة الكومونيست لكنّهم «مغدرولناش» حسب تعبير رفيقنا أبو عايد.

ويُشدّد الرّفيق وديع على دور رفاق عبلّين في زرع سنابل الماركسيّة اللينينيّة

في حقول القرى المجاورة حيث ساهموا في تأسيس فروع للحزب في طمرة وكابول وشفاعمرو.

يقصّ علينا أبو عايد حكاية زواجه من زوجته مريم سليم الحاج، أم عايد، حين رفض خوري الرّعيّة في القرية منحه الحلّة للزّواج، حيث لا يجوز عقد القِران بدون موافقة الخوري، وذلك لعضويَّته في الحزب الشّيوعي وإذا أراد موافقة الخوري فإنها تكون منوطة بشرط إلغاء عضويَّته في الحزب واستنكار تلك الفترة التي كان عضوًا فيها، فرفض رفضًا قاطعًا الأمر الذي حال دون منحه تأشيرة الزّواج، فتوجّه إلى المطران حكيم في حيفا برفقة رفيقنا وابن بلدته حنّا المرّ، حيث أعلمهما المطران بالحرمان الدّيني البابوي على كلّ شيوعيّ رافضًا عقد الزّواج الكنسيّ لكلّ إنسان ينتمي للحزب الشّيوعي، فذهب لخوري رعيّة الرّوم الأرثوذكس الذي رفض هو الآخر طلب منح الحلّة متراجِعًا عن موافقته في البداية على إعطائها، متذرّعًا بعدم رغبته في خلْق خلافات بين الكنائس المختلفة ونفس الرّواية كانت مع طائفة البروتِسْتانت إذ طلبوا منه مدّة ستة أشهرٍ تجريبيّة، ليتأكّدوا من إيمانه واقتناعه بكنيستهم، لكنّ الرّفيق وديع كان «مِسْتَجْوِزًا» وحين أعلم رفيقنا سركيس من حيفا بإشكاليّة زواجه والمشاكل التي يُحيكونها له اقترح عليه تزويجه عند طائفة الأرمن الأرثوذكس «ويبلْطوا البحر كلّهن» وتمّ له ذلك الزّواج، حيث كللهما رجلا دين من طائفة الأرمن الأرثوذكس على بيادر القرية وبحضور جميع أهل القرية مابين رفيق وصديق وقريب ومحبّ لرفيقنا أبي عايد ومحبّ للاستطلاع على أضواء اللوكسات والقمر والنّجوم..

وحين طُلِب منه إحضار العرّابين، كان عليه إحضار أربعة عرّابين، حسب قانون الكنيسة الأرمنيّة، فأحضرهم في الحال وهم الرّفاق علي الخمرة وزاهي كركبي وفوزي اسكندر حدّاد الحاج وحنّا المرّ ولَم يعترض الخوري على

وجود مسلم بين العرّابين في الكنيسة الأمر الذي يدلّ على درجة الوعي العالية والتّسامح الدّيني ومحبّة الآخر التي كان يتمتّع بها أب الرّعيّة، زد على ذلك أنّ حمّام العريس كان عند الرّفيق سـليمان النّجمي بعد أن ركّب عريسنا عنترة العبـسّي على ظهر الأصيلة بعد حمّامه المُميَّـز بالتّآخي والوحدة والمحبّة، لأنّ جميعنا في الهمّ والغمّ عرب وبوحدتنا نهزم هذا الهمّ والغمّ..

ودعـا أهل العريس رجُلَي الدّين لتناول العشـاء مع جميـع المدعوِّين وعندما أراد دفـع إكراميّة الإكليل أجر تعبهما، قال له الخوري ليكن هذا المبلغ تبرُّعًا من كنيستي لمؤتمر العمّال العرب!

ما أجمل التّآخي عندما يكتمل بالتّآخي وما أروع المحبّة لأنّها تكتمل بالمحبّة، فحـقّ المحبّة علينا وحقّ التآخي علينا أن نتوحّـد وأن ننبذ التّعصّب المذهبي والطّائفي فهما آفة الآفات.

لقد فشـلت سياسـة الحرمان الدّينـي التي فرضها بعض رجـال الدّين على الشّـيوعيّين قبل عقود بفضل وعي جماهيرنا ووضوح طريقنا ودماثة أخلاق رفاقنا وتفانيهم من أجل بناء وطنٍ حرٍّ وشعبٍ سعيدٍ، حيث حافظوا بكلّ ما يملكون وبشـجاعة ورباطة جأش وإيمان ومثابرة على طريقهم وصمدوا في مواجهة كلّ تحريض ديني

(وكأنّنا كُفّار) أو قوميّ (كأنّنا ضدّ العروبة) كذلك، اليوم، ستفشـل سياسة التّحريض على حزبنا وتاريخه وسننتصر..

قُوَّتُهُم فِي تَفَرُّقِنَا

يجلس رفيقنا أبو عصام على كرسـيِّه في شرفة بيته في شـارع الخوري، حيّ وادي النّسناس بحيفا، كعادته كلّ صباح، يرتشف قهوته الصّباحيّة ويتصفّح «ويُفَلِّي» صحيفة الاتحاد وينظر بعيدًا إلى ما وراء الجبال التي تُحيطُ ساحل خليج حيفا بنصفِ دائرة من الشّرق، كالقمر الزّاهر، الوضّاح في هلاله حيث يُبشّر بشـهر جديد أو كمنجل حصّاد يحصد سنابله في موسمها، رأسه الحادّ في رأس النّاقورة وقبضته في مدينة حيفا، ومن الغرب أفق مفتوح يبعث الأمل، ويُبيِّن خطًّا مسـتقيمًا وواضحًا يفصِلُ بين البحر والسّماء، ويملأ هذا المنظر الخـلاب قلبه بالسّرور والغبطـة، خاصّةً حين تكـون الرؤية واضحة، فيرى جبـل عامل تتمّة جبال الجليل، وتبرُز خلْفَه قمّة جبل الشّـيخ. لقد كان يرى تلك القمة البهيّة البيضاء النّاصعة في طفولته، كقلوب أهل تلك المنطقة، حين كان يسـكن قرية صفد البطّيخ، مسـقط رأسـه، قضاء بنت جْبَيْل، محافظة النّبطيّة، في الجنوب اللبناني الصّامد..

هناك، وُلِد رفيقنا عبّاس محمّد حسـين زين الدّين، أبو عصام، في العام ألفٍ وتسـعِمائةٍ وخمسـة وثلاثين. فكانت لـه وما زالت قمّة جبل الشّـيخ تقع في وسـط العالم، النّصف الأوّل هناك، في الجنوب اللبناني والنّصف الثّاني هنا، فلا هناك سـوى هنا ولا هنا سـوى هناك، حيث هناك وهنـا وحدة واحدة لا انفصـام فيها، على أمل أن يجتمعا معًا ويصبحا سـويَّةً هنا، لأنّ بلادنا كلّها هنا.

يعشق الرّفيق أبو عصام رؤية قمّة الحَرَمُون البيضاء من شرفته في حيفا، لأنّها تُذكِّـره بطفولته في صفد البطّيخ، حين كان يراها من شرفة بيته الآمن، حيث يأمل أن يراها ثانيةً وأن يراها قمّة القِمم، فهي مرآة حياته بكلّ مراحلها..

كانت بلاد الشّام تضمّ سوريا ولبنان وفلسطين ومنطقة شرقي نهر الأردن وتشـكِّل وحدة جغرافيّة وقوميّة عربيّة واحدة، حيث كان التّنقّل بين مناطق الوطن الكبير مفتوحًا وشـعور الانتماء واحدًا، فقد تداخلت العائلات بعضها ببعض لتجد كثيرًا من العائلات في فلسـطين لها أقارب في الأقطار الشّـقيقة المجاورة والمتاخمة، وكذلك تجد العكس، إلا أنّ اتّفاقيّة العام ألفٍ وتسـعمائة وستّة عشر، سايكس بيكو، والموقّعة بين فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصريّة في مدينة بيتروغراد (سانت بطرسبورغ، لينينغراد سابقًا)، المُتآمرة على وطننا العربي الكبير مزّقته وأحكمت السّـيطرة عليه وعـلى ومقدّراته، لدرجة أنّهم ركبوا على ظهورِنـا ومدّوا (دَنْدَلُوا) أرجلهم براحـة فائقة. وقد أدّى انتصار الثّورة الاشـتراكيّة العُظمى في روسيا القيصريّة إلى فضح الاتّفاقيّة والمؤامرة، حيث تنازل الاتحاد السّوفييتي عن حصّة روسيا القيصريّة في اقتسام أراضي الرّجل المريض العُثماني (عن اسـتانبول ومضيق البسـفور وقسم كبير من الأناضول) بينما قسّمت فرنسا وبريطانيا باقي الوطن فيما بينهما.

قوّتهم في تفرُّقِنا وضعفُنا في تفرِقَتِنا وعجزُنا في عدم اعتصامنا بحبل الوحدة وبهذا يجد الطّاغوت إلينا سبيلا.

لقـد قـام رفيقنا عبّاس وعائلته بزيـارة لأقاربه في مدينـة النّاصرة في أواخر العام ألفٍ وتسـعمائة وسـبعة وأربعين. وحين سقطت البلاد، في عام النّكبة، سقطت إمكانيّة الرّجوع إلى مسقط رأسه بعد أن أُقفِلت الحدود بإحكام تامّ. وبدأ بترتيب عودته إلى لُبنان، لكنّ قيادة الشّـبيبة الشّيوعيّة طلبت منه البقاء في بلادنا، لحاجتها الماسّـة لنشـاطه النّوعي، بعد أن انضمّ إلى صفوفها، فرع

النّاصرة، عام ألفٍ وتسـعمائة وتسعةٍ وأربعين، فبقي في القسم الجنوبي من وطنــه حيث وجد أنّ لزامًا عليــه البقاء في البلاد لمقارعة الاحتلال والعمل على عودة اللاجئين.

« لقد عملتُ في النّاصرة في مصنع الكازوز بمرتّب زهيد وكان يعمل في المصنع بعض الرّفاق منهم الرّفيق غسّان حبيب الذي كان يشرح للعمّال أثناء فرصة الغذاء، عن أمور سياسيّة لم أفهمها وأمور أخرى كانت لي واضحة، وعندما بدأت أشاركه النّقاش طلب منّي الانتساب للشّبيبة، وهكذا كان».

ســكن في النّاصرة مع عائلته في الحارة الشّرقيّة، وبدأ نشــاطه في توزيع كلمة الحــزب، الاتّحاد، حيث كان عــلى الرّفاق قراءة الجريدة قبــل توزيعها حتى يتســنّى لهم معرفة فحوى الجريدة، لإقناع النّاس وإعطائهم الجواب الشّافي لكلّ ســؤال، والعمــل على شراء الصّحيفة، فقد كانت تُــوزّع صحيفة الاتّحاد داخل النّاصرة وفي قضائها، كذلك في القُرى البيضاء، التي لم يكن فيها فروعٌ للحزب، كعيلوط ودبّورية واكسال وعين ماهل. ووضعوا نُصب أعينهم هدفًا نبيــلاً، هو إيصال الكلمة إلى كلّ النّــاس لأنّها صحيفة كلّ النّاس، لذلك كانوا يذهبــون، أيضًا، إلى تلك القُرى مشــيًا على الأقدام وكانت تقوم منافســة بين الرّفاق، من يوزّع أكثر.

يذكر أبو عصام أنّه قامت شــلّة من زعــران المباي من مدينة النّاصرة، حزب بــن غوريون، بالاعتداء على الرّفيق غسّــان حبيب ســكرتير فرع الشّــبيبة في النّــاصرة، آنذاك، «مُحاولين منعنا من النّشــاط بين الجماهــير، لكنّنا لقَّنّاهم درسًا عرفوا من بعده مع مين علقانين»، لقد كان الزّعران مسلّحين أمّا سلاح رفاقنا فقد كان قلوبًا ثائرة وحجارة من بلادنا، «حيث صعدنا أسطح المنازل وبدأنا برَمْيِهم بالحجارة من كلّ صوب الأمر الذي أخافهم ففزِعوا من عددنا وبأســنا وفرّوا هاربين إلى جحورهم. وبعدها بدأنــا بتوزيع صحيفة الاتّحاد

بشــكل تظاهريّ في منطقة الكراجات وبمجموعات كبيرة لنُفهِمهم أنّ إرهاب السّلطة وعملائها لم يمرّ ولن ندعه يمرّ».

لقد أُعجبَ الرّفيق أبو عصام بحيفا التي فتنت ناظِرَيْه كثيرًا. فقد رآها أوّل مرّة حين أتاها من النّاصرة رفيقًا، مشارِكًا في مهرجان ومُخيّم الشّبيبة الشّيوعيّة على سفوح جبال الكرمل، فقرّر الانتقال إلى حيفا عام ألفٍ وتسعمائةٍ واثنين وخمســين بعد أن حصل على توصية من الرّفيق سهيل نصّار للعمل في قوت الكادحين، وكان عمره ســتّة عشر عامًا، وكما هو معلوم كان عليه أن يُصدِر تصريحًا يســمح له الانتقال مــن النّاصرة إلى حيفا. فذهــب إلى مكتب وزارة الدّاخلية في النّاصرة،

لإصدار التّصريح، وحين وقف في صفٍّ طويلٍ ينتظرُ دورَهُ للدّخول إلى غرفة التّصاريح، جاءه شرطيّ عربيّ، إبن النّاصرة، وطلب من الموجودين الالتزام بالوقــوف في الصّف. وكان من بين المنتظِريــن دخولَ الغرفةِ طالبًا التّصريحَ رجــلٌ مســنٌّ، فاقترب منه ذلــك الشّرطي ودفعه إلى الحائــط بقوّة على مرأى من الحضور الأمر الّذي لم تتحمّلهُ شــهامة الرّفيق أبو عصام، فقد تخيّل أنّ الشّرطيَّ يُهين والده المُتوفَّى أبو أحمد، فصرخ في وجه الشّرطيّ شاتِمًا ومؤنِّبًا عــلى تصرّفه مع هذا الرّجل المُســنّ الّــذي يمكنه أن يكــون في جيل والد ذلك الشّرطــيّ، عندها أخــذه إلى غرفته وصفعه على وجهه وصــادر هُويّته قائلا: «خــلّي أبوك ييجي يوخد هويتك». وحين كان الرّفيق عبّاس يتيمَ الأب، فكيف له أن يُحضِر والده لأخذ الهويّة، ومن أين سيدبِّرُ أبًا. فذهب إلى الرّفيق صليبا خميس، ســكرتير المنطقة آنذاك، وأخبره بتفاصيــل الحادثة حيث قام بدور أبيــه وذهب معه إلى المســكوبيّة (مركــز الشّرطة) وحرّر هويّــة أبي عصام. وبعدهــا حصل على التّصريح وانتقل للعمل والعيش في حيفا، حيث بدأ عمله في الجمعيّــة التّعاونيّــة قــوت الكادحين، ورُفِّع إلى صفــوف الحزب عام ألفٍ

وتسـعمائة وخمسـة وخمسـين، وتعرّف على مشـاكل العمّال وروّاد المطعم وصادقهم، الأمر الذي سـاعده في إدارة أكبر خليّة للشّـبيبة العاملة في حيفا، حيث كان لسنوات عديدة عضوَ لجنة منطقة حيفا للحزب الشّيوعي.

أمّا قـوت الكادحين فهي جمعية تعاونيّة، غير اسـتثماريّة أو رِبْحِيَّة، أقامها «مؤتمر العمّال العرب» بقيادة الشّيوعيّين بعد الاحتلال، في أوائل خمسينيّات القـرن الماضي، على مسـتوى القُطُـر، ليضمن لقمة عيش العمّال، ليعيشـوا بـشرفٍ دون مِنّـةٍ من أحد، مـن خلال فتح بقّالـة تعاونيّـة تحمي جمهور العاملين والكادحين، من اليهود والعرب، من منشـار «السّـوق السّـوداء» في زمـن شراء المواد الغذائيّة مقابـل بطاقات تموين من دائـرة التّموين، حيث كانـت تمنح هذه الجمعيـة أعضاءها، احتياجاتهم الغذائيّة بأسـعارٍ مُراقبَة كالطّحـين والحليب ومنتجاته والبيض والسّـكّر والملح والقهوة كُلاًّ حسـب حاجته وفي موعدٍ مُحدّدٍ، في وقت كان بعض أصحاب البقالة الآخرين يخزنون بضاعتهم ويبيعونها بعد ذلك بأسـعارٍ عالية حين كانت تنقص من السّوق، حيث وصل عدد المشتركين في الجمعيّة إلى ستِّمائة وستين مشترِكًا.

يروي الرّفيق عباس زين الدّين حادثةً:

«كنتُ أذهب إلى السّـوق لشراء الخضار والفواكه للجمعيّة على أن أدفع المبلغ بعد بيعِ البضاعة. وبعد أسـبوع أتيتُ لشراء الخضروات الأسـبوعيّة، ثانيةً، كمـا هـو مُتّفقٌ، وإذ بأحد عملاء السّـلطة يأتـي إلى مقـرّ الجمعيّة، المطعم، يُطالبنـي بدفع الدّيْن المسـتحقّ ويُهدِّدني بكذا..إذا لـم أدفع المبلغ له. وكان الرّفيق رياض المعلّم (عودة) حاضرًا الاسـتفزاز، فأتى سـائلاً عن الإشـكال وعن طبيعة تهديد هذا الشّـخص (المعروفة هويَّته) لي، وما أن بدأ بالتّطاول وإذ باللكمـات تنـزلُ على أنفه ورأسـه وجميع أطرافه من أبـي نوّاف المعلّم الأمر الّذي دعا هذا العميل إلى الهروب مُستنجِدًا بشلّته الّتي أتت إلى الجمعيّة

في شـارع الخـوري، حيث هدّدونـي بطلقة رصاصٍ من مسـدّس أحدهم في جبيني، إذا لم أعترف لهم عن الرّفيق رياض، فقلتُ لهم انّه مُجرّد عابر سبيل لا أعرفـه فأنا لا أسـتطيع معرفة كلّ الزّبائن الّذيـن يرتادون المطعم، وهكذا كان اعترافي في المحكمة الّتي لم تجد دليلاً لتجريم أيّ شخص».

وفي حادثة أخرى يسردها أبو عصام: «أنّه حين طُعِنَ أحد المُعتدين من شِـلَّة اليمين بسـكين داخل المطعم، كان المُتّهم حينها الرّفيق يوسـف عبده، حيث أنكـر المُتّهم ورفاقـه هذه الحادثة أمـام الشّرطة وأمام القـاضي في المحكمة الّتـي كان يدافع فيها عـن رفاقنا محامي الأرض حنّا نقّارة، وخلال سـؤاله لأحد الشّهود على عمليّة الطّعن وعن مكان وجوده خلال الطّعن، وكيف رأى المُتّهم عمليّة الطّعن من مكان وقوفه! فقام أبو طوني بدعوة القُضاة للمكان ليُعاينـوا الموقع حيث وجدوا أنّه من المسـتحيل رؤية المـكان من الموقع الّذي أشـار إليه الشّـاهد فكم بالحريّ رؤية عمليّة الطّعن. وهكذا أنقذ أبو طوني الرّفيق من التّهمة. وحُرّرَ المُتّهم بشهادة براءة من كلِّ إثم أو ذنب، وهكذا درأ مُحامي الأرض الحدود بالشّبهات.

ذات مرّة غَزَت قوّة من سلطة البثّ المطعم وذلك لعدم وجود ترخيص لجهاز الرّاديـو الموجود هناك، وحـرّرت مُخالفة لجمعيّة قـوت الكادحين، فما كان من الرّفاق إلا الذّهـاب إلى المحكمة مع جهاز راديو قديم، قد أكلت القوارض نصفه، وحين رأى القاضي ذلك الجهاز الّذي أكل الدّهر عليه وشرب مع بقايا القوارض أعفاهم من كلّ جزاء.

لقد قامت منطقة حيفا للحزب الشّـيوعي، قبل ثلاثة أعـوام، بتكريم الرّفاق القُدامـى وذلـك عـلى شرف الذّكرى الحاديـة والثّلاثين ليـوم الأرض الخالد وانعقـاد مؤتمر الخامس والعشرين لحزبنـا. وقد كان رفيقنا أبو عصام من الرّفاق المُكرّمين وقد جاء في كلمتي التّكريميّة: الرّفيق عبّاس زين الدّين رفيق

إيثاري خدم أحياء الفقر في حيفا بدون حساب لوقته أو راحته وبدون ملل أو كلل حيثُ ساعد سُكّان هذه الأحياء على كيفيّة انتشال الماء من البئر العميقة وانتزاع اللقمة من فم الأسد وحافظ على جريدة الاتّحاد وعلى كلمة الحزب ونشرها بين النّاس.

حين أذهب إلى بيوت السُّكان في منطقة شرق حيفا، منطقة شارع العراق، لدعوتهم للذّهاب إلى صندوق الاقتراع للتّصويت، أيّام الانتخابات، كنت ألقى جوابًا يُثلِجُ الصّدرَ، «لن أذهب دون أبي عصام» وطبعًا كنتُ أحاول إقناعهم أنّني من حزبه وهو الذي أرسلني لكن دون فائدة، لقد حفِظوا الدّرس وأتقنوه كما يجب.

لقد شَغَلَ الرّفيق عبّاس منصِب رئيس لجنة العمل البلدي، التّابعة للحزب، لعدّة سنين حيث قدّم كلّ ما يملك من طاقات من أجل إيجاد مساعدات لتلك المنطقة،

وحلّ مشاكلها الكثيرة، حيثُ اعتبروه واحدًا منهم. كذلك كان عضوًا فعّالاً في لجنة الإسكان في حيّ وادي النّسناس حيث تتوّج نشاطهم بإقامة وحدة سكنيّة ضخمة في شارع الخوري. كذلك نظّم عملاً تطوّعيًّا مكوَّنًا من رفاق حزبنا وشبيبتنا في حيفا ووفد شبابيٍّ من ألمانيا الاتّحاديّة في الأحياء العربيّة الحيفاويّة وذلك في شهر آذار عام ألفٍ وتسعِمائة وسبعة وثمانين حيث كان ناجحًا وموفَّقًا في تنفيذ برنامجه..

لقد كانت صحيفة الاتّحاد تأخذ حيِّزًا هامًّا من حياته وحياة أفراد عائلته خاصّة زوجته طيِّبة الذّكر الرّفيقة عفيفة، أم عصام، التي رافقته مسيرته في ضرّاء وسرّاء الحياة متحديّة جميع الصّعاب، حيث كان البيت يَومَيْ الاثنين والخميس، ورشة عمل، وعَمَلُ خليّةِ النّحل يصغرُ عندهم. فقد كانوا يُحضِرونها إلى بيتهم وكانت العائلة تُنظِّم طيَّها حسب الصّفحات وترتيبها

ورزمها وإرسالها إلى ساحة الخمرة، أو الحناطير، إلى محطّة باصات النّاصرة لنقلها إلى جميع مناطق الجليل وكذلك في التّاكسيّات إلى جميع مناطق جنوب حيفا حتّى النّقب، أمّا أم عصام فكانت تدعو جاراتها للعمل في طيّ الجريدة المُرسلة إلى الخارج، حيث كانت تُطوى بشكل مستطيل حتّى تدخل في كيس أبيضٍ صغير وتُرسل إلى البريد في اليوم التّالي صباحًا إلى خارج البلاد، هذا عدا عن أنّها كانت توزّعها مع رفيقاتها في الحيّ. لقد كانت صحيفة الاتّحاد واحدًا من أفراد العائلة..

كانت توزّع الاتّحاد أيّام السّبت في القُرى المجاورة لحيفا، وذات مرّة حين قام الرّفيق أبو عصام بتوزيعها في قرية جسر الزّرقاء، سأله أحد السُّكّان: ما الفرق بين هذه الصّحيفة والصُّحُف الأخرى؟ أجابه بعد أن أشار له إلى عنوان عريض في أوّل الصّفحة، «جريمة هدم ثلاثة بيوت في طمرة»، قال له: «هذا هو الفرق، أنّني أتحدّى أن تصف أيّة جريدة أخرى هدم البيوت بالجريمة، لأن «الإتحاد» هي الجريدة الوحيدة التي تُدافع عن قضايا جماهيرنا».

وحادثة أخرى في نفس القرية «كنتُ أُوزِّع الجريدة مع رفيق الشّبيبة خالد كركبي (الآن أصبح طبيبًا) ومررنا برجال يجلسون تحت شجرة حيث قاموا جميعًا بشرائها وقد استبشرنا خيرًا، لكنّنا عُدنا بعد أسبوع وكانت عودتنا وخيمة، حيث تقدّم أحدهم منّي وشتمني دون سبب، وقمتُ بنهيهِ عن الشّتم وبشرح هدف الصّحيفة وما تصبو إليه والهدف من زيارتنا للقرية وكم هو مهمّ أن يكون الفرد في مجتمعنا واعيًا..

وحين أرخى الليل ستاره وأردنا العودة إلى حيفا كانت في انتظارنا تحت عامود الكهرباء، في مدخل القرية مجموعة من الشّباب أرادت الاعتداء علينا، فأتى من خلفي شخص، أحاطني بذراعيه متوسِّلاً بترك المكان لأنّ هذه المجموعة تُحضِّر لنا كمينًا، لقد كان هذا الشّخص سائق سيّارة لبيع مواد

بنــاء، وكان رفيقًا من باقــة الغربيّة، وقد تابعنا توزيعهــا في القرية كلّ يوم سبت»..

حــين نفت ســلطات الاحتلال إلى قرية عســفيا الرّفيق محمّد حســنين، أوكل الرّفيــق زاهي كركبي، أبو خالد، رفيقنــا أبا عصام، بزيارته هناك والتّواصل معه وإيصال الصّحيفة إليــه وتزويده بكلِّ ما يحتاج إليه، وبهذا كُسِر طوق النّفي والعُزلة.

ذات مرّة أعتدت مجموعة من شــباب عســفيا على إبني، عضو الشّبيبة عادل زيــن الدّيــن (الآن أصبح طبيبًا) عندمــا كان يوزّع الصّحيفــة هناك، بحجّة مُضايقتهــم في بيعهــا، وحين صعد الرّفاق لتقصّي حيثيّــات الحادثة حتّى لا تُعــاد كَرَّة الاعتداء، قال أبو عصــام للمُعتدي في بيته: «كيف تضربه في بلدك، هــذا عيــب، أتريد أن تُــضربَ حين تأتــي إلى حيفا، فأجابنــي إنّ الشّرطة قد أشارت إليهم بالاعتداء على الشّيوعيّين إذا أتوا البلدة، وحينها علا صراخ والده عليــه الذي أنكر أن يكون قد تلقّــى تعليمات كهذه، لكنّنا تابعنا وداومنا على توزيع الاتّحاد هناك دون إحباط أو خوف».

بعــد احتــلال العام ألفٍ وتســعِمائة وســبعة وســتّين، بدأت أوامــر الإقامة الجبريّــة.. فقد مُنِــع الرّفاق من دخــول الضّفّة الغربيّة وقطــاع غزّة وكذلك صحيفة الحزب، لكنّه سُــمِح بتوزيعها في مدينة القدس فقط، وأوكلت مهمّة إيصالها إلى القدس لأبي عصام حيث يُسلِّمها تسليم اليد لرفيق من رفاقنا في القــدس لضمان وصولِها، وهناك كانت توزّع بشــكل سريٍّ إلى باقي مناطق الضّفّــة، كما كانت تــوزّع عندنا أيّام الحُكم العســكريّ، وهذه كانت أضمن وسيلة إيصال كلمة الحزب لشعبنا الرّازح تحت الاحتلال، هناك.

رحّبــت منطقة حيفا باقتراح رفيقنا الشّــاعر الكبير ســميح القاســم بإقامة هيئة للدّفاع عن المقدّســات الإســلامية، عام ألفٍ وتسعِمائة وأربعةٍ وسبعين،

حيث تبلورت في أعقابها فكرة «جمعيّة المبادرة الإسـلامية» وقد انسـجم هذا الاقتراح، لاحقًا، مع اقتراح قامت به الرّفيقة بنينا فاينهاوز، حين اقترحت على رفاق الحزب إقامة لجنـة للعمل البلدي لمواطني حيفا عامّةً وللعرب خاصّةً. وتأسّست الجمعيّة ونشطت وأنجزت إنجازات كبيرة وكثيرة، تعتزّ جماهيرنا بها، ودافعت بكلّ ما أوتيت به من عزيمة عن المقدَّسـات والأوقاف الإسلاميّة، وكشَـفَت المؤامرات التي حيكت من قِبل لجنة الأمناء، لسرقة الأوقاف وبيعها للـشّركات الإسرائيليّـة والمؤسّسـات الحكوميّة وكان رفيقنـا أبو عصام أحد دعائم الجمعيّة المُدافعين والمثابرين والمواظبين.

لقد واكب رفيقنا عبّاس زين الدّين صحيفة الاتّحاد أكثر من خمسة عقود، في جميع محطّاتها من بستان الشّيوعيّة إلى قاعة مؤتمر العمّال العرب في شارع مار يوحنّا إلى شارع الحريري وجميعها تقع في منطقة حيّ وادي النّسناس، وكان عضـوَ إدارتها سـتّة وثلاثين عامًا أو يزيد. كذلك واكب مسـيرة جميع قـادة الحزب والأدباء والشّـعراء والصّحفيّين والمثقّفـين الذين كانت الاتّحاد منبرهم ولم يكن لهم منبرٌ غيرها.

عمـل أبو عصام على تثقيـف ذاته بالفكر الماركسي ورأى فيه سـلاحًا قويمًا وجديرًا يتحدّى فيه كلّ الصّعاب ويحلّ من خلاله أسـئلة التّطوّر الاجتماعي والعدالة الاجتماعيّة وحقوق العمّال والفلاحين، لذلك أرسله الحزب إلى المعهد الدّولي في موسكو عام ألفٍ وتسعِمائة وخمسة وسبعين لمتابعة عمليّة الدِّراسة والتّثقيف الذّاتي، فقد مثّل الحزب والجبهة عدّة مرّات في وفود تمثيليّة في عدّة دول أوروبيّة.

رفيـق دائم العطـاء وحريص الوفاء، صابر على الضّيـم وقابض على الجمر، خـدم وما زال يخدم قضايـا الجماهير اليوميّة في عمل دؤوب وصعب لنصرة قضايا شـعبنا المحليّـة والقطريّة، إنّه مثالٌ نادرٌ للتّفانـي والتّواضع وإنكار

الذّات، ذو إيمان راســخ وثابت بأنّ هذا الطريق هو الوحيد الذي يوصلنا إلى برّ الأمان وشاطئ الاطمئنان والسّــلام، مهما عصفت الرّياح الشّديدة ومهما كانت الأنواء عاتية ومهما أنكر المتطاولون صمودنا وتضحياتنا ومثابرتنا.

يكتب الرّوائي عبد الرّحمن منيف في مقدّمته لكتاب «وجوه..لا تموت» للكاتب الشّيوعي اللبناني محمّد دكروب ص 8: «هذه الكتابة تصدُر عن معرفة حيَّة، تتجلّى بشــكلٍ أساسيّ باســتعادة المناخ والإلمام بالتّفاصيل وببعض الخفايا، ولذلــك تعتبر أقــرب إلى البورتريه بالكلمة، خاصّةً وأنّ أجــزاءً غير قليلة من الملابســات والمعلومات التي أحاطت بالأثر الفنّي ليســت مدوَّنة، وبالتّالي غير معروفة إلا في نطاق ضيِّق، ومؤقَّتًا، الأمر الذي يجعلها عرضةً للزّوال بمُجرّد غياب الشّهود».

لنقل لهم:

إِنَّنَا نُشِيدُ فِي الوَرَى الحَيَاة الحَيَاة الحَيَاة
سَوْفَ نُشْهِدُ الوَرَى بِأَنَّنَا أَقْوِيَاء أَقْوِيَاء أَقْوِيَاء
فَإِنَّمَا النِّضَالُ رُوحٌ لِلشَّبَاب

"جَزَائِرُنَا يَا بِلادَ الجُدُودِ"

الخامس من تَمُّوز عام ألفٍ وثمانمائةٍ وثلاثين هو يوم احتلال الجزائر.
الخامس من تَمُّوز عام ألفٍ وتسعِمائةٍ واثنين وستّين هو يوم استقلال الجزائر.
لقد احتلّ الجيش الفرنسي، بقيادة الجنرال بورمون، الجزائر بعد أن أحكم سيطرته على مرفأ سيدي فرج الواقع على السّاحل الغربي للعاصمة الجزائريّة، الجزائر، من ذلك العام، وتحرّرت الجزائر حين خرج آخر جندي وآخر مستوطن فرنسي، بقرار من الجنرال ديغول، من أرض الجزائر الطّاهرة بعد أن فقد سيطرته على هذا القطر وبالتّالي فقد سيطرته على مرفأ سيدي فرج بعد أن دام حكم فرنسا مائة واثنين وثلاثين عامًا وبعد أن روت دماء الشّهداء الزّاكِيَاتِ الطَّاهِرَات أرض الجزائر..
هذه الصُّدفة التّاريخيّة، هي الإشارة البديهيّة، أنّ الاحتلال، بشكل عام، مهما تمادى في غِيِّهِ وطال أمده ومهما صال وجال في بلاد غير بلاده وحكم شعبًا غير شعبه، تكون نهايته حتميّة، كما حدث للفرنسيّين، حيث يرجع إلى النّقطة التي دخل منها، يرجع إلى نقطة انطلاقه لكنّ بفوارق عِدّة أهمّها أنّه خرج خاسِرًا، خاسِئًا، مهزومًا، مطرودًا ومكروهًا بعد أن عاث في البلاد فسادًا من مصادرة أراضٍ صالحة للزِّراعة من الفلاحين أو الملاكين ليُصبِحوا أجيرين عند المستعمر وتحت رحمته في كلّ شاردة وواردة.
يكون مصير الاحتلال، دائمًا، الزّوال والجلاء إلى غير رجعة.

لقـد صـادر الفرنسـيّون أراضي الفلاحـين الجزائريّـين الصّالحـة للزّراعة و"منحوهم" كتعويض، أراضٍ غير منتجة وغير صالحة للزّراعة، وأن يعملوا في أراضيهـم، المصادرة، برواتب هزيلة وزهيدة حتى يسـيطر عليهم الخوف من البطالة ويحبط عزمهم وعزيمتهم للثّورة على المحتلّ الغاصب.
اعتمـدوا أيضًا تجهيل السّـكّان، ، فبعد احتلال الجزائـر عام ألفٍ وثمانمائةٍ وثلاثين اعتبر المحتـل الفرنسي اللغة العربية لغة أجنبيّة إنطلاقًا من خطّتهم لتكوين أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ أو شـعبٍ من الأُمّيِّين، شـعبٍ مُنحطٍّ، خارج إطار البشريّة، حيث كانوا ينعتون المواطن الجزائري بالأنديجان وهي كلمة إحتقاريّة تعني المرحلة الوُسطى في تطوّر الإنسان، أي المرحلة ما بين الحيوان والإنسان.
لقد كتب جان بول سارتر في كتابه "عَارُنَا في الجَزَائِر" (ص 21): أنّ الإدارة الفرنسـيّة قد صادرت دين العـرب لكي تُبقيهم في التّجزِئـة والتّفتّت، وهي تختـار رجال الدّين من بين عملائها وقد حافظـت على أحطّ أنواع الخرافات التي تُفرِّق النَّـاس» ويكتُب زعيم الثّورة الجزائريّة، وأوّل رئيس للجمهوريّة الجزائريّة بعد الاسـتقلال أحمد بن بِلاّ في مذكّراته أنّه كان قد تصدّى لمُعلِّمه في الصُّفـوف الابتدائيّـة الأولى حين نعت الأخيرُ النّبيَّ محمَّـدًا بالكذّاب، قائلاً وهو يرتجف من شـدَّة الغضب: «سيّدي تستطيع أن تقول هذا أمام أطفال. لأنّنا صِغار جدًّا. ولا نعرف شيئًا لكي نناقشك، ولكن يجب أن تفهم بأنّ ديننا مقدس بالنسـبة لنـا، كلا. كلا. إنّه ليس جميلاً منكـم أن تقولوا هذا الكلام» (مُذكّـرات أحمد بن بِـلاّ، كما أملاها على روبير ميرل ص 35). وعند سـماع المدرّس جواب التّلميذ بن بِلاّ قام بتهديده بالطّرد، حيث كيف يجرؤ انديجان (حقـير ومُنحـطّ) أن يتخاصم مع أوروبي وأن يذكّره بحـدود وظيفته، لقد كان وقـعُ الانتقاد على المدرّس مهانـةً، واعتُبِر تصرّف بن بِلاّ سـيِّئًا وجديرًا بالعقاب.

كذلك حاولوا فرنسة الجزائر من خلال عمليّة تغيير سُكّانيّة، ديموغرافيّة، من أجل تحويل الجزائر العربيّة إلى جزائر فرنسـيّة حيث قاموا بنقل مئات الآف المواطنين الفرنسـيّين إلى الجزائر، ربّما تجاوز عددهم المليون، ولكي يُحكِموا سـيطرتهم على البلاد، أكثـر، انتهجوا سياسـة الحديد والنّار ضدّ السّـكّان الآمنين من اعتقال ونفي وإرهاب وتخويف وحرمان ومصادرة أراضي وإفقار الشّعب وإحالته لحالة العوز والحاجة والرّكض وراء الرّغيف.

لَم يتعلّم القائد أحمد بن بِلاّ في المدرسة غير فكّ الحروف العربيّة، لكنّه أتقنها عـلى أكمل وجه حتّـى أنّه أصبح خطيبًـا بارِعًا بعصامِيَّته البـارزة وإرادته الصّلبة وقناعته وحبّه لحريّة بلاده وعروبتها.

الجزائـر هي وطن المليون ونصف المليون شـهيد ومن الخطـأ تعريفها ببلد المليون شـهيد لأنّنا بذلك نتجاهل نصـف مليون من الأبطال والبطلات الذين روت دماؤهم الزكيّة تراب الجزائر العربيّة الطّاهر لتنال حرّيّتها واستقلالها وتسترجع عروبتها ويقينها ودينها وتحرّر أسراها وتُعيد منفيّيها إلى ديارهم وتحيي ذكرى شهدائها كما يليق بالشُّهداء أن يُكرَّموا.

كان أوّل لقاءٍ لي مع الجزائر في بيت عمّي داود تركي، أبي عائدة، من خلال اسـطوانة جزائريّة تحمل الأناشـيد الوطنيَّة، كان قد أهداه إيّاها رفيق دربه المناضـل الأممي عكيفـا أور بعد أن عاد من إنجلترا، حاملاً هديَّته، حيث كان يعمل محـاضِرًا في جامعاتها، وأنا ابن الخمسـين ما زلتُ أذكر منها نشـيدًا وطنيًّـا واحدًا حفظته عن ظهر قلب، قبل أربعـين عامًا أو يزيد، كنتُ حينها في الصّـف السّـادس، ونلتُ هديّـةً ثمينةً من أبي عايدة، مـا زلتُ أحتفظ بها إلى يومنـا هـذا، لحفظي تلك القصيدة، كانت الهديَّة رواية مكسـيم غوركي، الأم. أمّـا القصيـدة التي حفظتُها هي قصيدة «جَزَائِرُنَا» من تأليف الشّـاعر الجزائري محمّد الشّـبوكي (شـبايكي) والذي كانت جُلّ قصائده عن الثّورة

والثُّوَّار وأهمّها كانت تلك القصيدة. لقد استعرتُ الاسطوانة من عمّي أبي عائدة كي نستمع لتلك الأناشيد الثّوريّة في إحدى احتفالات الشّبيبة الشّيوعيّة في حيفا لكنّها، مع انتهاء الحفلة، راحت أدراج الرّياح بعد أن استعارها أحد الرِّفاق. يبدأ النّشيد:

جَزَائِرُنَا يَا بِلادَ الجُدُودِ
نَهَضْنَا نُحَطِّمُ عَنْكِ القُيُودْ
فَفِيكِ بِرَغْمِ العِدَى سَنَسُودْ
وَنَعْصِفُ بِالظُّلْمِ وَالظَّالِمِينْ

***

سَلامًا سَلامًا جِبَالَ البِلادْ
فَأَنْتِ القِلاعُ لَنَا والعِمَادْ
وَفِيكِ عَقَدْنَا لِوَاءَ الجِهَادْ
وَمِنْكِ زَحَفْنَا عَلَى الغَاصِبِينْ

حين وصلتُ جمهوريّة تشيكوسلوفاكيا بعد أن حصلتُ على منحة دراسيّة من حزبنا الشّيوعي، التحقت بكليّة الطّب في جامعة كُمِنْسْكِي في براتيسلافا، عاصمة سلوفاكيا، وهناك التقيت برفيقي نسيم خميس حيث عرّفني على رفيق من الجزائر، اسمه ربيع كان حينها طالبًا في كليّة الاقتصاد، حيث أتقن اللغة العربيّة بعد أن أنهى دورة في اللغة العربيّة عند زميله/نا ورفيقه/نا ومعلّمه خالد الذّكر د. إدوار الياس، وقد أعطاه أيضًا دروسًا في الفلسفة الماركسيّة، وحينها علّمنا زميلنا ربيع النّشيد الوطني الجزائري من كلمات شاعر الثّورة مفدي زكريّا وألحان الموسيقار المصري محمَّد فوزي. لقد كتب شاعرنا قصيدته وأرسلها إلى رفاقه من سجون فرنسا عام ألفٍ وتسعمائة وستة وخمسين، حيث كان قابعًا هناك وقد كانت تهمته الوحيدة أنَّه كان

عُضْــوًا في جبهة التّحرير الوطني. لقد اعتُقِـل عدّة مرّات، كانت الأخيرة منها عام ألفٍ وتســعمائة وتســعةٍ وخمســين حين فرّ من ســجنه إلى مقرّ رفاقه السّرّي الذين أرســلوه إلى خارج حدود الجزائر، ليكون سفير جبهة التّحرير الوطنــي في الوطن العربــي، ليُجنِّد الرّأي العام العربي والعالمي ويحشــد ما اســتطاع من قوى سلاميّة وتحرّريّة ويساريّة لنصرة قضيّة شعبه العادلة في الحريّة والاستقلال والسّلام والاستقرار. لَم يثْنِهِ السِّجن أو الأسر أو التّعذيب، قيْد أُنملة، عن طريقه ومبدئه وحقِّه في النِّضال من أجل استقلال بلاده. كتب قصيدته من أَسْرِهِ حيث أصبحت النّشيد الوطني للجزائر:

قَسَمًا بِالنَّازِلات المَاحِقَات
وَالدِّمَاءِ الزّاكِيَاتِ الطَّاهِرَات
وَالبُنُودِ اللامِعَاتِ الخَافِقَات
في الجِبَالِ الشَّامِخَاتِ الشَّاهِقَات
نَحْنُ ثُرْنَا فَحَيَاةٌ أو مَمَات
وَعَقَدْنَا العَزْمَ أَنْ تَحْيَا الجَزَائِر
فَاشْهَدُوا... فَاشْهَدُوا... فَاشْهَدُوا...

***

يا فَرَنْسَا قَدْ مَضَى وَقْتُ العِتَاب
وَطَوَيْنَاهُ كَمَا يُطْوَى الكِتَاب
يا فَرَنْسَا إِنَّ ذَا يَوْمُ الحِسَاب
فَاسْتَعِدِّي وَخُذِي مِنَّا الجَوَاب
إِنَّ في ثَوْرَتِنَا فَصْلَ الخِطَاب
وَعَقَدْنَا العَزْمَ أَنْ تَحْيَا الجَزَائِر
فَاشْهَدُوا... فَاشْهَدُوا... فَاشْهَدُوا...

يختتم جان بول سارتر كتابه «عَارُنَا في الجَزَائِر» بالجملة التّالية (ص 61): «وإذا كنّا نودّ أن نضع حدًّا لهذه الأعمال الوحشـيّة القذرة الكئيبة، وأن ننقِذ فرنسـا من العـار وننقِذ الجزائريّين مـن الجحيم، فليس أمامنا إلا وسـيلة واحدة: أن نفتح المفاوضات ونعقد السّلام».

يقول لوسـيان بيترلن، مؤسّـس ورئيس جمعيّة التّضامـن الفرنسي العربي ومناضل ومحارب فرنسي عنيد ضدّ منظمّة الجيش السّرّي الفاشـيّة (جميع أعضائها من المستوطنين الفرنسيّين في الجزائر) التي اعتمدت العنف والقتل والتّهديـد واضطهاد العـرب في الجزائر، في كتابه «كُنَّا كُلّنَـا إِرْهَابِيِّين» (ص 236): «وعندما يسيطر الاستعمار على أمّة ويمتهن كرامة مواطنيها ويفرض عليهم وضعيّة المحكومين القاصرين، فلا بُدَّ لهؤلاء المواطنين إذا أرادوا انتزاع حقوقهم كرجال أحرار ومسـؤولين عن مصيرهم بأنفسـهم، من أن يواجهوا الدّولة المسـتعمرة. فـإذا أُغلقت أمامهم أبـواب الشّرعيّة فـلا خيار لهم غير النّضـال، في الخفاء أوّلاً، ثـمّ في العلن. لكنّ هؤلاء الرّجال الذين يناضلون من أجل كرامتهم سيكونون دومًا إرهابيّين في نظر المُستعمر».

لَـم يصل الشّـعب الفرنسي وزعيمهم الجنـرال ديغول إلى هـذه القناعة من فـراغ بل وصلها نتيجة مثابرة وثبات الجزائريّين في نضالهم من أجل تحرير أرضهـم وإيمانهم بصدق طريقهم وحفاظهـم على وحدتهم والعمل الدّؤوب على تجنيد جميع القوى الدّيمقراطية الفرنسيّة والعالميّة لتقف جنبًا إلى جنب مع الثّوّار الجزائريّين، طالبي الحريّة والاستقلال والعيش بكرامة.

لقـد انتصر الشـعب العربـي في الجزائر بقوتـه ووحدته وإرادتـه ورباطة جأشـه وتضحياتـه الجِسـام وبدعم عربي كامـل من تونس ومـصر وليبيا وسوريا ولا ننسى الدّعم الكبير من المعسكر الاشتراكي وخصوصًا من الاتّحاد السّوفييتي.

كذلــك كان للحزب الشّــيوعي الفرنسي وللشــيوعيين الجزائريــين دورٌ بارزٌ في حــرب التّحريــر مــن خلال جبهــة التّحريــر الوطني، لكنّ مــا حدث بعد استقلال الجزائر لَم يكن بنفس الرّوح التي كانت خلال حرب التّحرير حيث قامت بعض الفئات المدسوســة والمُغرِضة بالتّحريــض العلني والمخفي على الشّيوعيّين للنّيل منهم ولزعزعة ثقة الجماهير بهم وحتّى بتصفية المناضلين الشّــيوعيّين جسديًّا، تحت السِّلاح، حيث قاموا بذبح حتّى أولائك الذين تركوا أوطانهم، من فرنسيّين وغيرهم، من أجل تحرير الجزائر، بدلاً من أن تُنصب لهم أقواس النّصر.

وهنا لا يســعُني إلاّ أن استشِــهد بما جاء في رواية أحلام مســتغانمي «عَابِر سَرِير»

(ص 108) حوار بين من شارك في انطلاقة الثّورة وصنع نصرها:

- لكنّــك توافق من يقــول إنّ الثّورات يُخطّط لها الدّهــاة، وينفّذها الأبطال، ويجني ثمارها الجبناء؟

- إن كان لي أن أختصر تجربتي في هذه الثّورات التي عايشت جميع مراحلها، فبتصحيح هذه المقولة القابلة للمراجعة في كلّ عمر. اليوم بالنّسبة لي، الثّورة تخطّط لها الأقدار وينفّذها الأغبياء ويجني ثمارها السّرّاق.

وحــين هتف الثّوّار ليُنشــدوا بأعــلى حناجرهم في نشــيد «جَزَائِرُنَــا»، هتفوا نشــيدهم ليُسمِعوا الذين ﴿..يَجْعَلُونَ أَصَابِعُهُم فِي آذَانِهِم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ ..﴾ أنّ من صنع النّصر هو الشّــعب الذي بذل كلّ ما يملك لعزة وطنه ورفاهيّة أهله وبيته ووطنه ولولا الشّــعب لمــا كان نصر ولا تضحية ولا ثوّار و..

قِفُوا وَاهْتِفُوا يَا رِجَالَ الهِمَمْ
تَعِيشُ الجِبَالُ، وَيَحْيَا الشَّمَمْ

وَتَحْيَا الضَّحَايَا، وَيَحْيَا العَلَمْ
وَتَحْيَا الدِّمَاءُ، دِمَاءُ الثَّائِرِينْ

أقـدّم للشّـعب الجزائري في عيـده السّـابع والأربعين مليونًـا ونصفَ زهرة قرنفل حمراء ليَضعها على أضرحة الثّوّار الشّـهداء من سويداني وبو شائب ومصطفى إخليف ومصطفى بو العيد والشّيخ عبد الحميد ابن باديس وسي الاخـضر والعربي بـن المهيدي وعلي بـو منجل وبن صـدّوق وجميع الرّفاق «الحمر» ولكلّ شـهيد جزائري رهن روحه عِشْـقًا لوطنه ووضع روحه على كفِّـه لعزّة وطنه. كما ويطيب لي أن أهنِّـئ المجاهدين القُدامى الذين صنعوا مجدَ شـعبهم حيث قدّموا له شـبابهم وصحّتهم ليكون الوطـن حُرًّا وعزيزًا وسـعيدًا. كذلك أُقـدّم أحلى وأعطر الورود للأمّهات الصّابـرات اللواتي بَكَيْنَ «دمعتين ووردة ولَم تَنْزَوِ في ثياب الحداد».

ويـا شـعبنا في الجزائـر صونوا بلادكـم وشـعبكم وحافظوا عـلى مقدّراته ومقدّسـاته وحافظوا على بعضكـم، وكلّ عام و»جَزَائِرُنَـا» بمليون ونصف مليون خير.

وداعًا يا صقر فلسطين

حملناك اليومَ لِنُودِعَك أمانة في رحم جبل الكرمل الأشمّ.
أتيناك اليومَ لِنُوَدِّعك وداعًا أخيرًا بعد أن قرأت لنا خطبتك الأخيرة منذ زمن، حين خاطبت السّجّان الصّهيوني في عقر داره:

ألا يا آسري إنّي فخورٌ بشعب العُربِ إكليلٌ وصيلُ

حملنــاك وديعة نُخبِئها في بطن هذه الأرض علّ جذورُك تنبتُ ســنابلَ الأملِ التي طالما زرعتها فينا ورعيْتها ورويْتها وصنتها برمش العين، علّها تُحرّرنا من كابوس السّنوات العجاف بعد أن طال أمده ليزيد عن السّنوات السّبع..
حملك رفاقك يا صقر فلسطين إلى بساتين الياسمين التي عشقتها وحملت لنا صورها في جعبتك من هناك، من الفيحاء، وبجناحيك كتبتَ لنا رســالة تقول أنّ الياسمين في دمشق هو الأجمل، هو الأعطر وهو الأنصع بياضًا.
آه ما أحلى الياسمين الدّمشقيّ..
ألم تُغنّ لدمشق وتتغنَّ بدمشق، يا أبا عايدة، شوقًا والتياحًا.
هــل أُلقي لك البيت كاملاً أم تُريدني أن أُلقي لك الصّدرَ لتأتيني بالعَجُزِ كما كنّا نلعب دائمًا:

إيهٍ دمشق يقُضُّني ومحبّتي بُعْدٌ يُعذِّب خاطري ويُمزِّقُ

ها هم إخوانُك ورفاقُك الذين لم تلدْهم أمّك يحيطونك في لحظة، ما أصعبها، في فترة ما أحرجها، في زمنٍ رديءٍ، علّك تقوم الآن من بين الرّماد أو حتى بعد ثلاثة أيّام لتُحلِّق عاليًا فوق رؤوس الجبال الشّــاهقات الشّــامخات في سماء

فلســطين لتأتينا بغُصن زيتون أخضر وأمل "ثائر من الشّرق العربيّ" يحلم بوطن آخر، يحلم بوطن حرٍّ لشــعبٍ طلبت نفســه السّــعادة والطّمأنينة منذ عقود.

هنا في هذا المكان ستكون راحتك التي لم تردها أولم تخترها أو ربّما اخترتها مُكرهًا، لأننا نعرفك ونعرف ما ردّدته دائمًا من شعر مَرْجِعِيَّتِك، المتنبّي:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُوم فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجوم
فطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ حَقِيرٍ كطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عظيمِ

لذلــك اخترْتَ ما قاله أبُ الثّورة العربيّة الكُبرى، ســلطان باشــا الأطرش، في وصيَّته:

إنّ الإيمانَ أقوى من كلّ سلاح. وإنّ كأس الحنظل بالعزّ أشهى من ماء الحياة بالذّلّ.

كم مرّة صارعْت الموت وصرعته، كم مرّة تعاركت مع هذا الحقّ وأركعته، كم مرّة حاربتَ الحتف وحذفته من قاموســك، إلى أن أتت ساعةٌ لا بُدّ منها ومُتَّ شــامخًا منتصِبًا عنيدًا لا تعرف الهوانَ ولا الهــوانُ يعرفك وما مللت الكفاح يومًا كقول شاعرنا المتنبّي:

وإذا لم يكُن من الموت بدٌّ فمن العجْزِ أن تكونَ جبانا

فــإلى جنّة الأبطال يــا أب الأبطال وإلى جنّــة كرام النّفوس يــا كريم النّفس، وإلى جنة الشّــهداء يا عزيز الشّهداء، فالشّهداء أكرم من في الأرض وأنبل بني البشر.

*ألقيت في تأبين المناضل داود تركي (أبو عايدة) بعد دفنه وذلك يوم الأربعاء الموافق 11.3.2009.

داود تركي..

صقر فلسطين

إِشْتَقْتِلَّك

أربعون ليلةً دامسةً مرّت بدونك ويا حسرتي.
أربعون دَيجورًا مرّ علينا وأبو عايدة غائب عنّا ويا لوعتي.
فكمـا تعلّمنـا في الصّفـوف الأولى أنّ القمر يغيب عن فضائنـا ليلة واحدة في الشّـهر القمريّ، ويكون في حالة مُحاق، لكنّ مُحاقَنا هنا أربعون ليلة، فحتّى في غيابك تكون فوق المألوف والعادة والتّقليد، لأنّك مُتَميِّز.
متميِّـزْ حتّـى في يوم غيابك الـذي صادف الثّامن من آذار يـوم المرأة العالمي وذكرى المؤتمر السّوري العام الذي اختار الملك فيصل الأوّل ملكًا على سوريا ومتميِّز في الأربعين لصعودك الذي يتزامن مع ذكرى جلاء المستعمر الفرنسي عن الوطن سـوريا ويوم الأسـير الفلسـطيني وقيامة السّـيّد المسيح من بين الأمـوات، فنحن هنا أخوة في الدّم والمصير لا يُفرّقنا دينٌ ولا يُباعدُنا حدٌّ، فقد وقف الثّائر السّوري فارس الخوري وقفته الشّجاعة في الجامع الأمويّ مُعلنًا على الملأ أمام أهالي دمشـق قائلاً: أنه إذا كانت فرنسـا تريد البقاء في سوريا لحماية المسـيحيين فإن جميع المسيحيّين هم مسـلمون وجميع المسلمين هم مسـيحيّون... وأن سـوريا بمسـلميها ومسـيحييها هي وطن واحد لشـعب واحد، إعتقادًا منهم أنّ مكان العرب المسيحيّين مع فرنسا وليس مع الحركة الوطنيّة السّوريّة وفي هذا السّياق يقول شهيدنا داود تركي:

فِي عُرْفِنَا الإِنْسَانُ قِيمَتُهُ
أَغْلَى مِنَ اليَاقُوتِ وَالذَّهَبِ

وَيَهُودُ هَذَا الشَّرْقِ إِخْوَتُنَا
عَرَبٌ كَكُلِّ القَوْمِ فِي الحَسَبِ
لا فَرْقَ فِي دِينٍ، يُوَحِّدُنَا
وَطَنٌ شَرِيفُ القَوْمِ وَالنَّسَبِ

أربعون غرابًا ينعق في سمائنا بعد أن غاب عنّا صقر البلاد أربعين غروبًا. أربعون يومًا لم نرَ فيها سوى الحنين والأنين واللهفة والشّوق المرهَف والمرهِف للقائك. لم نعتد ولم تُعوِّدنا على غيابك ولم نتعوّد على هذا الفراق الطّويل منذ تحريرك، إِشْتَقْتِلَّك.

أين أنت الآن؟ أسألُكَ سؤالاً أعرف جوابه بسؤالٍ افتراضيّ، هل تجاورك النُّجوم والكواكب والقمران وأنت في قُبّةِ فلسطين، في قُبّةِ هذا الجزء الجريح النّازف من وطننا العربي؟ هل رأيْتَ وأنتَ في راحتك الخالدة والأبديّة أحد عشر كوكبًا والشّمس والقمر يسجدان لهذا الغياب الأليم والقسري، هل أرسلت لنا تحيّاتك عبر الشّهب التي حين أراها نازلة من قلب السّماء أطلب عودتك السّريعة إلينا، هل أُصدِّق ما قيل لي عندما كنت صغيرًا أنّ الأماني تتحقّق إذا ما تزامنت، حصرًا، مع سقوط الشُّهب، أم أنّها خرافة لا يعرفُ أحدٌ مدى صدقها، فكم شهابٍ رأيتُ وكم مرةٍ تمنّيتُ مع رؤيتي وكم مرّةٍ خُذِلْتُ وخذلني رجائي وسؤالي، وكم أخلفت الشُّهُبُ وعدَها، إِشْتَقْتِلَّك.

هل أنت حاضرٌ في راحتك الأزليّة؟ خالدٌ في جنّتك الحتميّة؟ أم أنّك تجمع قواك لتستولي على الشُّهُبِ بعد أن رأيت في حاضرنا ظلمة حالكة لتُضيء لنا لياليَنا الظّلماء لنهتدي إلى الطّريق الّتي لولاك ما كُنّا لنهتَدي إليها وما كُنّا أقوياء ونجد طريقنا القويم لننبذ درب الضّلال، إِشْتَقْتِلَّك.

تُرى هل ستقتُلُ الذّئبَ يا أسد الأسود في صحرائنا القاحلة أم ستُخرج يوسف من الجِبِّ كما جاء في رواية إخوته وهل ستكشف جريمة أخوةِ يوسفَ وكذبهم

ونفاقهم أم أنّ غيابك سيُبقينا تائهين في الصّحراء لا نعرف مكان وجود أخينا، يوسـفَ، وهل سـتطاردُ غربانَ نوح بعد انتهاء الطّوفان يا صقر فلسـطين لتحمـي الحمام في وطن الزّيتون الأخضر؟ فيطـير الحمام في الفضاء ويحُطّ الحمام على الأغصان والتِّلال والرّوابي، كما يشاء حرًّا طليقًا في الفضاء، فإن كان عـلى هذه الأرض ما يسـتحقّ الحيـاة كما قال محمـود درويش فإن أبا عايدة يقول في كتابه «ثائر من الشرق العربي»: يأتي الإنسـان إلى هذه الدّنيا وفي يمينـه الحقُّ في العيش العزيز والحياة الحُرّة الكريمة، سـواء وَضُعَ أهلُه أو شُرِّفوا. ومن لا يُدافع عن هذا الحقِّ إذا تعرّضَ لاعتداء المعتدين الغاشـمين لا يستحقّ الحياة وعيشها.

فالحياة تسـتحقّ منّـا أن نُدافع عنها ونصون ترابها ونحميها من الشّـوائب والنوائب، فهذا هو حقّ الحياة منّا وعلينا، إِشْتَقْتِلَّك.

فكما جاء في قصيدتك يا أبا عايدة أنا يعرُبيُّ النّفس:

وَدِمَشْقُ عَاصِمَةُ النُّهَى أَبَدًا
وَلَهَا وَفَائِي سَيِّدُ الدَّأَب
وَطَنِي فِلَسْطِينُ وَرَمْلَتُهَا
هِيَ أَوَّلُ الشَّامَاتِ فِي الشَّلَب
مَاضٍ، أَحُثُّ السَّيْرَ مِنْ صِغَرِي
لِفِدَى ثَرَاهَا الغَضِّ وَالرَّطِب
إِشْتَقْتِلَّك.

عندما يُقال أنّه وراء كلِّ رجل عظيم امرأة، أقولُ كُنّ وراءك، يا سيّدَ الرّجال، أربع فارسـات قدّيسـات، هنّ أم عايدة وعايدة وجورجيت ونضال، كنّ معك كأصابـع اليد في قبضة السّـيف واحدة وفي الحفاظ عـلى الجمرة واحدة وفي بناء عزّة العرين واحدة، حيث قدّمن الغالي قبل الرّخيص لتبقى عزيزًا شهمًا

صامـدًا مرفوعَ الرّأس والهامة، عالي الجبـين والقامة ثابت اليقين، أنّ الظّلم زائـل والاحتـلال في زوال، فكنّ مثلاً ومثالاً في التّضحيـة والإيثاريّة والتّفاني والمحبّة والإخلاص والخدمة، إشْتَقْنَالَك.

وسـتبقى يا أبا عايـدة مفخرتنا وفخرنـا وصخرتنا وذخرنـا وعزتنا وعزّنا وذكراك سـتبقى النّاقـوس في عالم النّسـيان لمن يتناسى أو يهوى النّسـيان ونذكّر لأنّ الذّكرى تنفع المناضلين الأحياء والشّـهداء. فأنت القائل في الشّهيد أحمد شكري منّاع في استبساله على أسوار عكّا ضدّ المُحتلّين يوم احتلالها:

مَا مَاتَ مَنْ خَلَدَتْ مَآثِرُهُ
بَلْ مَاتَ منْ سَفِلَتْ بِهِ الشِّيَمُ
سَيَظَلُّ لِلأَحْرَارِ مَفْخَرَةً
وَمَنَارَةً في الفِكْرِ تَنْتَظِمُ
فالمَجْدُ لِلشُّهَدَاءِ يَهْتِفُهَا
رَجُلٌ بِدُنْيَا الظُّلْمِ يَصْطَدِمُ

لأنّ الشّهداء أكرم من في الدُّنيا وأنبل بني البشر.

فأنـتَ رجلُ الرّجالِ وبطلُ الأبطـالِ وماجد الأمجاد وحرّ الأحرار ونور المنارة وصدر الصّدارة، إشْتَقْتَلَّك.

وفي النهاية اسـمحوا لي أن اشكر باسـم عائلة فقيدنا المناضل كلّ من واسانا في مصابنا الجلل من حضور الجنازة أو المشـاركة في التّعازي مباشرة أو عبر الصّحف أو البريد الالكتروني أو إرسال أكاليل ورد أو برقيّات.

شـكرٌ خاصٌّ لصاحب قاعة «السّـندباد» السَّـيِّد إبراهيم خطيب (أبو ثائر) والفنّان وائل واكيم الذي صمّم كتاب التّأبين ولفرقة «العودة» على مشاركتها في إنجـاح هـذا المهرجان ولشركة العربـي بإدارة الرّفيق عايـد مجادلة (أبو الأمير) للدّعاية والتّسويق لرعايتها جميع إعلانات هذا الحدث الجلل ولجميع

الرّفــاق الأسرى المحرّريــن الذين ســاهموا في إنجاح هذا العمــل الجماهيري الواسع.

الحريّة لسجناء الحريّة.

والمجد والخلود لشهداء امّتنا الأبرار.

في عيد ميلادك..

ما بين الثّامن من آذار والثّامن من تشرين الأوّل ثمانية أشهرٍ من أشهر السّنة الميلاديّة، وما بين تاريخ ميلاد الإنسان وتاريخ وفاته أيّام أو شهور أو سنون من ناحية عدديّة لاستغراق هذه الفترة أو تلك وإذا كانت وحدة قياس الزّمن لحياة الإنسان مرتبطة بعطاء الفرد وتضحيته ووفائه فتكون فترة حياته إمّا حافلة بالمنجزات والتّضحيات الجسام حيث تذكره الأجيال جيلاً وراء جيل، خالدًا في فكرهم وفي وعيهم وحتّى تُحكى عنه الأساطير والحكايات ويتناقلها النّاس فيما بينهم، وإمّا تكون حياته شحيحة العطاء وقصيرة الباع لا يذكره أحد ولا يحمل في طيّ آخرته شيئًا وإن كانت سنوات حياته كثيرة..

فالميلاد يُحضِر الجسد إلى الحياة بعد أن ينفخ فيه الرّوح ويخرج من رحم الأمّ الصُّغرى هديّة ثمينة مباركة للأرض حيث يكون ﴿الإنسان في أحسن تكوين﴾، بينما يُغيِّبُ الموتُ الجسدَ عن وجه الأرض ويُدفنَ في رحمها، رحم الأم الكُبرى، وإن بغضت الأمّ رؤية وليدها ميِّتًا مع أنّه حقٌّ يُدرك كلّ حيّ ولو كان في برج مُشيَّد، فهو المكروه الذي نحمد الله عليه..

وعندما تكون أعمال ذلك الإنسان بطولةً وفداءً وكبرياءً ووفاءً وحبًّا يبقى خالدًا وحيًّا في ذكرى مؤبّدة، حتّى لو دُفن الجسم في باطن الأرض وأحكموا الأقفال عليه بالحجارة والتّراب لسدّ الماء والهواء عنه وزيَّنوه بأكاليل الورود ذات الألوان الزّاهية.

يقول الشّاعر والمناضل داود تركي، أبو عائدة، والذي نحتفل بعيد ميلاده

الثّاني والثّمانين في الثّامن من تشرين الأوّل، قصيدته «يا أخت أحمد»:

مَا مَاتَ مَنْ خَلَدَتْ مَآثِرُهُ
بَلْ مَاتَ منْ سَفِلَتْ بِهِ الشِّيَمُ
سَيَظَلُّ لِلأَحْرَارِ مَفْخَرَةً
وَمَنَارَةً فِي الفِكْرِ تَنْتَظِمُ
فالمَجْدُ لِلشُّهَدَاءِ يَهْتِفُهَا
رَجُلٌ بِدُنْيَا الظُّلْمِ يَصْطَدِمُ

تبشَّر شرقنا العربي وجبال جليله في الثّامن من شــهر تشرين الأوّل من العام ألفٍ وتسعمائةٍ وسبعةٍ وعشرين، بميلاد داود سمعان تركي داود، أبي عائدة، دون أن يظهر الملاك لوالدته في ليلة البدر، ودون أن تظهر نجمة الصّبح فوق قرية المغار الواقعة على ســفح جبل حزّور المشرف على ســهل حطّين وبحيرة طبريا وجبال الجولان السّوريّة.

وُلِدَ مُحبًّا للحياة التي بادلته الحبَّ على أحسن وجه بل ودافعت عنه وبسخاءٍ مــرّات عدّة حين منعت الإلــه آغنور (أحبُّ الأرباب إلى الَّــشِّر) من أخذه حال ولادتــه بعــد أن انقطع حبــل الصّرّة مــن موضعــه، وحين أصابتــه الحُمّى الفتّاكة وشُــفِيَ منها، ومرّة حين دهســته ســيّارة مهندس يعمل مسؤولاً في دائرة الأعمال العامّة عندما كان عائدًا من المدرســة وســيّارة أخرى دهســته في قبرص عندما ســافر إليها لملاقاة ابنته عائــدة وأولادها القاطنين في فيحاء الشّام، دمشق، بعد أن خرج من السّجن حيث لم يرها منذ أن دخله، وحادثة أخرى حين نزل القطار عن ســكّته عندما كان مســافرًا مع والدته إلى الحِمَّى في منطقة طبريّا للاســتجمام وأخرى في عام النّكبة عندما قام بحراسة الحيّ في المنطقة الواقعة بين شــارع ياقوت ومار يوحنّا، حيث كان يحمل مسدَّسًــا ألمانيًّا من نوع بارَابِلّو، كان قد اشتراه بأربعين ليرة فلسطينيّة، أي ما يُقارب

معاشه الشّهريّ ويزيد ليحرسها ويمنع دخول المحتلّين للحيّ، فأتاه مقاتلان لبنانيّان متطوّعان من مدينة بعلبك، نايف كحيل وابن عمّه محمّد كحيل، ليُبدّلاه، فعندما أخلى موقعه لهما، وإذْ برصاص من جنود الجيش البريطاني يأتيهما من الخلفِ من بارودة جُنديٍّ إنجليزيٍّ كان قد ترجّل من مُصَفّحتِهِ لقتلهما غَدْرًا فسقطا شهيدين من أجل حيفا، سقطا في شارع مار يوحنّا رقم 15، وكذلك لا ننسى انتصاره على الموت حين بُترت ساقاه بعد أن خرج منها منتصب القامة مرفوع الهامة وذلك بسبب معاناته وتعذيبه وحرمانه من أبسط الأمور الحياتيّة والعلاجيّة..

ومسك ختام انتصار الحياة على ربِّ الأشرار، في حياة أبي عائدة، خروجه من السّجن منتصرًا، فحين خرج من السّجن قال: «ليس المهم أن تُسجن من أجل قضيّة عادلة بل الأهمّ أن تخرج منه شريفًا، عزيزًا، نظيفًا، مستقيمًا وبنفس الرّوح التي دخلته فيها محافظًا على ما سعيتَ من أجله وفي حالتي أخوّة الشّعوب والعدالة الاجتماعيّة وحريّة شعوب الأرض في العيش المستقل والحرّ والسّعيد» وما بدّل أبو عائدة تبديلا..

وُلد أبو عائدة في قرية المغار، لعائلة عاشت على فلاحة الأرض وزراعتها لضمان رزقها ولتأمين رغيف الخبز لأبنائها. لكنّ شظف العيش ومرور عدّة سنوات متتاليات من القحط والمحل وقلّة الموارد أجبرت والده، أبو داود، على النّزوح والهجرة إلى مدينة حيفا ليعمل في قسم الصّيانة والحفريّات بحثًا عن رزقه وعن الرّغيف والعيش بكرامة وعزّة نفس حيث لحقت به العائلة لاحقًا في العام ألفٍ وتسعمائةٍ وإثنين وثلاثين.

بدأ أبو عايدة دراسته الابتدائيّة في الكُلِّيَّة الأسقفيّة الكاثوليكيّة حيث كانت تقع في كنيسة السّيّدة في حارة الكنائس، بيت النّعمة الآن، وانتقلت المدرسة بعدها إلى المنطقة الواقعة بين شارع مار يوحنّا المقدّس، نزلة الكلداوي وبين

طريق أللنبي وكان معه في الصّفّ طلاب من المسلمين والمسيحيّين واليهود وجميعهم يتكلّمون العربيّة وينتمون إلى قوميّة واحدة، العربيّة..عاشوا في انسجام تامّ.

أصيب والده في العام ألفٍ وتسعِمائة وثمانية وثلاثين برصاصة في فخذه، بعد عملية تفجير قامت بها عصابات الهجناة، الأمر الذي أعاقه تمامًا بعد أن لازم فراش المرض حتّى تماثل للعلاجِ بعد ثلاثة أشهرٍ ممّا اضطرّ الشّاب داود تركي ترك المدرسة إلى العمل، خصوصًا بعد أن توفّى والده، أبو داود، بعد هذه الحادثة الأليمة بسنتين ودُفِن في حيفا.

أحبَّ والده البلشفيك وحين سأله عنهم قال له: إنّهم يعملون ويناضلون من أجل خير العمّال والفلاحين والكادحين..

كذلك أحبّ والده الرّجال الذين يحاربون ويناضلون من أجل حقوقهم ولا يخضعون أو يُذلّون، فمن شابه أباه ما ظلم وهكذا ترعرع أبو عائدة على حبّ الوطن وحبِّ الشّعب والأرض والإنسان وحبّ البلاشفة حيث انضمّ بعدها إلى عصبة التّحرّر الوطني.

لقد حمل أبو عائدة همّ العائلة على كتفيه منذ صغره فكان الأب الرّؤوم والأخ الحنون والسّخيّ المعطاء حيث سعى بكلّ طاقاته من أجل رفاه عائلته.

وفي عام النّكبة قرّر الرّفيق داود (أبو عايدة) البقاء ورفاقه للدّفاع عن حيفا، على أن يرسل والدته وأخويْه الصّغيرين، خارج المدينة، ربّما ليجدوا قسطًا من الرّاحة والأمان. لكنّ والدته أصرّت على البقاء مع فلذة كبدها مُفَضِّلةً إلقاء نفسها في البحر على تركه لوحده، في حيفا. فوجدوا ملجأهم كباقي سكّان المدينة في كنائس وأديرة ومساجد وجوامع حيفا.

كان أبو عائدة يعملُ في قسم الجمارك في الميناء في ورديّة ليليّة حتّى الثّامنة صباحًا لينتقل بعدها للعمل في مكتب الجمارك الرئيسي الواقع في ساحة بالمار

باب رقم خمسة، حيث كان يعمل بوظيفة كاملة ودائمة. لقد كانت حيفا مركز جمارك فلسطين، ومنفذها الوحيد للبحر، ميناء حيفا وهو ثاني أهم ميناء في شرق البحر الأبيض بعد الإسكندرية، ومركزها البرّيّ من خلال سكّة الحديد الحجازيّة، وفيها مركز لشركات كُبرى مثل «آي بي سي»، وشركة «الشيل» وشركة «ستيل» ومصفاة البترول وشركات البواخر، وهذه المراكز فتحت وفسحت المجال لسكان حيفا العرب واليهود للعمل سويّة إذ ارتبطت أواصر الصّداقة والمودّة بين جميع السّكان في حيفا، من عرب ويهود. لقد كانت حيفا وما زالت مدينة ذات خصوصيّات مميَّزة بتعايُشِها فلم يسُدها التطرّف ولا التّوتّرات إلى أن وضعت الحركة الصّهيونيّة والإنكليز كامل ثِقلهم فيها لإحداث سياسة التّفرقة لتنفيذ مآربهم. فقد كان سُكّانها يتعاونون ويتعاملون مع بعضهم البعض يوميًّا في أماكن عمل واحدة وتحت سقف واحد، في المصانع والموانئ والمكاتب والمدارس والمتاجر والدّوائر الرّسميّة، الحكوميّة والبلديّة والقضائيّة.

لقد رأى أبو عايدة الحقيقة واضِحة كقرص الشّمس في قُبّة السّماء، فحين طُلِب منه التّوقيع والموافقة على قرار التّقسيم رفض. لأنّه وجد بالتّوقيع نقضًا لمواقفه.. ووجد نفسه لاحِقًا مطرودًا ومفصولاً من العمل ممّا زاد من عزمه وإيمانه بصدق طريقه وحتميّة انتصاره.

وحين سقطت حيفا رأى أبو عايدة تهجير سكّان حيفا العرب عن طريق الميناء بآلافهم ورأى كيف يُسهّل لهم رجال الأمن البريطاني المرور عبر نقطة الحدود البحريّة، فاتحين أبواب الميناء للنّازحين العرب من جهة محطّة الكرمل وشرق حيفا وجنوب المدينة حيث وجدوا بساحات الميناء ملجأً وبالانتظار للبواخر البريطانيّة مهربًا، فهذه البواخر انتظمت بإيعاز من السّلطة الإنكليزيّة وتحت حراستها ورقابتها لنقْلِ النّازحين الفلسطينيّين

بحرًا إلى مدينة عكّا، أو برًّا بسيّارات انكليزيّة أو صهيونيّة إلى الحدود اللبنانيّة وبدون مُقابل، المهم النّزوح عن حيفا وتطهيرها من العِرْق العربي، ومنها إلى مخيّمات اللاجئين خارج إطار الوطن.

افتتح أوّل مكتبة لبيع الكتب الوطنيّة والثّوريّة التّثقيفيّة والمدرسيّة والقرطاسيّة في حيفا ومنطقتها عام ألفٍ وتسعمائةٍ وواحد وستّين، في زاوية شارعيْ صهيون والخوري وقد كانت مكتبته محجًّا ومزارًا للمثقّفين العطاش لقراءة هذه الكتب ولَم تكن المكتبة مجرّد مكتبة لبيع الكتب فقط بل كانت منتدى يجتمع فيه المثقّفون الثّوريّون ويتناقشون ويتحاورون في مستجدّات الوضع وتاريخ الصّراع العربي الصّهيوني، زد على ذلك أنّه كانت تدور في المكتبة نقاشات جوهريّة في علم الفلسفة العامّة والماركسيّة تحديدًا، ولا غرابة في أنّ اسم المكتبة كان، مكتبة النّور، حتّى يرى النّاس النّور من خلال المطالعة، فشعب مطالع ومثقّف وقارئ هو شعب منتصر حتمًا. وأذكر أنّ أبا عائدة قد كافأني مرّةً، وقد تكرّرت مكافآته لي، كتاب «الأم» للكاتب الرّوسي مكسيم غوركي، وحين أرى هذا الكتاب أذكر أبا عائدة حالاً، فهذا الكتاب كان أوّل هديّة أتلقّاها منه، تُرى متى تصبح هدايانا التّقديريّة كتبًا!

حين استشهد النّاصر صلاح الدّين الأيّوبي كتب في وصيّته أن يُدفن في القبر مع سيفهِ الذي جاهد به ليكون خير شاهد وشفيع أمام ربّه يوم تقوم السّاعة وتأتي الآخرة ويُحاسب..

وعندما غاب عنّا أبو عائدة في الثّامن من آذار من هذا العام إلى جوار سيّده صلاح الدّين، وُضِع في جعبته كتابان، الأوّل سيرته الذّاتيّة «ثائر من الشّرق العربيّ» والثّاني ديوان «ريح الجهاد» ليكونا مستندًا ووثيقة يُطلع القائد صلاح الدّين عليها إذا اقتضت الحاجة، ربّما نسي أحفاده أو غفل عنهم، فالنّاس مهما بلغوا في غيّهم وكمالهم غير معصومين عن الخطأ أو النِّسيان أو

التّناسي، فهذان الكتابان هما التّحصيل المكتوب لحياته والشّاهد الأمين لعمل ونضال وتضحية وجهـاد هذا المناضل والمكافح والكادح، أبي عائدة، لعلّهما يفتحان بعض العيون العمياء وبعض الآذان الصّمّاء.

أذكركَ في الثّامن من تشرين الأوّل في كلّ سنة..

أذكركَ حين أرى كتاب «الأم» وفي كلّ كتاب جديد أقرأه..

أذكركَ كلّما صدح صوت فيروز العذب خصوصًا حين تغنّي للشـام وبيروت وفلسطين..

أذكركَ حين تُغنّي فيروز «سائليني يا شآم»:

سَائِلِينِي حِينَ عَطَّرْتُ السَّلام
كَيْفَ غَارَ الوَرْدُ وَاعْتَلَّ الخُزَام
وَأَنَا لَوْ رُحْتُ اسْتَرْضِي الشَّذَا
لانْثَنَى لُبْنَانُ عِطْرًا يَا شَآم!

أذكركَ في نشيديْ «الأمميّة» و«يا شعوب الشّرق» و«موطني»..

أذكركَ كلّ يوم ثلاثاء وسـبت حين كنّا نتسامر على صوت الشّعب من بيروت صوت الحزب الشّيوعي اللبناني..

أذكركَ في غربتي لأنّ «فقد الأحبّة غربة»..

أذكركَ كلّما قالوا على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة فإنّك كنتَ تقول دائمًا: «يأتي الإنسان إلى هذه الدّنيا وفي يمينه الحقُّ في العيش العزيز والحياة الحُرّة الكريمة،

سواء وَضُعَ أهلُه أو شُرِّفوا، ومن لا يُدافع عن هذا الحقِّ إذا تعرّضَ لاعتداء المعتدين الغاشمين لا يستحقّ الحياة وعيشها.

أذكـركَ في بيـتِ الشّـعر: شَـبَابٌ قُنَّـعٌ لا خَـيْرَ فِيهِـم وَبُـورِكَ في الشَّـبَابِ الطَّامِحِينَ..

أذكـركَ في معنويّاتك التي كانت تمدّنـا بالأمل في تحريرك حين كنّا نزورك في السّجن..

وتذكـركَ ابنتي رُبـى بكلماتك حين قلتَ لها: لكلّ مشـكلة حـلّ، ولكلّ ظلم نهاية ولكلّ احتلال جلاء ربّما يكون بعيدًا لكنّ النّصر آتٍ لا محالة وسنصل الهدف..

في الثّامن من تشرين الأوّل سـنضيء شموع عيد ميلادك وننشد لكَ ما أحببتَ من الأناشيد وما طربت مسامعك من الأغاني الفيروزيّة الشّادية..

ونذكركَ دومًا أيّها الباقي بيننا..

ونهديك قصيدة الشّاعر والمناضل توفيق زيّاد:

يا جَذْرَ جَذْرِي!! إِنِّي سَأَعُودُ حَتْمًا
فَانْتَظِرْنِي، إِنْتَظِرْنِي في شُقُوقِ الصَّخْرِ
وَالأَشْوَاكِ، في نُوَّارَةِ الزَّيْتُونِ
في لَوْنِ الفَرَاشِ، في الصَّدَى وَالظِّلِّ
في طِينِ الشِّتَاءِ وَفي غُبَارِ الصَّيْفِ
في خَطْوِ الغَزَالِ، وَفي قَوَادِمِ كُلِّ طَائِرٍ..
شَوْقُ العَوَاصِفِ في خُطَايَ ،
وَفي شَرَاييني ..
نِدَاءُ الأَرْضِ .. قَاهِرِ
أَنَا رَاجِعٌ فَاحْفَظْنَ لي
صَوْتي .. وَرَائِحَتي .. وَشَكْلِي
يَا أَزَاهِرِ

ويخرجُ رجلٌ صالِحٌ من قانا الجليل

كان ذلك قبل تسعين عامًا حين خرج من قانا الجليل ذلك الرّجل الصّالح.
السّادس عشر من شهر كانون الأول من السّنة القادمة ستكون الذّكرى التّسعين لميلاد فؤاد الجابر في قانا الجليل، قانا مُعجزة الخمر، تلك المُعجزة الّتي حوّل فيها السّيّد المسيح عليه السّلام الماء إلى خمر ذي جودةٍ عالية، وبعدها أسقى جميع المدعُوِّين للعرس، فؤاد الجابر بميلاده وبمُعجِزته غيّر معادلة صعبة راهنت عليها الصّهيونيّة وعملاؤها من العرب في بلادنا، إذ أنار بفكره طريق مئات الآلاف من جماهير شعبنا، بعد أن أسقاهم خمر العدالة الاجتماعيّة، فتبعوه. فكان ورفاقه ملح الأرض ونور العالم. إذ وقف لهم على الحدّ وبالمرصاد وفي الزّاوية ليكون حجرها لبناء هذا الصّرح الجماهيري من عمّال وفلاحين ومثقّفين ثوريّين وطلبة وأُجَراء وأكاديميين وصغار الموظّفين وفئات شعبيّة كادحة أخرى.
السّادس من شهر آذار من السّنة القادمة سيتذكّر رفاق النّاصرة والجليل وجميع رفاق الحزب في الوطن مرور أربعين حَوْلاً على عملية خطف أبديّة، إذ خطفت يد المنون طيّب الذّكر الرّفيق فؤاد جابر خوري، وهو في عزّ عطائه وربيع شبابه، اختطفته وهو في أعلى مراحل نضوجه السّياسيّ الغنيّ بالتّجارب وبالرّصيد النِّضالي. وكأنّ يد المنون كانت قد تواطأت مع قوى الشّرّ من الرّجعيّة العربيّة والصّهيونيّة في بلادنا.
ثلاثة وعشرون عامًا عاشها شيوعِيًّا متفانيًا، مُضَحِّيًا ومُناضلاً، مطرودًا من

سـلك التّعليم لفكرٍ مُنيرٍ حمله، فقد أبّنه رفيقه في الحزب الشّـيوعي، منطقة نابلس، الاسـتاذ رشدي شاهين، زميله في الدّراسة في الكُليّة العربيّة المقْدِسيّة قبـل الاحتلال، والّـذي منعته قوّات الاحتلال الاسرائيـلي من حضور الجنازة في النّـاصرة، وقُرِأت نيابةً عنه:»إنّ الحيـاة دون نضالٍ لا قيمة لها ولا طعم، وغاية الغايات للمناضل أن يموت مُناضِلاً، وقد وصل فؤاد خوري إلى هذه الغاية، فهنيئًا له».

كان مُناضـلاً، ومُعلِّمًا ومَعْلَمًا في النِّضال، طالِبًا أنهى علومه العالية في الكُليّة العربية في القُدس، يذكرُ رفاقُه وقفتَهُ، في شـهر شـباط من سـنة الاختطاف في اجتماع لنشـيطي الشّبيبة الشّـيوعيّة في مِنْطقة النّاصرة هاتِفًا:»أنتم أملُ الحـزب، أنتم مسـتقبلُهُ، أوصيكم بالدِّراسـة وتحصيل العلـم والمعرفة، ولا تنسَـوا ربطَ العلم بالعملِ، على الشّبيبةِ تقعُ مسؤوليّة كُبْرى في إنجاح معارك الحزب والشّعب بأسرِهِ لتغيير هذه الأوضاع.

أربعون حولاً وذكرى أبي جابر في ضمير ووجدان كلّ رفيق عاش وعايش فترته أو عاش بعده وسـمع عنه من رفاقه أو من عائلته أو حتى من عامّة النّاس. لن ينساه التّاريخ المجيد الّذي صنعه ولن تنساه جغرافية الوطن، فتضاريس الوطـن ومعالمه ما زالت تحفظه عن ظهر قلب وتذكر له جميله في وقفته وفي خطواتـه وخطاه عليها منتصِبًا ومرفوع الهامـة في النّاصرة والجليل، وأمام حاكمها العسـكري وأمـام جنده وفي المنفى، وفي مظاهرات الشّـيوعيّين الّتي كانت تجوب شـوارع النّاصرة، حين كان الشّيوعيّون وأصدقاؤهم الوحيدون في ساحة النّضال والصّمود والتّصدِّي والبقاء عزيزِين في أرض الوطن. كانوا المُناضلـين الوحيدين ضِدَّ سياسـة الاضطهاد القومي ولصَدِّ هجمات سـلب «قانونيّـة»، من مصادرة أراضي إلى إلغـاء ملكِيّتها إلى قانون الحاضر غائب، مـن أجل إلغاء الحُكم العسـكري وتأمين الحقوق للعرب في المُسـاواة التّامّة

للعيْشِ في وطنهم الّذي لا وطن لهم سواه بكرامة وشهامة وعِزّة نفس ووفاء ونبل، فقد وُلِدَ هذا الشّــعار قبل ادِّعاء شــعار دولة جميع مواطنيها بعشرات السّــنين، هذا الادِّعاء الّذي رُفِع في تسعينيّات القرن المُنصرم وكأنه مولود من ذلك المُفكّر.

لقد رأى صِحّة الثّنائيّة الواحِدة المُتكاملة والمُتجانِسة والمُنسجِمة بين الحزب الشّيوعي والنّاصرة، رأى بوضوح أنّ الحقّ في الاختلاف شرعي أمّا الحقّ في الخــلاف فهو باطل لآنّه يــؤدّي الى الثّنائيّة المتنافــرة والمُتصارِعة المؤدّية إلى مطبِّ حصان طُــرْوادة، فحين وقف كالطّود مُفتَتِحًا حملة الانتخابات لبلديّة النّاصرة، في العام 1953، حيث فازَ بعدها بعُضويّة مجلسها البلدي، قال:»إنّ الحزب الشّيوعي أيّها النّاصريون هو ابن النّاصرة الّذي يُمثّل وحدتها، وحدة صفوف عُمّالِها وجميع شُرفائها. إنّ حزبنا هو حجر الرّحى للوحدة الشّعبيّة». (والمعنى أنّ الحزب الشّــيوعي هو هو ســيِّد الوحدة الشّعبيّة خ.ت.). ويتابعُ قائلاً ومُخاطِبًا النّاصريّين: «بدون الحزب الشّــيوعي لا تقوم وحدة شــعبيّة، وبدون الوحدة الشّعبيّة يضيع أثر النّاصريّين».

بعدها قدّم أبو جابر اقتراحًا لتأليف الجبهة الشّــعبيّة لتخوض الانتخابات في النّــاصرة في جبهة موحَّدة ومتَّحِدة، قائمة على برنامج مشــترك واحد، يكون أساســه النِّضال لرفع كابوس الحكم العســكري والاضطهاد القومي بجميع أشكاله.

لقــد كان مــن أوائل الّذين اقترحــوا على الحزب الشّــيوعي في النّاصرة تأليف الجبهة الشّعبيّة من خلال خطابه في المهرجان الشّعبي حين قال مخاطِبًا:»في طريق الشّيوعيّين نسير نحو التّغيير الأفضل. بالوحدة النّضاليّة مع الشّيوعيّين يجدُ كلُّ انسانٍ شريفٍ مكانه الشّريف في النّضال الصّادق والشّريف».

أتذكّرُ صورة أبي جابر على غلاف ذلك الكتاب الّذي أصدره حزبنا الشّيوعي في

شهر تَمّوز من العام 1968، كنتُ حينها في العاشرة من عُمري، تحت عنوان «إبـن النّـاصرة، فؤاد جابر خوري» وحـين أرى الجماهير المشـيِّعة مُصوَّرةً ومُخلَّـدة بصُوَرِها ومُخَلِّدةً بحضورها قائدها، أشـعر أنّ كلّ جماهير وطننا قامت عن بِكرة أبيها مشيّعةً ومُعَزّيَةً. حين أرى تلك الصّور أذكر وأتذكّر تلك الجنـازة الكُبرى للرّئيس العربي الخالد، قائد ثورة تَمّوز جمال عبد النّاصر. حيث كتبت هيئة تحرير الكتاب آنذاك عن الرّفيق فؤاد خوري:»وهكذا ستبقى ذكراه نارًا مُتأجِّجةً، تُبدِّدُ ليْلنا وتحرق الحطب الجافّ في طريقنا».

كان الكِتـاب على رَفِّ مكتبـة والدي أبي خالد محفوظًا في مكان آمنٍ كالكنز، قال والدي:»يجب أن نُحافظ على هذا الكتاب لأنّه يروي سيرة رجلِ الرِّجالِ ورفيـقِ الرّفـاق، هـذا هـو تاريخنا فحافِـظ عليه كمـا تُحافـظ اللبؤة على شِبلِها».

اختطفته يد المنون بعد مرور تسعة أشهر من احتلال إسرائيل لباقي الوطن، احتلّـت الضّفة الغربيّـة وقطاع غزّة مضيفـةً إلى احتلالها الجـولان العربيّ السّوريّ وشبه جزيرة سيناء المصريّة، حينها اعتقلته ورفاقه الشّرطة، وكان هذا اعتقاله الأخير، وزجّت به سـجونها والسّـبب واضـح موقف الرّفيق من الاحتـلال، واخلاصه لشـعبه ودفاعه عن موقف حزبه الشّـجاع من الحرب، الّذي كان الموقف الجريء الوحيد على السّاحة السّياسيّة المُناهض للإحتلال. لقد كان مدرسـةً خرّجت أجيالاً ثائرة وأعلامًا من شُـعراء المقاومة فقد أبّنه طيّب الذّكر توفيق زيّاد قائلاً:»أنا وكثيرون غيري، من الواقفين هنا ومن غير الواقفين هنا، عرفنا طريقنا ونحن على مقاعد الدِّراسـة، على يدَيْكَ وعلى أيدي رفاقٍ لكَ. تلك أيّام لا تُمحى ولن يقوى الموت على انتزاعها من الذّاكرة. علمتنا الكفاح من أجل انتصار الحياة».

لقد كان رأس الحربة صاحب القوْل الفصل في احد مهرجانات النّاصرة:»وحجّة

أن «العين لا تقوى على المخرز» قد فنّدها النّاصريّون الّذين بنضالهم المُتراصّ الصّفوف، أنبتوا للعينِ ظِفرًا ونابًا». ويتابع خطابه:»لو سار النّاصريّون وراء «العُقلاء» أو بالأحرى لو قعدوا لا يُحرِّكون ساكِنًا بانتظار الفرج الّذي يأتي من «الواسطات» و»تقبيل الأيادي» و»الاعتماد على الحائط الواقف» لكان النّاصريّون منشغِلين اليوم، لا بالتّحضير للانتخابات البلديّة، بل بالرّحيل».

لقد صمد الشيوعيون ومن صمودهم صمد حزبهم في وجه كلّ تعسّفٍ ومنْعٍ وأسرٍ وشَـبْحٍ وتعذيبٍ وانقسام ونفيٍ وربحت جماهيرُنا واليسارُ عمودَه الفقري، الحزب الشّيوعي، الذي لم ينحرف ولن ينحرف، لم يلتوِ ولن يلتوِي، مهما كانت الشّدائد ومهما كانت التّضحيات. ويبقى الخيار الصحيح هو الخيار المسيْطر بالوحدة المُتراصّة والوعي الفكري البنّاء فبدون التّسلّح بفكر أو عقيدة لن تكون لنا جبهة ولن يكون لنا حزب ولن يكون لنا مستقبل.

بموت أبي جابر ماتت حبّة قمحٍ من سنبلةٍ ناضجةٍ ودُفِنت في أرضٍ طاهرةٍ شريفةٍ ناصريّةٍ مُقدّسةٍ ملأت مرج ابن عامر والجليل والسّاحل الشّامي والمثلّث وصحراء النّقب سنابلَ ملآى تُغذّينا وتُشبعُنا، تُقوّينا وتُفيدنا، لأن السّنابل الحيويّة ترفض أن يكون الزّؤان بينها والزّؤان يُجمع ويُقذف في أتون النّار. فإذا كان بيننا زؤان لنرمِه في أتون النّار حالاً قبل أن يتكاثر ويُصبح ظاهرة تسيطر على فكرنا وأدائنا، لأنّ الشّيوعييّن مستهدَفُون دائمًا.

أستحضرُ أبا جابر اليوم لفِطنتِهِ ورؤيته المستقبليّة وكأنه كان يشعر ما يحملُهُ الطّالع لشعبنا ولحزبنا، فقد كتب في صحيفة «الإتّحاد» (7/2/1958) بعد مرور عشر سنوات على نكبة فلسطين: «يُصرُّ الحكّام على مجلس النّاصرة بأن يُشرف على تنظيم «احتفالات» الاستقلال بمناسبة مرور عشر سنوات على قيام اسرائيل. وبينما كانت الحكومة تكتفي من رئيس البلديّة في السّنوات الماضية بأن يُقيم حفلة ليليّة ويُلقي كلمة «مناسبة»، نراها في هذه السّنة

تسـعى جاهدة لسَـوْق المجلس إلى تأليف لجنة عامّة تقوم بتنظيم الاحفالات تحت اشرافـه. فإنّ الحكومة تطلب من المجلس البلـدي تزيين المدينة بأنواع الزّينات ودعوة السّـكّان والمُنظّمات والمدارس إلى الانهماك في مظاهر الابتهاج والاحتفـال لينطبـق عليهم قول الشّـاعر العربـي «كالطّير يرقُـصُ مذبوحًا مـن الألـم». إنّ الجماهير العربيّة تذكر في هذه المناسـبة المآسي الدمويّة التي أحاطت بالشـعب العربيّ الفلسـطيني سـنة 1948، إنّ المواطنين العرب في إسرائيـل يعانون، فـوق هضم حقوقهم القوميّة، هضـم حقوقهم المدنيّة. إنّ سَـوْق هذه الجماهير العربيّة للاحتفال والابتهاج ليس إلاّ سَـوْقها إلى الرّياء والكذب، فكيف تسـتطيع تجريد نفسـها من الواقع المـرّ والرقص على قبور ضحاياها وأنقاض حقوقها المهضومة.

والحُكّام يسـعون بكُلّ قواهم لاستخلاص «شهادة حسن سلوك» من الشّعب العربـي في اسرائيل لجَلاده. طيلة السّـنوات الماضية يسـعون لطعن كرامة الشّعب العربي وتسخيره لمحو جرائمهم بأيْدي أبنائه. ويقول حكّام اسرائيل لعرب البلاد: ابتهجوا واحتفلوا فهذا اليوم يوم عيد عام، وإن كانت لكم حقوق مهضومة ومظالم فليس هذا وقته. إنّها «خلافات بيتيّة». ومن المؤسـف حقًّا أنّ الحكّام يجدون بعض المُتَملِّقين المارقين».

لنُحافِظ ولنحفـظ تراثنا برمش العين ونحميه من غـدرات وعثرات الزّمان، ولتكن السّـنة القادمة، سـنة طيّب الذّكـر فؤاد جابر خـوري، ولندعُ جميع كوادرنا وجماهيرنا لإحياء ذكرى أبي جابر بالاشـتراك في النّدوات والأمسيات والمهرجانـات ولنُبادر إلى إقامة لجنـة وطنيّة لحماية تراث أبي جابر الأصيل وليُجمع ما كتبه من مقالات فكريّة، نظريّة وخطابيّة وتاريخيّة ليكون مرجِعًا للأجيـال القادمة، تليق بـه وبفكره وبمن والاه، حتّى لا ننـسى أمّنا ورحْمَها وحتّى لا ننسى حاضِنتنا وحِضْنَها، حتّى لا ننسى حزبنا.

وفاؤنا وتكريمنا للمناضلين الشّرفاء يجب أن يكون بمواصلة المسيرة والنّهج والفكر بنفس الشّجاعة والبأس والتّضحية الّتي كانت.

في ذكرى عزيزٍ لم يكن كشرًا

لا أدري لــماذا اختارت يــد المنون د. إدوار الياس وابعدتــه عنّا برحيل مبكّر، رحّلتــه عنّا إلى جنّات الخلد، كما نتوّقع، في التّاســع من شــهر أيّار من العام ألف وتســع مائة وثمانية وتسعين، هذا الشّهر الذي كانت فيه بداية نكباتنا، الواحدة تلو الأخرى لكنّه حمل لنا أيضًا، أملاً مبشِّرًا بنصر آتٍ لا محالة، حيث حمل انتصارات الإنســانيّة بقيادة الجيش السّــوفييتي عــلى الوحش النّازي حيث يســجّل هذا اليوم أيضًا، التّاسع من شهر أيّار، يوم النّصر على النّازيّة، كذلك يحمل لنا هذا الشّهر، شهر العمّال الذي يبعث الآمال فينا بالنّصر الذي لا مهــرب منه مهما طال الزّمــن ومهما عظمت التّضحيــات، فهو المؤشِّر أنّ ساعة الحصاد قد بزغت.

كانت لي مع خالد الذّكر وطيبه، ثلاث محطّات، وددتُ أن انقلها لكم في ذكراه العطرة.

الأولى كانت في أواخر السّــبعينات من القرن الماضي، فقد تعرّفت عليه سماعًا حين بدأتُ دراســتي، في كلية الطّب، جامعة كومنســكي، براتيسلافا عاصمة الجمهوريّــة السّــلوفاكيّة، والتي كانت جزءًا من جمهوريّة تشيكوســلوفاكيا الاشــتراكيّة عندما أنهى دفاعه، بنجاح باهر، عن أطروحته حيث حصول على شــهادة الدّكتوراة في الفلسفة والاقتصاد السّياسي، من نفس الجامعة ونفس المدينة.

حين كان يرنّ هاتف منزلنا، في شــارع المتنبّــي، حيّ عبّاس، في حيفا بعد أن

ينتصـف ليل حيفا، قبل أكثـر من عقد من السّـنوات،لم انتظره يرنّ طويلاً حتى يترك رسـالته الصّوتية، لأنّ هذا الرّنين لم يكن نشـازًا بل كان فوّازًا لي بصوت ادوار الياس، فقد كانت عادته الإتّصال بنا بعد منتصف الليل، ساعة إنهـاء عمله في تحرير صحيفة الإتّحاد وسـاعة خلودنـا الى الرّاحة بعد يوم عمل شاقٍّ، فقد كنّا نعرف من هو الهاتف الدّاعي، حيث كانت زوجتي تقول مؤكّـدةً أنّ ادوار على الطّرف الثّاني مـن الهاتف، حيث كنّا ننهي حديثنا إمّا بلقاء في الليلة إيّاها أو نتّفق على لقاء في اليوم الثاني في مكاتب الإتّحاد، وكنت أزوره حين كان وقت عملي يسمح لي بذلك، وكنت أزوره على وجه الخصوص بعـد أن أعـود من زيارة تشيكوسـلوفاكيا (في حينه)، بعد زيـارة تلك البلاد التي تركت بصماتها الجميلة ترسـم بريشتها مخيّلتي وعلى ذوقها، لتزيدني شـوقًا لتلك الأيّام الرّائعة التي عشناها، حيث نقول جميعًا كلّما اجتمع خلاّن تلـك الجمهوريّة:ليـت تلك الأيّام تعـود يومًا. أعود محمّلاً لـه مِمّا لذّ وطاب من دخان السبارطة، الذي كان يدخّنه هناك ويفضّله ومن مشروبه الروحي المفضّل الفودكا او السليفوفيتسا slivovica)وهو عبارة عن مشروب روحي مصنـوع من تخمير فاكهة البرقوق أو عـين البقرة). ونتحدث عن الأصحاب والخـلاّن الذين تركهم وتخضرموا متابعين دراسـتهم حيث عاشـوا فترَتَيْنا هناك.

وأمّـا المحطّـة الثّالثـة فكانت التّرجمة. حيـث بدأ يترجم لزوجتـي وحبيبتي ورفيقتي إديتا، سـلوفاكيّة القوميّة والجنسيّة، قصصاً كانت تكتبها في لغتها السّـلوفاكيّة وينشرهـا مترجمـةً في صحيفة الإتّحاد، في زاويـة الأطفال. وقد مُنحت زوجتي حينها، جائزة تقديريّة من إدارة الإتّحاد حيث قام بتسـليمها إياها الرفيقان خالدا الذكر د. إدوار الياس وشفيق طوبي (ابو كمال). وبعد ان كانت كميّة القصـص المترجمة كبيرة فقد كان أمله وبالتالي أملنا نحن أن

نُصــدر هذه القصص في كتاب للأطفــال، لكن اختيار الملائكة كان أقوى منّا، حيث أخذته من غير موعد وعلى حين غرّة، وهو في قمّة عطائه.
وأبقت لنا الذّاكرة مشواره مع الصغار ومغامرات فوّاز النشاز ومسعد اسعد الدّيراوي وليس للوجه الكشر حيث عرّفنا وذكّرنا بعاداتنا وتراثنا واشــعارنا القديمة بغمزاته ونشازيّاته وصوت النّشاز وعلى أقوال الشّعوب والتّرجمات وبقيت سُمْعَتُهُ الطَّيِّبة المعروفة.
أذْكــر مــن قصص فوّاز النّشــاز، أن أم بديع عبد السّــميع شــعرت أنّ ابنها «مصــاب بالعين»، فأخذت مقــلاة ووضعت فيها غصن زيتــون مقدّس من أحد الشّــعانين ورشّــت عليه ملح واشــعلت النّار ليفرقع الملح وتفقع العين الشّريرة. وهنا اقتبسُ تلك التّهليلة التي تصبو وتتمنّى ســمل العين الشّريرة والتي تصيب بالسّوء، اللامّة، حتّى لا تضُرَّ أحدًا:
اســم الله عليك، من عين امك وعين ابوك، ومن عين اللي شافوك، عين الضّيف فيها ســيف وعــين الغريب فيها قضيب، وعين البنَيّة فيهــا حبّة وعين الجارة فيها نارة وعين الحسود فيها عود.
ومــن النّشــازيّات: ســأل الأســتاذ حســيب الغضيــب التّلاميــذ عــن الدّفاع الاضْطراري عن النفس! أجاب:حينما وقــعْتُ على شــهادة العلامات في نهاية الفصل بنفسي.
وأُخرى: حين وصلت فوزيّة الجميل إلى الحضانة لحمل ابنها فوّاز حين كان في السّادســة من عمره، الى البيت مبكِّرًا، قالت لها الحاضنة ان فّواز أحســن واحــد في الصّف، لذلك يمكنه الذّهاب مبكِّــرًا! فأجابت أمه: طالع لأبوه دائماً يطلقون سراحه قبل الأوان لحسن سلوكه.
وعــن التّربية كتب المثل: إذا كان ربُّ البيت بالدّفّ ضاربًا فشــيمة أهل البيت كلّهم الرّقص.

سـنذكرك دائمًا حتى بعـد رحيلك وسـيذكرك ربيع الجزائري الـذي علّمته اللغة العربيّة، قراءتها وقواعدها وعلّمته أيضًا كلمات نشـيده الوطني، قسماً بالنّازلات الماحقـات والدّماء الزّاكيات الطّاهرت، وعلّمته أيضًا لعبة الطّرنيب (الويست).

وأدعو جميع أصدقاء ومحبّي إدوار الياس تعوا سويّة نعمل لتجميع كتاباته، جميعها، لكي لا تذهب سـدىً ولكي تبقى كتاباتـه خالدةً، وذكراه خالدةً ما بقي القمر والشّمس والنّجوم.

(حيفا)

علي خمرة . . أبو خضر
أراد أن يـمـوت شـيـوعـيًـا....

اخــترتُ أن أكتــب عنك، بعد أن خطرتَ على بالي هــذه الأيام، يا رفيقي يا ابن حيفا. عرفتكَ في طفولتي بائعَ سمك، صاحب مسمكة في حيّ وادي النسناس. وقد روى لي والدي عنكَ، يا أبا خضر، أنّك إنســان وتحبّ الإنســانيّة ولا تقبل الــذّلّ ولا الهوان، منــذ أن كنتَ عضوًا في عصبة التحــرر الوطني، وبعدها في الحزب الشّيوعي .

شــاءت الظروفُ أن تترك الحزب لسببٍ ما، حين كان الحزب سفينة ماخرة، ثائــرة متحدِّية ومنتــصرة على الظُّلــم والعواصف والأنــواء، لوحدها وكانت لوحدها في عباب ولُجج البحار والمحيطات، لكنّ قلبك وعقلك وفكرك كانا مع السّفينة وربّانها ولم ترمها بحجر ولا بمذمّةٍ. وحين خانتك صحتك وعافيتك، قــرّرت أن تعود إلى خليّتــك الحزبيّة في حيفا، خليّة قيســاريّة، معلنًا عودتك للحزب قائلاً: أريد أن أموت شيوعيًّا.

فكم علا شأنك يا رفيق بين رفاقِكَ واهلِكَ ومحبيك فصرت عليّ الشأنِ أكثر يا عليّ يا رفيقي يا أبا الخضر، علي خمرة.

أذكــرك الآن، بعــد أن قرأت من على صحيفتنا الإتحــاد، النّقاش الحادّ بعض الشّيء، بين رفيقين عزيزين، حيث أنّ اختلاف الرّأي لا يُفسد للودِّ قضيّة، عن رفيــق قياديّ بــارز، كان يهزّ الأرض كما يقال في بلادنــا، كان من ربّان تلك السّفينة، وفي خطّها الأمامي وفي قمّة ياطرها، وما أن هبّت العاصفة في بداية التّســعينات، حتى غدرها وغادرها حالاً، تركها لوحدها لباقي القبطان حين

كانت بأمسّ الحاجة إليهِ راميًا السّــفينة بســهامه وراميًــا الحجارة في البئر التي شرب منها، متّهِمًا قيادة الحزب الشّيوعي بأنّها قيادة دكتاتوريّة..
وشتّان بين من ترك السّفينة مؤقتًا ليعود إلى حضنها الدّافئ وبين من تركها وأدار لها ظهره موجِّهًا سهامه لحضنها.
أذكــرك يا رفيقي علي خمرة، أبو خضر، اليوم ودائمًــا وأبدًا وأذكّر القرّاء إن نفعــت الذّكرى بأنّه علينــا ألاّ ننسى رفاقنا، لأنّهم من الوجــوه التي لا تموت وعزاؤنــا في رحيلهــم أنّ ذريّتهم تكمّل مشــوارهم ذاكريــن وحافظين نضال الأهل، وإن خَلَدوا بعض الشّيء، للرّاحة، فإنّهم مُخلَّدون وخالدون.

الرّفيق علي إبراهيم عاشور في عاشورا غيابه

ما أصعب الحقّ حين يكون موتًا. وما أصعب الموت حين يُفقدُكَ إنسانًا عزيزًا متواضِعًا، سياسـيًّا فطينًا، مفكِّرًا ثوريًّا، شـيوعيًّا بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، أسمًا معروفًا ورمزًا وطنيًّا ومفخرةً للحزب والجبهة والشّعب.
فَقَـدَهُ وافْتَقَدَهُ حزبنا وجبهتنـا وجماهيرنا، وفقدَتْـه وافْتقدَته حيفا وأهلها قبل عشر سـنوات من أيلول ذي الورق الأصفـر، كان ذلك في فصل الخريف مـن العام 1997، بعـد أن أتاها من غزّة هاشـم حين حـرَّرهُ ورفاقَه رفاقُهُ الشّـيوعيّون من المعتقـلات الإسرائيليّة، بأمرٍ من محكمة العـدل العليا، بعد النّكبة، من سجن «أبو عجيلة الصّحراوي»، الّذي كانت قد اعتقلته السّلطات المصريّة فيه، في أواسط عام النّكبة.
تخافُـهُ وتخـافُ فكـرَهُ الرّجعيّـة العربيّـة قبـل الصّهيونيّة، لأنّهـا تخاف الشّيوعيّة.
وُلِـد الرّفيق علي عاشـور في غـزّة بتاريخ 20/9/1929، حيـث كان والده، إبراهيم عاشـور، شـيخًا وعالِمًا من كبـار علماء الدّين المسـلمين في المدينة. وكان فهمي ألسّـلفيتي، أحد أبرز القادة الشّيوعيّين في فلسطين والأردن، أباه الرّوحي، حيث سكن مدينة غزّة بعيدًا عن مسقط رأسه سلفيت قضاء نابلس. وبفضله وفضـل أبي إبراهيم ورفاقه المثقّفين الثّوريّين تمكّنوا من تأسـيس الحركة النّقابيّة هناك و في العام 1945 انضمّ إلى عصبة التّحرّر الوطني.
تشرّفـت حيفا به وسـكن زقـاق الطّغرائي في حـيّ وادي النّسـناس بعد أن

تزوّج من طيّبة الذّكر ورفيقته في الحزب سلمى شويري وأنجبا ثلاثة أطفال إبراهيم، جمال وكمال.

واستلم بعدها إدارة «قوت الكادحين» التّعاونيّة فكان مديرًا وسكرتيرًا للجمعيّة التّعاونيّة.

تسلّم لسنوات عديدة إدارة الاتحاد والجديد، فقد قال عنه الشّاعر الكبير محمود درويش: علي عاشور من قدامى محرّري الاتّحاد الذين ارتبط اسمهم باسمها. فقد كان خفيف الرّوح يُضفي على هيئة التّحرير جوًّا من المرح، حتّى في أشدّ الأخبار حلكة.

كان لسنين طويلة عضوًا للجنة المركزيّة للحزب الشّيوعيّ حتّى المؤتمر الثّالث والعشرين للحزب.

اشترك في أوّل لقاء رسميّ وعلنيّ للحزب الشّيوعي ومنظّمة التّحرير الفلسطينيّة في براغ عاصمة جمهوريّة تشيكوسلوفاكيا، عام 1977. وقد مثّل الحزب في مجلّة «قضايا السّلم والاشتراكيّة» العالميّة في براغ. وكان عضوًا في مجلس السّلام العالمي حيث مثّل الحزب في عدّة مؤتمرات دوليّة نظّمها المجلس.

كتبَ العديد من المقالات السّياسيّة والأدبيّة والشّعرية والعلميّة. وقام بترجمة بعض الكتب من الإنجليزيّة إلى العربيّة.

لقد عرف العمل السّريّ وكان اسمه الحركيّ في غزّة أنور سعيد حيث كان يعمل في مؤسّسة حكوميّة وكان يُحظر على الموظّفين العمل في السّياسة ولم يعرف أعضاء خليّته اسمه الحقيقي.

هناك في غزة لازمت صداقته أعلام الحركة الشّيوعيّة في الوطن العربي مثل الرّفاق فائق ورّاد، معين بسيسو، فؤاد خوري، أكرم برزق وحلمي أبو رمضان.

وفي حيفا نشر عدّة أشعار وقصص تحت اسم مستعار «أبو الهول دم دم».
كيف أنسى ما كَتَبَ مــن وصفٍ لطالع الأنظمة الرّجعيّة العربيّة وراء الزّحف اللاهــث وراء أمريكا «راس الحيّة»، فمــا ينالون منهم غير الأصبع الثّالث من كفّ اليدّ اليُمنى أو اليُسرى أو الاثنتين معًا.
كيف أنسى يوم حسدْتَ القائد الرّمز ياسر عرفات حين قال «أنا أحلم بالدّولة الفلسطينيّة» في مقالة كتبتها تدافع فيها عن حلم أبي عمّار بعد هجوم أرعن قامت به الصّحافة العبريّة في البلاد.
كيف أنسى وتذكُرُك حيفا على أنّك من مؤسّــسي جمعيّة المبادرة الإســلاميّة في حيفا.
كيف أنسى لقاءنا في الجمهوريّة التشيكوسلوفاكيّة، أيّام دراستي، حين زُرناه وفتَنَــت دماثة خلقه وتواضعه ومرحه المواطنين هناك في كلّ مناســبة، فكان إنسانًا يعرف قدر نفسه ولم يرَ قدره أعلى من غيره كقول الشّاعر:

ملآى السّنابلِ تنحني بتواضعٍ والفارغات رؤوسهنّ شوامخُ

كيــف أنسى الدّورة الحزبيّة حين التقينا طيّب الذّكر الرّفيق علي عاشــور، أبا إبراهيم، في إحدى محاضراته النّظريّة والتّثقيفيّة، لأعضاء الشّبيبة الشّيوعيّة في حيفا، حين أجاب على سؤال أحد الرّفاق حول تكفير الشّيوعيّين من بعض النّاس ولماذا يعتبرون الرّفاقَ كفرةً قال: من كَفَّرَكُم فهو كافر. والشّــيوعيّون يا رفاق هم هم أوّل الدّاخلين إلى الجنّة، ويرحمهم الباري بأعمالهم الحســنة وصراطهم المســتقيم وتفانيهــم وتضحيتهم وإخلاصهــم في عملهم من أجل رفاه وحريّة شعوبهم وسعادتها.
كيف أنسى بيتك في العاصمة التشيكوسلوفاكيّة، براغ، الذي كان مفتوحًا على مصراعيْه ودومًا للزوّار من بلادنا ومن خارجها، كما كان بيتك هنا في حيفا.
كيــف أنسى تلك الحادثة التــي رواها لي والدي أبو خالد حيــث أنقذتَ مؤيّدًا

للحزب من عائلة التّوتري خلال مشادّة كلاميّة كادت تتحوّل إلى مشاجرة، بعد أن دار نقاش سياسي بينه ومجموعة يمينية في الهدار، فما كان من الرّفيق أبو إبراهيم إلا الدّفاع عنه وتحريره من أيدي اليمينيّين بحنكته وفِطنته وذكائه المُميّز.

كيف أنسى ذلك اليوم المشئوم حين كان الحقّ أقوى من إرادتنا، وخطفتك يد المنون، سُـجِيتَ في نادي القدّيس لوقا (سانت لوكس) ونعشك مُغطّى بالعلم الأحمر. نتذكّر معًا ذلك النّشيد الذي أنشده الشّيوعيّون اللبنانيون خلال الحرب الأهليّة:

وإنِ استشهدْت يا يُمّا بالعلم الأحمر لِفِّيني، بالعلم الأحمر لِفِّيني.

كيف أنسى ذلك اليوم (كما حدّثني والدي أبو خالد) حين اعتُقلتَ ورفاقك حيث كان بينهم: زاهي كركبي، أسعد مكّي، يوسف عبده، سليم شامي وابراهيم تركي، وقد أنشدْتُم في المعتقل الأناشيد الثّوريّة كالأمميّة ونحن الشّباب وظلاّم يا ظُلاّم وصلاح ونشيد قرانا وبعد كل نشيد كنتم تهتفون بحناجركم المباركة والعالية بحياة الحزب والشّبيبة والطّبقة العاملة. أغاظت هذه الأناشيد والهتافات السّجان وإدارة السّجن، فجاء أو أُرسِلَ متوَعِّدًا ومُحذِّرًا الرّفاق بالسّكوت وإلاّ... وعندما سمع الرّفاق هذا التّهديد المرفوض، والّذي تأباه النّفوسُ الكِرام، تقدّم منه خالُكَ طيّب الذّكر الرّفيق أسعد مكّي قائلاً وهازئًا: اسمع، إذا منعتنا من الإنشاد اليوم، فلن نأتِيَ إليكمُ ولن نكون في ضيافتكُم قطّ. وبعد لحظة من المواجهة الكلاميّة، أحضر رجال الشّرطة اثنين من العسس الذين استفزّوا رفاقنا لغاية في نفس باعثيهم، وعلى ضوء هذا اعتُقِلوا وإذ بالرّفاق يصرخون طالبين من السّجان: أحْضِرْهما إلينا، إلينا... كانوا يريدون تصفية الحساب معهما.

لقد كتب الشّاعر الكبير محمود درويش في ذكرى ستّين ربيعًا على ميلاد

الاتّحاد عن الرّفيق أبي إبراهيم ورفاقه ما يلي:
في عيد «الاتحاد» الستين، يستعيد كل واحد منا، قرّاءً وكُتّابًا، جزءًا من سيرته الذاتيــة والعامة. وأنــا، إذ انظر قليلاً إلى الوراء، أتذكــر غرفتين صغيرتين في ساحة خالية، قضيت فيهما عقدًا من الزمن، في صحبة مَن هم أكبر مني عمرًا وتجربة. لعلّي كنت في مدرســة لا في جريدة، هناك تعلّمت الكتابة الصحفيّة، مــن صياغة الخبر إلى التّقرير إلى الرِّيبورتــاج إلى المقالة والافتتاحيّة. وهناك تعلّمتُ المشي على طريق المستقبل بثقة الشّباب المتلئ حماسة. وهناك أيضًا تعلّمــتُ طريقة الاهتــداء إلى ذاتــي والى علاقتها بالجماعة، فليســت الحريّة تلمّسًا شخصيًا فحسب، ولا سؤالا فرديًا فحسب. ولم تكن السجون الصغيرة والكبيرة ســوى محطّات للتّدرُّب عــلى عبادة الحريّة، إذ، لــم تكن «الاتحاد» جريدة إخباريّة، بقدر ما كانت ورشــة عمل لاجتراح الأمل للخارجين من ليل النكبة. لقد أســهَمَتْ في بلورة وعينا بحقوقنــا القومية، وبحقوقنا كمواطنين في دولة ليســت لنا!. وساعدتنا»الاتحاد» في التعرّف على هويتنا الثّقافية التي كانت مهدّدة بالتّشــظّي والتَّمزّق. ومنها وصلت أصواتنا الشعريّة إلى العالم، وأنا، إذ أنظر إلى الوراء، إلى بنت جيلي أرى ذكرياتي الحميمة تطالبني بالوفاء لأولئك الكبــار الذين عملت معهم وتعلّمت منهم: توفيــق طوبي، إميل توما، علي عاشور، إميل حبيبي، صليبا خميس ومحمّد خاصّ والعاملين في مطبعة «الاتحاد» القديمة. وإن سقطت مني دمعة، فلا تلوموني!
فلك يا عليّ الشّعب والحزب والجبهة ألف تحيّة إجلال وإكبار لذكراك.
أيّها الفارس الّذي جسّــد بحياته تاريخَ ونضالَ حكاية شــعب أبيٍّ لا يعرف الرّكوع ولا الضّياع.
أنت دمعتُنا التي لا تسقط. أنت دمعتُنا الّتي نحفظُها في مآقينا.
أنت الأســير والسّــجين والمنْفِي واللاجيء في وطنه والمناضــل العنيد والمُفكّر

والكاتب والشّاعر والصّحافيّ والإنسان والفارس.
أنت العليّ يا عليّ بإنسانيّتك وتواضعِك.
لقد كنت شــيوعيًّا صادِقًا عليًّا. وعلينا أن نحفظ تراثك ونحافظ عليه برمش العين ليكون منارًا ونورًا يُهتدَى به.
الرّفيق علي عاشور في إحدى مهرجانات حيفا الخطابيّة.

الرّفيق علي عاشــور في إحدى رحلاته مع رفاقنا الطّلاب في تشيكوســلوفاكيا حين كان مُمثّل الحزب في مجلّة قضايا السّلم والاشتراكيّة.

في رحلته «تعرّف على وطنك» مع رفاق منطقة حيفا، آب (1972)
استعنت بكتاب «جذور من الشّجرة دائمة الخضرة» للرّفيق د. أحمد سعد.

رفيقُنا محمود طه البيّومي تركنا على الأرض وراح

كان ذلــك يوم أربعاء، من أيام شــهر حزيــران وبعد مشــاركتنا في تظاهرة تضامن قبالة مبنى بلدية حيفا، مع تلاميذ وأهالي مدرســة حوار في قضيتهم العادلة في بناء مدرسة حديثة ترعى الطّفل منذ الصّفوف الأولى، قمنا بزيارة رفيقنــا أبي عوني، في حــيّ الحلّيصة، فقد كان طابع الزيــارة ودّيًّا ورفاقيًّا، حيث كنّا نتردّد لزيارته دائمًا.

لكنّنــا في اليوم التّالي تلقّينا خبر دخــول رفيقنا محمود البيّومي (أبي عوني) المستشــفى في قســم الإنعاش المكثّف بعــد أن أصابته ذبحــة صدريّة لئيمة قطعت التّزويد الكافي لغاز الأوكسجين عن عضلات قلبه لتضع حدًّا لحياته.

حين قمنا بزيارته هنــاك، ذُهِلنا لِمرأى أعيننا من وضعه الصِّحيِّ العامّ ومن كثــرة الأجهزة التي كانت تكتنفه. قبل يوم فقط من دخوله المستشــفى كان حضــور أبي عوني بكل أحاسيســه وجوارحه بــارزًا حين حدّثنــا عن الأيام الخوالي في النّاصرة، في الخمســينات والسِّتّينات بكلّ حيويّة شبابيّة عكس ما كان عليه يوم زيارتنا له في قســم الإنعاش حيث كان ســاكنًا دون حراك، ولَم يســاعده جســده على التّنفس لوحده فكانت ضجّة أجهزة الإنعاش مسيطرة على زيارتنا ويفوق صوتُها صوت حديثنا..

سبحان مُغَيِّر الأحوال بين ليلة وضُحاها.

كانت أوّل زيارة لي للرّفيق أبي عوني قبل عدّة سنوات، خلال إحدى زياراتنا الانتخابيّة لحيّ الحلّيصة. كان واقفًا عند مدخل بيته وكأنّه ينتظرنا، ودخلنا

البيت الكريم وكانت في اســتقبالنا صورتان كبيرتان في صدر البيت. الصّورة الأولى لأبي عوني مع القائد طيّب الذّكر الرّفيق توفيق زيّاد، والثّانية للسـيّدة العذراء، صورة كبيرة مُذَهّبة.

بيتٌ أمميٌّ، وطنيٌّ شريفٌ ومضْيافٌ. لا فرق في الدّين ولا إكراه في الدّين، هذا هو عنوان بيت أبي عوني. عندما عدتُّ إلى البيت حدّثني والدي، أبو خالد، عن محمود البيّومي وعن والده طه البيّومي، والذي تشهد له النّاصرة وقضاؤها، بقولها هذا الشّـيوعيّ، نقيّ اليدين، تقيّ الدّرب والسّبيل، طاهرُ الأخلاق، عَلَمٌ من أعلام النّاصرة الخفّاقة فوق رؤوس جبالها.

فقد ســار الرّفيــق أبو عوني عــلى خُطى وهُــدى والده، فــكان الخلف لخير سلف.

حدّثنــا يــوم الأربعاء إيّاه، كيف وزّع جريدة الإتّحــاد، كيف كان يتّزر بوزرة «الطّوبرجيّــة» واضِعــاً بداخلها جريــدة الحزب وأدبيّاتــه ويذهب إلى أحياء النّــاصرة لإعطائها للرّفاق لتوزيعها، حين كان توزيع صحيفة الإتّحاد سرِّيًّا.

ويتابع حديثه عن مواجهات مظاهرة الأوّل من أيّار في النّاصرة، أوّل انتفاضة لشــعبنا الفلسطيني بعد عشر سنوات من قيام الدّولة، كم كان النِّضال شاقًّا وكم كان الثّمن باهظًا عندما تكون شيوعيًّا، فكان الشّيوعيّ معطاءً ومتفانيًا من أجل سعادة الآخرين رغم الثّمن الباهظ.

ولا أدري لماذا كُتِبَ على الّذين يُناضلون من اجل ســعادة الآخرين أنْ يعيشوا في شقاء مؤبَّد، ليقطف ثمار هذا الشّقاء من كان يقف جانبًا مُتفرّجًا حاضرًا وجاهزًا مع منجله لحظة الحصاد.

لكنّ جذور رفاقنا ممتدّة عميقًا كامتداد عرق الذّهب في المنجم العميق.

لقــد أثار فضولي ذلك الرّفيق، حين وقّع اســمه في موقــع الجبهة الإلكتروني باســم رفيق، واصفًا الرّفيق محمود البيّومــي بالجندي المجهول. لم يكن أبو

عونــي جنديًّا مجهولاً، بل معروفًا وعَلَمًا على رؤوس الأشــهاد، ونارًا على قمم الجبال.

فقــد كان عطــاؤه في الانتخابات الأخــيرة، قبل رحيلــه، مميّزاً حيــث حَرَسَ صناديق الاقتراع، ســاعة الفرز، تفاديًــا للتّزوير بعدَ يوم عملٍ مضنٍ، وكانت النّتيجة مرضيةً لتلك الظّروف التي عملوا بها. فكانَ بمواقفه كالمروةِ، صلباً، وبعمله كانَ ذا مروّة شبابيّة، وحَرَصَ على طهارة الأيدي والمبدأ.

لقد تركنا الرّفيق محمود طه البيّومي ونحن بأمسّ الحاجة إليه.

فعليك السّلام يا أبا عوني، وإلى جنّات الخُلد يا رفيقي الذي تركنا على الأرض وراح لنســتمرّ في النّضال مــن أجل الجنّة الموعودة عــلى الأرض والتي نعمل مــن أجلها ونأمل أن نراها ورُحْتَ صاعدًا إلى ذلك المثوى الحقّ الذي ينتظرنا جميعاً والذي لا مفرّ منه.

لقــد حدّثنــا، عــن الجنّــة، رفيقنا علي عاشــور، أبــو إبراهيم، خــلال إحدى محاضراتــه النّظريّة والتّثقيفيّة، لأعضاء الشّــبيبة الشّــيوعيّة في حيفا، حين أجاب على ســؤال أحد الرّفاق قائلاً: الشّيوعيّون يا رفاق هم هم أوّل الدّاخلين إلى الجنّة، ويرحمهم الباري بأعمالهم الحسنة وصراطهم المستقيم وتفانيهم وتضحيتهم وإخلاصهم في عملهم من أجل رفاه وسعادة وحريّة شعوبهم..

حيفا وفِيَّة لأهلها

حيفا عروس السّاحل الشّامي.
حيفا شامة على خدّ هذا الوطن.
حيفا مدينة تُحِبُّ أبناءها وبناتها. حيفا وفِيَّةٌ لأهلها.
أبناء وبنات حيفا أوْفياء لمدينتهم ويحبُّونها كما تُحِبُّ العاشِقة حبيبها.
ولو جالوا في رحلاتهم وترحالهم السّند والهند وأرض الصّين لن يجدوا مثل حيفا، لأنّها حبيبتهم الأولى. وهكذا، كانت عروستنا الشّهباء شادية. عاشت في حيفا ورام الله وفي القدس عاصمة فلسطين وبراغ عاصمة الجمهورية التشيكيّة ولم تتردّد قطّ، حين اختارت، وبإيمان راسخ وقناعة تامّة، أن تكون أيّامها الأخيرة وإقامتها في مسقط رأسها، حيفا.
تُرى هل يكمن السّرّ في بحرها؟ هذا البحر الذي كُلّما عانقت أمواجه شواطئ حيفا، عروس الكرمل، تذَكَّرت حيفا أهلها، الحاضرين فيها والغائبين عنها في المنفى واللجوء أو المهجر، وتُذكِّرهم كلما أتت الأمواج لتَعُدّ حُبيْبات رمل الشّاطئ، أنّها على موعدٍ معهم ولهم إليها عودة ولقاء مهما طال البُعاد.
تُرى هل يكمن السّرّ في هوائها المالح أم في ملح بحرها وأرضها؟ فأبناؤك وبناتك هم ملح أرضك يا حيفا. أم أنّ هناك سِرّ في مياهها العذبة يحثّهم على التّمسّك بعذاب الحبّ اللذيذ!
هل سرّ حيفا في ضوء قمرها أم في أشِعّة شمسها أم في تراب كرملها أم في وديانه وأعشابه وأزهاره من قندول وسنديان وزعتر وميراميّة وعصا الرّاعي

والزّوفا والفيجن وتُفّاح الجِنّ والبرقوق.
مــا أجمل الكرمل بصنوبره وسروه وياســمينه وما أجمــل عناقه للبحر حين يكــون في مــكان لقائهما مزارٌ ومقامٌ مقدّسٌ لمار الياس أو الخضر ولا عجب حين يُقسِم أهلها يمينهم بحياة مار الياس والخضر أبو العبّاس.
فكما قال الشّاعر عمر أبو ريشة في قصيدته «في سبيل المجد»:
هذه أوطاننا مثوى الجدود الأكرمين
وسماها مهبِط الإلهام والوحي الأمين
ورُباها جنّة فتّانة للنّاظرين
كلّ شبر من ثراها دونه حبل الوريد
فمــن البحر إلى البحر ومن الشّــاطئ إلى الشّــاطئ ومن الكرمــل إلى الكرمل تعودين يا شادية، يا أمّ ابراهيم.
بعد خمســة أعوام مــن نكبتنا، وُلِدتْ طفلة في مستشــفى حيفــا الحكومي، الواقع قرب شــاطئ أبو نصّور، بعد أن وصلت والدتها مريم عطا الشّــلّودي الأشــهب أم عدنان حاملةً ابنتهــا عائدة ابنة الثّلاث ســنوات إلى حيفا مُهرّبةً من الخليل الّتي كانت تقع تحت الحكم الأردني وِفقًا لمؤامرة تقســيم الوطن، عــن طريق صندلــة، لتلتقي زوجها المُحرّر والحُرّ، عودة عبّاس الأشــهب أبو عدنان، بعد أن كان مُعتقلاً في السّــجون المصريّة وبعدها في سجون الاحتلال الإسرائيــلي، حين كانت تهمتــه حب الوطن والعدالــة الاجتماعية والدّفاع عن شــعبه بعمّاله وفلاّحيه. بعد أن وصلت حيفا وفشــلت محاولات جمع الشّمل بحُجّــة كونها خطِرةً على أمــن الدّولة (أم عدنان خَطِرة عــلى أمن الدّولة!!)، طبعًا كانت هذه الحجّة واهيةً مُقابل إرادة وإصرار الأم في بناء عائلتها في ظلّ وتحت كنف زوجها ليكون للبيت ربٌّ يحميه. عاشت الأم مريم الأشهب وهي حامل بشــادية وعلى صدرها عائدة مُطــاردةً كالطّاهرة العــذراء مريم بنت

عمران عليها السّــلام حين هُرِّبت من النّاصرة إلى بيت لحم وهي حامل وبعد أن ولدت طفلها يسوع المسيح عليه السّلام إضطرّت إلى مغادرة بيت لحم مع رضيعهــا، هربًا من ظلم وجُــرْم وتهديد هيرودوس بقتل أطفال بيت لحم إلى مصر، كذلك انتقلت أم عدنان بين حيفا وتل أبيب ويافا والخضيرة هروبًا من جنود الاحتلال الإسرائيلي للحؤول دون اعتقالها لتُقيم في بيوت رفاقنا اليهود في قيادة الحزب الشّيوعي إلى حين ترتيب إقامتها في حيفا مع زوجها.

حــين حان المخاض وأتت ســاعة الــولادة، وهي التي لا تملك حــقّ الإقامة في وطنهــا أو حتّــى تصريحًا مؤقّتًا، وإذ بأبي عدنان يســتنجِد برفيق شــيوعيٍّ ينحدر من أصولٍ يوغوسلافيّة، كان يعمل طبيبًا في قسم الولادة في المستشفى الحكومــي وكانــت تجمعه بأبي عدنــان علاقة طيّبةٌ وخاصّةٌ جــدًّا حيث أنّه حصل على وســام العمل التّطوّعي من جمهوريّة يوغوســلافيا الاشــتراكيّة في العام 1946، بعد أن أُرســل للعمل التّطوُّعي لشقّ سكّة الحديد بين سراييفو وبلغراد مُمثِّلاً الرّفاق الشّــيوعيين العرب في عصبة التّحرّر الوطني. فقد كانا في كلّ جلسة ودّيّة أو لقاء حزبيّ يعيدان ذكريات كلّ منهما في يوغوسلافيا. بعــد ولادتهــا بثلاثة أيّام أتى الرّفيــق الطّبيب مُخبِرًا أبا عدنــان بتحرير الأم وشــاديتها من قسم الولادة على أن تكون ســاعة مُغادرة القسم مُتزامنة مع انتهــاء دوام عيادة الأمهات الجديدات، حيــث تكون «عجقة كبيرة» ولا ينتبه أحــد للدّاخل والخارج من القســم. هُرِّبت شــادية وأمّها واســتقرّت العائلة في حيفــا بعد أن أُصــدر لهنّ، أمّ عدنان وعائدة وشــادية، تصريح إقامة بعد تدخّل رفاقنا القياديين الّذين توجّهوا للدّوائر الحكوميّة الرّسميّة والقانونيّة، طالبين منهم اصدار تأشيرة اقامة لأمّ عدنان وطفلتَيْها.

لقد كانت عودة شــادية إلى شاطئ حيفا للاستقرار فيه، قسريّة، لم تعُد إليه للاســتجمام أو الاستحمام، ولا لشــمّ النّسيم أو اســتعادة ذكريات عبرت أو

لحضــور اجتماع كادر، بل عــادت بناءً على أمنيتها وبطلــبٍ منها أنّه «مهما حــدث لي وأينما حللتُ ســتكون حيفا مقرّي الأخير ومدفنــي الأبدي» رجِعَت إليهــا لتعانــق ترابهــا، رجِعــتْ لمدينتها ولشــاطئها فهل ســتُغنّي لها نجاة الصّغيرة ما أحلى الرّجوع إليه! حين فارقَتْنا في ذلك الاثنين الثّالث، من شــهر كانون الثّاني من العام ألفــين وثمانية، ذي البرد القارس والرّياح العاصفة، بــدأت تهطُل الامطار الغزيرة بعد عناقها الابديّ لتراب حيفا وكرملها لترتوي من مائها ومن ســمائها ومن أرضها، عانقت ترابها لتدفئة شاطئها وحمايته من الصّقيع، كأُمٍّ تحضن أبنها لتحميه، كذلك التّراب عانق وليدته ليحميها.

وُلدتْ شــادية في مهدها قُرب شــاطئ أبي نصّور حيث رأت منه الأفق الأعلى، مطلــع الشّــمس ومشرقها وتوفّاها الله فتيّةً شَــهْباءَ في لحدها قُرب شــاطئ العزيزيّة في كفار سمير في حيفا لترى غروب شمسها.

وتــرى من هناك قرص الشّــمس في شــفقِهِ يذوب في مياه البحــر لينام نومه اليومي لراحته اليوميّة لكن قرص الشّــمس يعــرفُ أنّها هناك عروس نائمة لراحتها الأبديّة الخالدة، خلود الشّــمس. وسيشــتاق القمــر لعينيْها في لياليه وستشــتاق عيناهــا لرؤيته في بــدره، يا بــدرًا، يُنوِّر على مــوج البحر ورمله وعندما يكون القمرُ بدرًا، ترى المياه مُضاءةً وتكون رؤية البحّارة السّامرين على فُلكهم واضحة.

زرعوها قمحةً على شاطئ حيفا، فهل ستملأ أوديتها وروابيها السّنابل؟

حــين زرتهــا يوم الأحــد قبل إثنــين نومها الأزلي وكانــت الغيبوبة ســيّدتها، إســتيقظتْ لي خصّيصًــا، ورأيتُ حركات شــفتَيْها ترســم ابتســامة مُرحِّبة ومودِّعة، ابتسامة جميلة خجولة لتعود بعد لحظات إلى حضن سيّدتها.

تُــرى أيّ الزّهور تحبّ؟ هل تحبُّ الياســمين الدّمشــقيّ الأبيض النّاصع، ذا الرّائحــة الفوّاحة الزكيّــة حين تُداعبه أناملُ النّســيم العليــل أم تحبُّ الورد

الجــوريّ الأحمر؟ أم تحبُّ الأقحــوان وزهر الرّمان؟ أم الفُــلّ والقرنفل على ألوانــه أم أنّها تُحِبُّ لونًا مميّــزًا ومختارًا ومُفَضّلاً؟ فمنــذ الآن لن يكون لها سريــرٌ لتضع الــورود بقُربه، ولا شُرفةٌ تزرع في قواريرهــا أزهارها المُفَضّلة. ولن يأتي البُلبل ليُغرِّد على شُــبَّاكها صباح كلّ يوم ولن تزقزق لها العصافير بعد أن تشرب قطرات النّدى وهي تسيل من زهور شُرفتِها.

سيشتاق لعينيها بحر حيفا فقد كانت تملأ عينيْها وتُمتّعهما بمنظره الخلاّب من شرفتهــا في حيّ عبّاس، أيّام كانت تزور أهلها لترتاح من عناء الحصار الغاشــم لرام الله. وستشتاق عيناها لرؤية البحر بهدوئه وهديره، مع أنّه بجوارها.

ويبكــي لرحيلها المُبكِّر كلّ أحبّائها ومُحبّيها وكلّ من عرفها وكلّ من ســمع عنها.

وســيذكرها محبّوها دائمًا بالخير والمودّة والطّيبة والجمــال والرّوعة والرّقّة والحنان والهدوء والأخلاق الحميدة.

ومــن البحر إلى البحر ومن الشّــاطئ إلى الشّــاطئ ومن الكرمــل إلى الكرمل تعودين يا شادية، يا أمّ ابراهيم.

وليكُن ذكرُكِ مُؤبّدًا.

وسنُغَنّي لشادية دائمًا أغْنية فيروز:

بَعْدَك عَلَى بَالِي
يَا قَمَرِ الحِلْوِين
يَا سَهْرِة تِشْرِين
يَا ذَهَبِي الغَالِي
بَعْدَك عَلَى بَالِي

"والطَّيِّبُونَ عَلَى المُبَارَكِ أَحْمَدِ"

صَادفَت وفاة رفيقنا د. أحمد سعد مساء التّاسع عشر من شهر نيسان من العام ألفين وعشرة مع مسيرة العودة، في العشرين منه، إلى قرية مسكة المُهجَّرة في منطقة المثلّث التي تنظِّمها جماهير شعبنا في كلّ عام في ذكرى النّكبة، حسب التّقويم العبريّ، وتتزامن وفاته مع الذّكرى الثّانية والسِّتِّين لاحتلال مسقط رأسه البروة، في أيدي لواء كرميلي في عمليّة بن عامي في الحادي عشر من حزيران من ذلك العام الذي انتكب فيه شعبنا، كذلك تُصادف وفاتُهُ ذكرى ميلاد معلّم وقائد الثّورة الاشتراكيّة العُظمى في روسيا القيصريّة فلاديمير إيليتش لينين.

رحل عنّا بعد عراك شجاع وطويل ومرير ومثابر مع الأمراض المزمنة لبلادنا ضدّ الاحتلال ومن أجل التّحرير والأمميّة والعدالة الاجتماعيّة والمساواة والدّيمقراطيّة وحقّ العودة ولَم تنل من عزيمته قيْد شعرة لكنّ أمراضه الصِّحيَّة على أنواعها حالت دون رؤيته النّصر الآتي الموعود والمنشود..

تركنا على الأرض التي أحبّها وعشقها وترك إرثًا كبيرًا عزيزًا أورثه لجميع الأحرار من رفاق وأصدقاء الحزب والجبهة دون إعلان حصر إرث في الصّحف، لأنّ هذه التِّركة الغالية هي مُلْكنا جميعًا دون منازع أو منافس.

منح جميع العمّال والفلاحين والكادحين والمنكوبين واللاجئين والمُضطَّهدين والمثقّفين الثّوريّين، في بلادنا، قرطاسًا وقلمًا ورمحًا وسيفًا مشهرًا ومشرعًا عاليًا بوجه الظّالمين والمُحتلِّين بعد أن عرفته الخيل والليل وعرفت وطأته البيداء

والبطحاء..

رحــلَ دون إذننا أو مشــورتنا، رحــل دون أن يودِّع قريته، الــبروة، ويُطمئنها بعودتــه الأكيدة، تلك البروة البعيدة عنــه بُعد مرمى الحجر، بعيدة عنه منذ أن هجّرت عساكر صهيون أهله وأهلها منها لتكون مسكنًا لغرباء ادّعوا أنّها أرض ميعادهم بصكّ إلهيّ جائر، يحرِّم الوطن على أهله الذين يعرفونه كَأَكُفِّ أيديهم ويُحلِّله للغرباء. لكنّها تســكن قلبه مع كلّ خفقة قلب ومع كلّ نبضة عرق من عروقه، فقد سكنت البروة فؤاده وعقله وخلّدها في أحاديثه وقصصه البرناويّة، وكان «خالد البرناوي» أو «سويد اليمن» بارعًا وهادِفًا ومبدعًا بإتقان وامتياز. فقــد كان والدي، أبــو خالد، يقرأها في صحيفة الاتحــاد في زاوية صباح الخير، بمتعــة لوالدتــي، على شرفــة المنزل بعد أن أخــذ مرض السُّــكَّري من أعصاب وشرايين عينيها حيِّزًا واسِــعًا..ويخبرني عبر الهاتف تفاصيل ما قرأ وكم حزِن والدايَ عند سماعهما خبر وفاته.

حين وقفتُ مع والدي والرّفيق أبي فاتن حسين مباركي ابن قرية النّهر المهجّرة مع الآف المشَيِّعين في مقبرة كفر ياسيف همس قائلاً ذهب الذي يُنكر على نفسه حقّ «الأنا» وعمل بكدٍّ وتعبٍ وتفانٍ متجاهلاً كلمة "أنا"، التي لَم تكن في دفتره الخاصّ ولا في قاموس مفرداته.

رحل عنّا الشّيوعي والعروبي والفلسطيني والمناضل والكاتب والأديب واللاجئ البرنــاوي ذو الأخلاق الحميدة والدّمثة والمتواضع أبو محمّد وهو في قمّة عطائه ونحن في أحوج الظّروف إليه وما أصعب الفراق حين يكون مفاجِئًا.

وإذا كان عجز بيت من قصيدة الشّاعر حسّان بن ثابت حين بكى وفاة الرّسول العربيّ الكريم محمّد (ص) بعد أن صلى الله عليه«والطَّيِّبُونَ عَلَى المُبَارَكِ أَحْمَدِ»، فإنّ بيت القصيد لأبي محمّد بأن يحافظ الشّــيوعيّون والجبهويّون والوطنيّون على درب المبارك أحمد، أبد الدّهر حتّى تتحقّق مطالبه/نا وأهدافه/نا.

رفاق في الدّورة الحزبيّة من اليمين إلى اليسار وقوفًا: عبّاس زين الدّين، طوني نقّارة، إبراهيم تركي، بطرس تركي وابراهيم عاقلة، جلوسًـا من اليمن إلى اليسـار: ذيب عابدي، محمّد عبد الهادي وعبد الرحمان عابدي.

مظاهرة أوّل أيّار في الناصرة، في خمسينات القرن الماضي

مظاهرة أوّل أيّار في حي وادي النّسناس في حيفا في تسعينات القرن الماضي ويظهر في الصّورة من اليسار إلى اليمين، الرّفاق: إتيل كلنغر، بطرس سمعان، ابراهيم فحماوي ونظلة (خوري) عطيّة

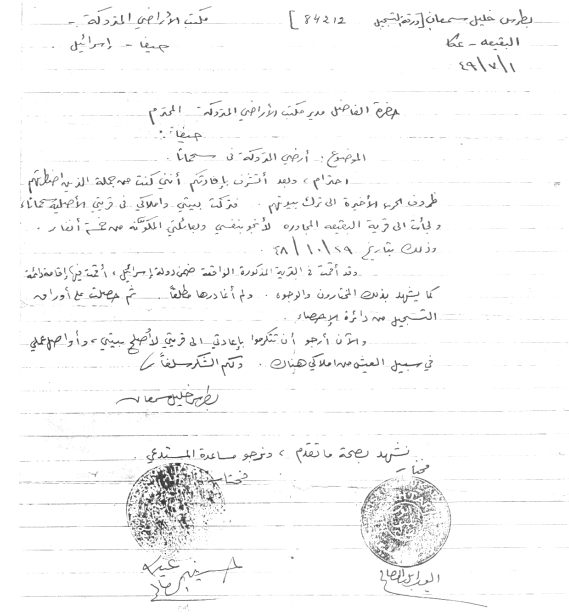

بطرس خليل سمعان [ورقة تسجيل 84212]
البقيعه - عكا
١/٧/٤٩

مكتب الأراضي المتروكة -
حيفا - إسرائيل .

حضرة الفاضل مدير مكتب الأراضي المتروكة المحترم
حيفا :

الموضوع : أرضي المتروكة في سحماتا .

احترام ، ولقد أتشرف بإفادتكم أنني كنت من جملة الذين اضطرتهم ظروف الحرب الأخيرة الى ترك بيوتهم . فتركت بيتي واملاكي في قريتي الأصلية سحماتا ، ولجأت الى قرية البقيعه المجاوره لأنجو بنفسي وبعائلتي المكونة من خمسة أنفار .
وذلك بتاريخ ٢٩/١٠/٤٨ .

وقد أقمت في القرية المذكورة الواقعة ضمن دولة إسرائيل ، أقمت فيها إقامة دائمة كما يشهد بذلك المختارون والوجوه . ولم أغادرها مطلقاً . ثم حصلت على أوراق التسجيل من دائرة الإحصاء .

والآن أرجو أن تتكرموا بإعادتي الى قريتي لأصلح بيتي ، وأواصل عملي في سبيل العيش من املاكي هناك . ولكم الشكر سلفاً .

بطرس خليل سمعان

نشهد بصحة ما تقدم ، ونرجو مساعدة المستدعي .
مختار   مختار

صورة لرفاقنا
المنفيّين في مدينة
صفد

مظاهرة أوّل أيّار في كفر ياسيف في خمسينات القرن الماضي

في مكتب رئيس المجلس المحلّي كفر ياسيف يئّي يئّي، من اليمين إلى اليسار:
أحمد شحادة، سليم سعيد، يئّي يئّي وفيوليت خوري

الرفيــق إدوار الياس ورفاقه أمام معهــد اللغة التّحضيريّة في مدينة سينتس في جمهورية تشيكوسلوفاكيا في سبعينات القرن الماضي

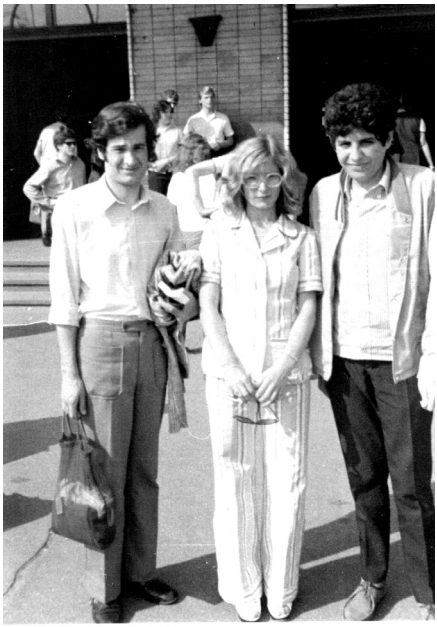

أمــام جامعــة كوميتنســكي في مدينــة براتيسلافا، عاصمة جمهوريّة سلوفاكيا مــن اليمــين إلى اليســار: إدوار اليــاس، ميلكا خميس وعبد العظيم مصطفى

الرّفيـق إدوار اليـاس في حفـل تخريـج الرّفيـق أحمد زيّاد والرفاق نسـيم خميـس وزوجتـه ميلـكا وأمين نخلة

رفاق إدوار الياس في رحلة عـلى جبـال التـترا شرقي سلوفاكيا

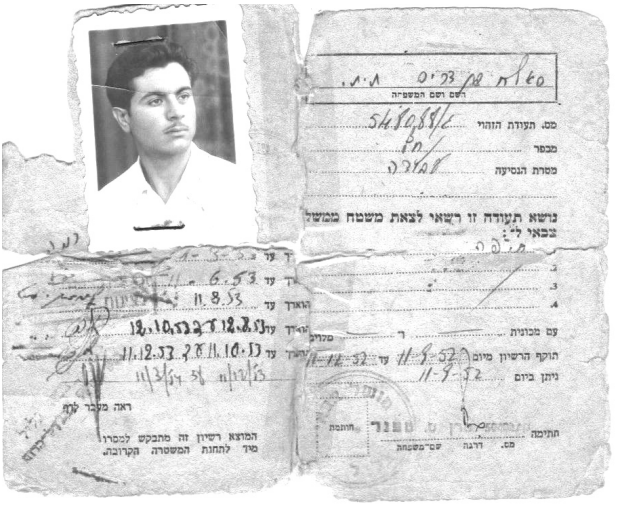

השם ושם המשפחה
מס. תעודת הזהוי
מספר
מטרת הנסיעה
נושא תעודה זו רשאי לצאת משטח ממשל צבאי ל:
עם מכונית
תוקף הרשיון מיום ... עד
ניתן ביום
חתימה
מס. דרגה שם־משפחה
ראה מעבר לדף
המוצא רשיון זה מתבקש למסרו מיד לתחנת המשטרה הקרובה.

ממשל צבאי
רשיון יציאה
משטחי הממשל הצבאי
№ 04941
רשיון זה מקנה היתר יציאה רק להתהלך במקומות ולאותה המטרה המסומנת בגוף הרשיון.
עליך להחזיר או להחליף את הרשיון במקום הוצאתו.
עליך להת..ע מיד לתחנת המשטרה הקרובה במקרה של אבדן הרשיון.
המוצא רשיון זה מתבקש למסרו מיד לתחנת המשטרה הקרובה.

صورة لتصريح الحكم العسكري، للخروج من مناطق الحكم العسكريّ

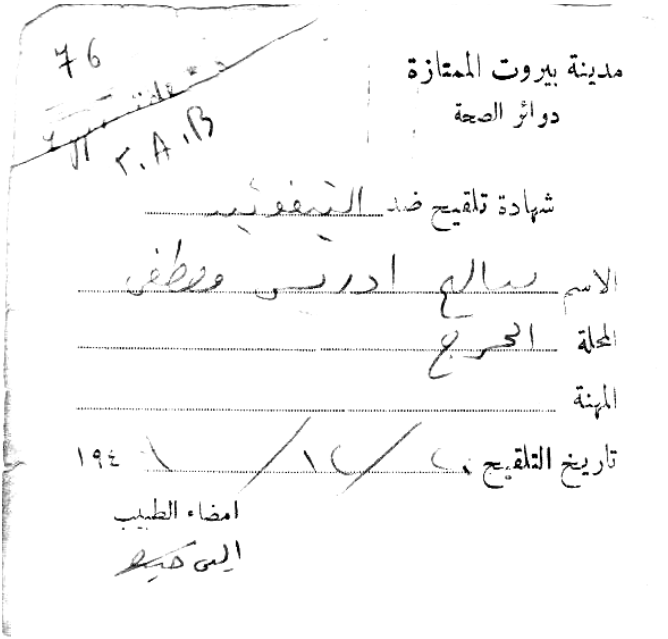

76

٢.٨.١٣

مدينة بيروت الممتازة

دوائر الصحة

شهادة تلقيح ضد التيفوئيد

الاسم سالم ادريس مصطفى

المحلة الحرج

المهنة

تاريخ التلقيح ٢ / ١ / ١٩٤

امضاء الطبيب

الياس [illegible]

معلومات لا بدّ منها

الجليل الغربي غني جدًّا بأرضه الخصبة والمياه العذبة بالبساتين المثمرة والطواحين
التي تدار بالمياه فكانت المنطقة خلية عمل ليلاً نهارًا ومن قرية الكابري غربًا الى حدود
لبنان شمالاً الى البحر غربًا موجود كنز مائي لا مثيل له في منطقة غيرها في فلسطين
يكاد يكون بحر مياه جوفية لذلك أُقيمت معركة الكابري بقيادة [illegible]
صهيوني حتى يهرب الأهالي الذين لم يكونوا مستعدين لترك بيوتهم وأراضيهم
وبقي في قرية البصه مثلاً المختار وبعض العائلات رحلوا الى قرية المزرعه أي
مهجرين في الداخل وأيضًا كل من بقي من السكان من القرى المهجرة لا يملك من أرضه
شيئًا حسب قانون الحاضر الغائب

خطّ يد الرّفيق حسين مباركي

كواشين عائلة مباركي تثبت ملكيّة الأرض

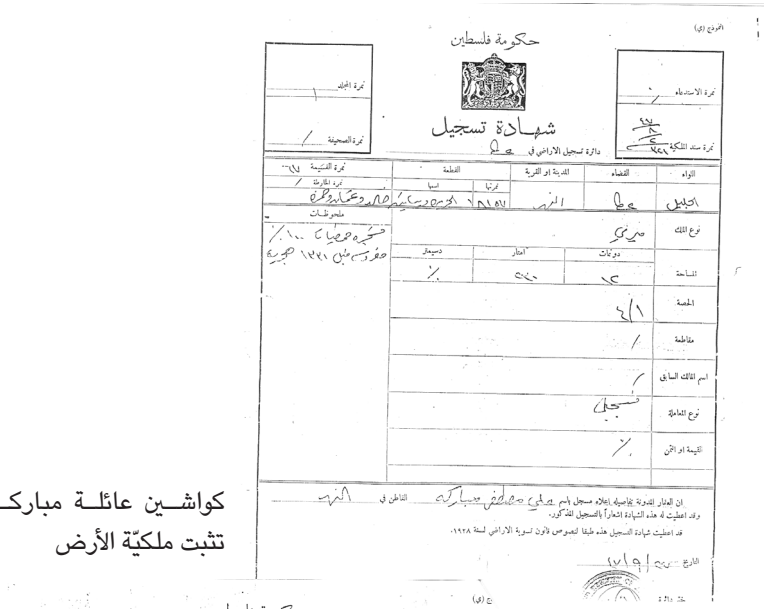

(نموذج (ي))

حكومة فلسطين

شهادة تسجيل

دائرة تسجيل الاراضي في عكا

نمرة الاستدعاء /

نمرة سند الملكية

نمرة المجلد /

نمرة الصحيفة /

اللواء	القضاء	المدينة او القرية	القطعة نمرتها	القطعة اسمها	نمرة القسيمة / نمرة الخارطة
الجليل	عكا	النهر	١٨١٥٧		/

نوع الملك: ميري

المساحة: دونمات ٢ — امتار — دسيمتر /

الحصة: ١/٤

مقاطعة: /

اسم المالك السابق: /

نوع المعاملة: تسجيل

القيمة او الثمن: /

ملحوظات

ان العقار المدونة تفاصيله اعلاه مسجل باسم علي مصطفى مباركه القاطن في النهر

وقد اعطيت له هذه الشهادة اشعاراً بالتسجيل المذكور.

قد اعطيت شهادة التسجيل هذه طبقا لنصوص قانون تسوية الاراضي لسنة ١٩٢٨.

التاريخ

ختم دائرة

(نموذج (ي))

حكومة فلسطين

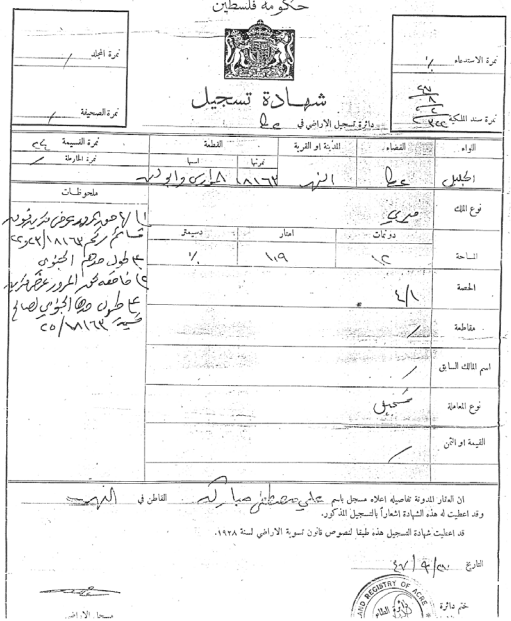

شهادة تسجيل

دائرة تسجيل الاراضي في عكا

نمرة الاستدعاء /

نمرة سند الملكية

نمرة المجلد /

نمرة الصحيفة /

اللواء	القضاء	المدينة او القرية	القطعة نمرتها	القطعة اسمها	نمرة القسيمة / نمرة الخارطة
الجليل	عكا	النهر	١٨١٦٣		/

نوع الملك: ميري

المساحة: دونمات ٢ — امتار ١٠٩ — دسيمتر /

الحصة: ١/٤

مقاطعة: /

اسم المالك السابق: /

نوع المعاملة: تسجيل

القيمة او الثمن: /

ملحوظات

ان العقار المدونة تفاصيله اعلاه مسجل باسم علي مصطفى مباركه القاطن في النهر

وقد اعطيت له هذه الشهادة اشعاراً بالتسجيل المذكور.

قد اعطيت شهادة التسجيل هذه طبقا لنصوص قانون تسوية الاراضي لسنة ١٩٢٨.

التاريخ

ختم دائرة

LAND REGISTRY OF ACRE

مسجل الاراضي

(النموذج (ي))

حكومة فلسطين

شهادة تسجيل

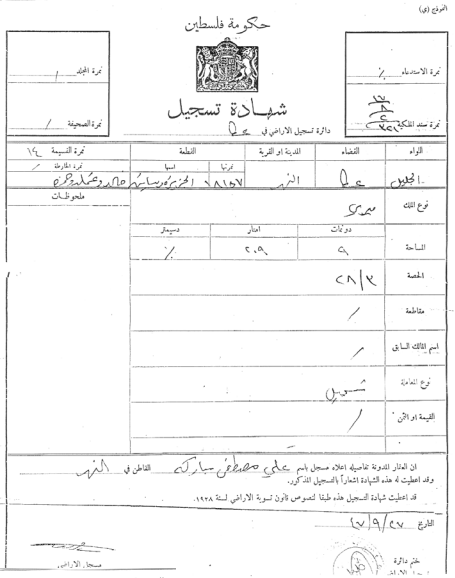

دائرة تسجيل الاراضي في عكا

نمرة المجلد ١ — نمرة الصحيفة ١ — نمرة الاستدعاء ٪ — نمرة سند الملكية

اللواء	القضاء	المدينة او القرية	القطعة: نمرتها	القطعة: اسمها	نمرة القسيمة / نمرة الخارطة
الجليل	عكا	النهر	١٨١٥٧	الجزيرة وساسا ...	١٤ / ١

نوع الملك	ميري
المساحة	دونمات ٩ — امتار ٢٠٩ — دسيمتر ٪
الحصة	٢٨/٢
مقاطعة	/
اسم المالك السابق	/
نوع المعاملة	تسجيل
القيمة او الثمن	/
ملحوظات	

ان العقار المدونة تفاصيله اعلاه مسجل باسم علي مصطفى مبارك القاطن في النهر
وقد اعطيت له هذه الشهادة اشعاراً بالتسجيل المذكور.
قد اعطيت شهادة التسجيل هذه طبقا لنصوص قانون تسوية الاراضي لسنة ١٩٢٨.

التاريخ ١٧/٩/٢٧

ختم دائرة تسجيل الاراضي — مسجل الاراضي

كواشين عائلة مباركي تثبت ملكيّة الأرض

(النموذج (ي))

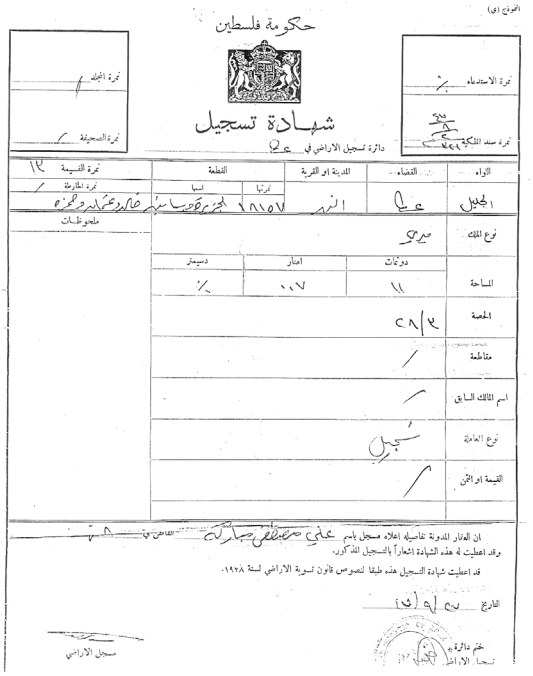

حكومة فلسطين

شهادة تسجيل

دائرة تسجيل الاراضي في عكا

نمرة المجلد ١ — نمرة الصحيفة ١ — نمرة الاستدعاء ٪ — نمرة سند الملكية

اللواء	القضاء	المدينة او القرية	القطعة: نمرتها	القطعة: اسمها	نمرة القسيمة / نمرة الخارطة
الجليل	عكا	النهر	١٨١٥٧	الجزيرة وساسا ...	١٢ / ١

نوع الملك	ميري
المساحة	دونمات ١١ — امتار ٠٠٧ — دسيمتر ٪
الحصة	٢٨/٢
مقاطعة	/
اسم المالك السابق	/
نوع المعاملة	تسجيل
القيمة او الثمن	/
ملحوظات	

ان العقار المدونة تفاصيله اعلاه مسجل باسم علي مصطفى مبارك القاطن في النهر
وقد اعطيت له هذه الشهادة اشعاراً بالتسجيل المذكور.
قد اعطيت شهادة التسجيل هذه طبقا لنصوص قانون تسوية الاراضي لسنة ١٩٢٨.

التاريخ [illegible]/٩/٢٧

ختم دائرة تسجيل الاراضي — مسجل الاراضي

في زيارة بيتيّــة للرّفيق صالح إدريــس ويظهــر في الصّورة من اليمين إلى اليســار الرّفاق: اسكندر عمل، حسين مباركي، إبراهيم تركي، يعقوب الياس وصالح إدريس

في غابة الجيش الأحمر احتفــالاً بيــوم النّصر على النّازيّة، الرّفيقان: صالح إدريس وإلياهو منصور

مظاهرة الأوّل من أيّار في مدينة النّاصرة في خمسينات القرن المنصرم

وفـد جبهوي إلى ألمانيـا الديمقراطيّة سـابقًا، ويتألّف من الرّفاق والأصدقـاء من اليمين إلى اليسـار: لطف حـاج، عبّاس زين الدّين، غسّـان حبيب، أحمـد الخطيب والمرافـق الألماني. خلفهم: نايف سليم، محمّد عزوني وفيصل أبو يونس

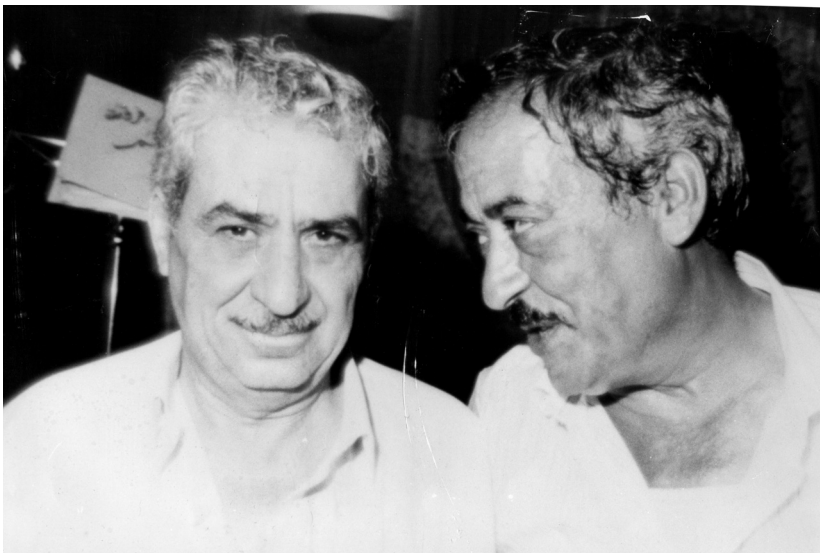

الرّفيق أبو عوني البيّومي مع القائد توفيق زيّاد

الرّفاق والأصدقاء عبد الرحمن عابدي، عوكاش، غروسبارد باسكيل وعصام العبّاسيّ

من اليمين إلى اليسار الرّفاق: متيًّا نصَّار، فؤاد خوري وسركيس أبريان